

يحيى امقاسم

يحيى امقاسم

رجل الشتاء

أيام كثيرة وصغيرة



للثقافة والنشر والإعلام



يحيى امقاسم

رجل الشتاء

ايام كثيرة وصغيرة

الكتاب: رجل الشتاء، أيام كثيرة وصغيرة/ رواية
تأليف: يحيى امقاسم
عدد الصفحات: 216 صفحة
الطبعة الأولى: 2017
الترقيم الدولي: 978-9938-886-99-3
رقم الناشر: 17/395-105

الناشران

دار التنوير للطباعة والنشر
تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر
1001 تونس - هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar - altanweer.com
لبنان: بيروت - بئر حسن - سنتر الهزيم
الطابق الأول - هاتف: 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
موقع إلكتروني: www.dar - altanweer.com



للثقافة والنشر والإعلام
TUWA MEDIA & PUBLISHING LIMITED
19 TANFIELD AVENUE, LONDON, NW2.
UNITED KINGDOM
Email: tuwa@london.com
TEL: 00966505481425 - 00966556687678



•يعود ريع هذا الكتاب لأطفال سوريا واليمن.

في وفاء إلى سنوات قليلة وكريمة (2006 - 2010)

مع عبدالله الخطيب، سمير علّاف، سعد الشهراني، مهدي آل شَرْيَةْ، جسّاس الأغبري، طارق السويلم.

وإلى فذّة الانتصار «ماريّا سعيد».. علّني أُجيدُ قليلاً من اللّباقة.

وصالح بشير (صلّوحي)..

حتى يكون الاختفاء الأخير مُؤقتاً.

و...*

مِسَنّ

«ليس الفقد ما يُحزننا على
أحدهم؛ بل إدراكنا أنّنا لن نستطيع
قضاء بقيّة حياتنا على الشغف ذاته
الذي عشناه يوماً»
أريج عبدالله

أيّها العابر تأكلك الأيام الصغيرة، فيما أنا تنمو منّي الأيام الكبيرة.

شارع «التجارة» ـ كُومّيرس ـ سيبدأ قبل مورد البهجات الليلية «شارلي بيردي»، وكنيسة «سان جون بابتيست» علامة أحد طرفَيْه الغنيَّيْن، والمميزَيْن وسط الدائرة (15) من باريس. سيأتي إنّني قبل شهر أسكن بالقرب من «مترو لامُويْت بِكيي قْرُونيل»[1]. عمّا قليل سيكشفُ أول بائع لحوم، عند الناصية المقابلة، أنّه قادم من جزيرة «سِسِليا»، صقليّة، وأنّ له دماً راكضاً في التاريخ حتّى العرب. الاستديو ـ مسكني ـ يُشرف من ركن البناية على الشارع. فيما بعد ستزيد إطلالتي المستمرة على رجل «سِسِليا»، وعلى تلك الفتاة ذاتها عندما تُكرر زيارتها له بالسؤال عنّي.

---

(1) ـ **غازي السالم يقول**: هذه المحطّة (La Motte Picquet Grenelle)، وقبل معرفتي بـ(محطّة بئر حكيم) ـ معركة 1942م في ليبيا ـ أمتدحها لطلال في مستقبل الأيام ليُقيم فيها، أسخر منه. أنصحه بتتبع تهويات أنفاق المترو فتدفئتها تُخفف عليه برد الشتاء.

ـ **يُوضّح**: طلال لن يستفيد على الإطلاق من شارع (Rue du Commerce) المكشوف، فمحلاته التجارية بلا عتبات أو أبواب تفي بفراش نومه المتنقل، كما يحلو لي هذا الوصف لتمتين إهانته. مهما يستعطف وحتّى إن يصل حاله إلى مناشدة جمعيات الرعاية والرحمة أو يطلب المساعدة مما تتلقاه كنيسة (Saint-Jean-Baptiste) من تبرعات، فلا ملاذ له في تشرده غير هذه المحطّة.

السيدة الستينية ستقف إلى جواري في موقف «كامبرون». ستنتظر الباص، وسترفض الجلوس لو أدعوها لأخذ مكاني في مقعد الانتظار. لن تقبل بمبرّر أنّها تُفضّل الوقوف. إنّها تطمح إلى زيادة طولها قبل السبعين، والجلوس سيحدّ من رشاقتها، كما ستقول. الفتاة، هي ماتيلد، وستُعاود في أوقات مقبلة زيارتها لمسقط إطلالتي. سوف تبتسم على مداخلة السيدة تجاه دعوتي. بعد قليل ستتذكر الفتاة أنّ عمّها يُؤكّد: «القبلة تزيد من طول الفتاة». أنا سأُعلّق متفحّصاً جذعها المتوثب لممازحة: «هذا يعني أنّك كثيرة القبل...». ستبتسم في خجل. ستردّ بما يدعو لحديث سيتّسع لمقطورات اللهفة أن تهدر مركباتها بطول سنوات تفصل بيننا. هنا لن أقصد فارق العمر؛ بل سأعني جدارة الحياة من جانب وسِجّل الشخص الحافل بالضياع من جانبي.. سأُكمل.. ستقول ماتيلد حديثاً سأنوي بدأه أنا عند الإشارة إلى طولها. ردّها ليس له قياس شخصها؛ بل مشوب بحدّة الواثق ويذهب في صور تخصّ إيمانها، ستقول: «العمّ إيقرِكْ يُفاخر بقوامه الفارع. له الفضل على كثير فتيات يفعلنها.. ومن قبل يجدن صعوبة في الوصول لقطف قبلة منه». ستتذكّر عن عمّها: «وهذا ما يجعلهنّ بمثابرة طويلات وهنّ يقفن على أصابع أقدامهنّ عند تمام ظمأ شفاههنّ». ستصمت لتُفكّر قبل أن تُضيف: «على أي حال.. أنا لن أُحِبّ بهذه الطريقة». ستنظر إلي لتتحقق بي من وجاهة تعليقها. إنّها ستُدافع عن أُنوثة لن تكون خافية. وهكذا سأصمت.. سأعود من جديد أسألها: «إنّكم من النورمندي؟!». سيُوقعها سؤالي في بهجة متوقعة.. ستنظر إليّ وستُوافقني دون تعجّب: «تحديداً من مدينة رُوان».

لاحقاً عليّ أن أعرف أنّها تُقيم في باريس. تُكمل دراستها الجامعية

في «المدرسة العليا للعلوم السياسية» ـ Sciences Po [1]ـ. اليوم ستقضيه في مكتبة «فرَنسوا مِيتِرَان». هذا بعد أن تُعرّج على نزل صغير للقاء عمّها ـ سيد القبلات ـ. بعد المكتبة ستستقلّ المترو باتجاه محطّة «سان بُول». من هناك ستُكمل مشوارها قليلاً سيراً على الأقدام لتشتري جاكيت لوالدها، كما يحبّ. ستختاره من متجر ليهودي من أصول تونسية، وفيما بعد ستُؤجرني ابنة عمّ هذا البائع ـ طبيبة الأسنان ـ نُزلها الصغير في الدائرة (16). سيعقب الشراء جولة معها في ميدان «دي فوج»[2] المجاور لصف طويل من متاجر الملابس الرجالية. متاجر تتلاصق ويدفعك الواحد منها فور دخوله إلى اعتناق فكرة الرجل الخمسيني عن عمره حين يتقدّم. عمّا سيرتديه ليردّ عن نضارته مداهنة السنوات المقبلة. وكي لا يمحو حظوظه في مواعيد مشبوبة وساعات لامعة وأحذية منضبطة. ماتيلد ستقتضب فلسفة عمّها عن اللبس في هذا الانتماء المحدود زمنه، كما سيُخبرها. سيُضيف لها أنّه يلزم الحذر حتّى عند عقد ربطة عنق. لن تُفلح في عقدها

---

(1) ـ أو معهد العلوم السياسية واختصاره (Sciences Po)، له فرع في مدينة مُنتُونْ، جنوب شرق فرنسا على حدود إيطاليا. لاحقاً يأتي طلال لنجدة هذه المدينة بالحيويّة. يكون مروره في مطلع الخريف، ويحرص أن يسبق مؤامرات الشتاء. يعتقد أنّه يُحيي مقاهيها، حين يحكي أنّ مُنتُونْ تنهض من مياه المتوسط لأداء التحيّة في حضرة فارس الطموحات المحدودة. هناك يلتقي بفتاة، تُرافقه كمترجمة، من الـ(دُلْمُون).. بحرينية، وماتيلد لا تُفوّت السؤال عنها طيلة الوقت المتوقع معها، ولا تسهو عن حروف اسمها شمّاء جاسم، أمّا غيثة لن تُثيرها لأنّها ترتبط لديه بالمؤقت وغير الآمن.. كلّ هذا يتقرر في المقبل من الأيام. لم يكن هذا هامشاً للتعريف بمعهد رفيع، بقدر ما هو من قبيل وشايات بِن يزن بشخصيات تُحاصر طلال، كما يأتي.

(2) ـ في مجمل ما يستصيب طلال من أمل: قد تصحبه ماتيلد إلى ميدان (Place des Vosges) في الدائرة (4) من باريس، وتُهديه يوم ميلاده مبيتاً واحداً في فندق جناح الملكة الواقع إلى جانب قريب من هذا الميدان.

مالم تربطها أول مرّة فتاة من طراز الألق.. «هذه تُشبهك.. إيقرِك يتعمّد دعاية لك بطعم البهجة»، ستضحك.

أنا سأتمنّاها تعقد ربطة عنقي عندما نحضر حفلاً في «القصر الكبير» ـ Grand Palais[1] ـ بينما والدها البروف ماتِيُو لن يجد حرجاً بعد تقاعده من ملابسه. إنّ تمسّكه بالحذر الفاصل بين رائحة الحليب الدّالة على (أُمّ) ـ لا أكثر ـ وبين عبق امرأة من لهب، سيُعفيه من أيّ حاجة لسنوات الشباب. ستتحسّس ماتيلد ـ لحظة التعريف بأبيها ـ إبرةَ الشمال على قلبها، وستُهاتف أمّها في هِلِسِنكي.

«ماتيلد[2]، نتشرّف». «طلال من العربية السعودية، نتشرف». هذا حين ألتقيها في المكتبة، قبل أيام، ونقول في التاريخ وصنائع الزمن بينما هي تكيل الحبّ أكثر في عمّها.

إنّه صباح الاثنَيْن ومطلع إجازة ربما ستطول بأعياد مختلفة. سأُقابلها في الموقف مصادفة. سيسبق أن يُصرّح كلّ واحد منّا عن جهة سكنه. بعد

---

(1) ـ **وحول هذا المكان:** (Grand Palais) المشبع بنصاعة التجارب العالمية في الدائرة (8) من باريس يقع في (3, Avenue du Général Eisenhower) **السيد خطّاب العلي** ـ رئيس العمل كما يحضر ذكره ـ يُمنّي النفس يوماً بتنظيم محفل ثقافي لبلده في هذا القصر العريق، لكن عندّما يذهب الوقت بوطنيين يدعمون خطواته في العمل ستضمحلِ المشاريع وتُشدّ الحقائب بعيداً عن باريس. **هذه تكون مكاشفة متأخرة ـ وتتحفّظ في كثيرها على عميق الودّ والتحسّر ـ بين طلال ورئيس عمله السيد خطّاب العلي.**

(2) ـ **(Saint Matilda) القدّيسة ماتيلد (895 ـ 968م):** يُقدّرون أنّ يوم ميلادها يكون في صبيحة العاشر من تشرين الثاني ليُوافق ميلاد طلال وفي الوقت ذاته أيضاً. حتى الخطأ يكون صواباً بحافز القلب. ما يُدهش ماتيلد وتغرق في فكرة أنّ ضوءَ ديرٍ يخفت؛ فتُفتّش عنه؛ لأنّ لاسمها شِقّ من تلك القدّيسة وإن تتخلّى عن دور الطمأنينة والمحبّة وتذهب منذ قرون. ربما تجد ـ بتوصية من إيقرِك ـ في طلال علامة النبوّة على القلب فقط. **يُقرّ هذا فرض مخيال من كثير حكايات تتوالى متى يُصوّبها القدر إلى الواقع برجاء مُلحّ من طلال.**

وقت ستقول إنّ جدّتها تنصح: «على الناس أن يلتقوا مثل أجدادي الغجر». سيصلني ما ترمي إليه تلك العجوز القديمة. أجدادها يلتقون بغيرهم على غناء ورقص يفترقون عليه قبل خمس، عشر سنوات. هكذا هم الغجر دوماً فمن حيث ينتهون، قبل سنوات بعيدة، سيبدأون دون تقليب أخبار، ولا بيان مسرّات أو أحزان، ولا حتّى السؤال عن الغائبين. إنّهم باقون على الحال ذاتها مهما يمتدّ الزمن عليهم بفرقة. من هذه الغجريّة سأفهم أنّ المعرفة العميقة عادة تعطب السعادة، فالمعاناة تتنامى من التمسّك بآخر. مع ماتيلد سأتبادل «صباح الخير» بطريقة تكشف أنّ بذرة معرفة تنمو بحرص. سنُشرق بفرح حال نلتقي في موقف الباص، لكن لم نكن عاشقَيْن، أو نتبادل أغاني «جاك بريل» ـ Jacques Brel ـ. سأعتقد من طرفي أنّ هناك عشباً من الشغف. سنعرف معاً قرب المسافة بين عنوانَيْ السكن. لن أكشف لها تعمّدي، يوم أمس، أن تلحظني وأنا أُزيح طبيعة الأشياء وأُلغيها؛ لتكون، هي فقط، نصب النظر، متى تستقلّ الباص ذاته. سأُلازم ـ اليوم ـ الموقف ولن أصعد أيّ حافلة ستتوقف إلى أن تصل. لن تعرف أنّني سأُراقبها منذ فترة عبر هذا الخطّ وسأتحاشى عينيْها كلّ يوم. هي ستقول لي في المكتبة: «من قبل أراك في شارع كُومّيرس...[1]».

عمّا قليل سنتواطأ ضدّ قلق السيدة الستينية من تأخر الباص. سنحبّ دورنا في مراقبة توترها. ماتيلد بعيون زرقاء ليست قابلة للكتابة، ففي الكتابة اجتهاد مضني، أمّا هي فالماء في سهولته لن يفوق بساطة مظهرها.

---

(1) ـ بن يزن انطلاقاً من دراسته للغة الفرنسية يقول: ما يحدث من نطق فرنسي هو الدّارج في اليومي بين طلال والرفاق، فيكتبه أو يتداوله كما يصله أول مرّة، دون ترجمة مباشرة في كثير أسماء لأمكنة وشخصيات. لا تُوجد قاعدة لغويّة صارمة فيما نراه أو نسمعه من حكايات، لذا ما يُسجّل يكون بحسب تعرف المتلقي، طلال أوغيره، على نطقه أول مرّة. نُورد هذا في البداية لتتّضح لكلّ كلمة مع تكرارها خصوصية مقارنة بغيرها من الكلمات، بينما كميل يتجاوز إحاطة أسماء دون غيرها بشروط الكتابة وعلامات تنصيصها.

إذن ستكون قابلة لأقرب معنى يتعلّق بالحياة المهذّبة من تحسينات الرسمية. تركض منها روح التلقائي.

ستمر دقائق ـ ليست بضعاً من الوقت ـ ستكون سِجّل تخيّلات تطفو بشهيق سيلزمني كتمه. سأضطرّ إلى التخلّص من الاضطراب الظاهر للحظات عند أيّ بداية حديث. السيدة ستُخفف من هذه الحالة متى تتأفف من لحظات الانتظار. سيكون انتباه ماتيلد لتأففها بمثابة «فريق إنقاذ» لي من تجشّم عناء المبادرة بالحديث. الكلمات ستتلصص من فمي ولن تتقدّم. سأُكرر أنّ التخيّل لا يختلف عن مهنة مضنية وتستنفر الكثير. هذا وماتيلد تُقدِّم شرح اللحظة بابتسامة تكفي لإبهاج شعب له نظافة يدَيْها.

> ... وليكن، فالتخيّل، هو بديل ما لا يحدث. مقابل ما لا يبقى. إنّه انفراد محض بخلق استطاعة وتدبير للكوت خاصّ. إنّه الحياة القائمة في محاذاة الزمن، في موازاة ركض الوقت بمجريات لا جدارة للتجربة أن تصنع بديلها من أحداث بهجة وتكوين متواليات دهشة. التخيّل هو الصيغة الوحيدة لتقَبّل الفناء. هو القادر على شرح العدم وتخليص المعتاد من أصفاد الالتزام، وما سواه إلى منجم الندم.
>
> التخيّل محاولة دائمة لإنقاذ ما لا يكون من حتميّة المستحيل.

في يوم قد يلحق على اللقاء..

سأعرف منها أنّ إيقرِك[1] سيُحرّضها باستمرار على مشاغبة الناس بودٍّ

---

(1) ـ في بداية الأمر يُوضّح كميل اللاذقي: إيقرِك هو حرف (Y) بالفرنسية، يُنقل نطقه من اللغة الإغريقية. هكذا هم الإغريق كبار في حصد الإمبراطوريات، قيامها ومحوها، وكبار حتى في حرف يتركونه. هذا الحرف (Y) يتّخذ شكل شخص مولع بالترحاب، وهذا حال إيقرِك حين يكاد يطوقك بذراعيه كلّما يتحدث، كما لو أنّه شغوف بجمعِ أكثر الدفء ومساحات الأحضان... **عن هذا تاريخ لا تترك ماتيلد للنسيان طريقاً إليه وتقول أكثر عن إيقرِك وأحضان مطفأة منذ سنوات، عدا لهيبها في الحكايات وما يُسرّب منها سائقه الخاصّ.**

دون أن يعلم أنّني سأقول لها: «سأُحرّض الشعوب على عشقك لتزيد نضارة بلدانها». كأنّها ستضحك لو تُوجّه الحديث لي: «أنتم محتالون». لكنّها لن تتجرأ لموانع تتعلّق بشكل الودّ اللازم للمشاغبة كما سيُوصيها عمّها. أيضاً ضابط اللغة الفرنسية سيفرض واجب التقدير في الحديث مع الغرباء ـ مثلي ـ بصيغة الجمع. سيكون ردّها المحتمل بأنّي مُحتال لن يمتّ للتقدير بصلة. ستكتفي بشفتَيْن من الروز. ستُحوّل حديثها عن رجل ـ سيستحوذ على جُلّ الاهتمام ـ: «عمّي باحث في العمارة ويُؤكّد لي أنّ البيوت تأخذ شكل قلوب ساكنيها».

ماتيلد حصّة الأمل في تمام تحقّقه على أجدر ما يراه القلب. بينما سأجدل عنها صورةً عُليا، ستعود الستينية لمجابهة القلق بتعليق على محادثتنا: «لم تعد تلزمني أحذية عالية فأنا عاشقة ولكنّني أرملة.. لا أحد يستحق». لن تتحدّث بحزن ولا مجال للسكوت في لحظة ستلي مداخلتها الفطنة. ستتبعها ماتيلد: «حتى أنا لا أحرص عليها فلا أحد لي». لن تقول لست مرتبطة، فقط ستكتفي بعبارة واسعة المعنى «لا أحد لي». أنا سأدخل في شائكة من الأسئلة بصمت[1]، وسأُضيف أُمازحهما: «أمّا أنا فلا تليق

---

(1) ـ **مما يلزم قوله من طرف دقيقي الملاحظة:** متى يُداهمه سؤال ـ عنها ـ تمسّك به حتى يعود إلى مسكنه. يقضي أُمسيات كثيرة وتتكثف بإجابات تتوالد كيفما تتّفق ورغبته. فألّا يكون لها أحد، هذا من طبيعة البشر. أيّ شخص مرهون بآخر؟!. هذا لا ينطبق على فكرته (أنا متاح لكلّ فتاة متاحة). إنّ مبدأ الإتاحة هذا يُمكن قبوله في العلاقات العابرة فقط، بينما في وضعه مع ماتيلد يكون طلال باستمرار على نذير لا يرحم، فأن تقول هي كلمات تحتمل تقليص المساحة بينهما، هو يمضي إلى جرف مخاوف لا قرار بعده. يعود إلى الاستديو مساء ويُحصي كلماتها. يُعيد دلالتها بما هو أقرب للقلب ويفعل هذا طيلة عشرين عاماً تذهب ومزيدها قد يذهب. من مزيد السنوات على وجه المرارة ما يعود له في الاستديو، ويبكي.

ـ ونقول هذا أيضاً فيما يُستحدث من الزمن لهذه الأحداث واللازم ولادتها من واجب الإيضاح لمصداقية طلال وجديته في وقوعها، من واجب الانصياع ليقظة الحلم.

بي». ستضحكان وأستغلّ البهجة لأرى فمها يكاد يُفرخ عصفور البهجة.

حسب مؤشر الموقف ستبقى دقيقة على وصول الباص. دقيقة، في جوارها، تاريخ طويل من الربكة. ماتيلد لن تنظر إلى الساعة كما ستفعل الأرملة. الجو سيكون شبه منزوع الشمس، وكأنّه مُضطّر إلى غيم وبرودة ـ ربما ـ كي لا يخذل أُناساً يرصّون أجسادهم بالملابس الثقيلة. أنا لن أُجيد توقع مزاج الطقس كالفرنسيين. نظرة عجلة على الشارع ستشرح لي حالة الجو. رجل «سِسِليا» هناك لن يُثقل جسده بالتدفئة وسيكون مؤشراً خاطئاً لحدسي. في كلّ مرّة سألوذ إلى سقف ما حتّى أعود إلى البيت الصغير جدّاً. بيت لن أتمنّى أن يأخذ شكل قلبي؛ فلا تتحقق مقولة المعماري إيقرِك. ليس السكن الوحيد، فأنتقل في دوائر باريس جهل ما أستطيع. لأنّ الجهل يقودني إلى جهات كثيرة من «مدينة العالم» ـ كما أُسمّي باريس ـ. أُقيم بداية في الدائرة (15)، ثمّ أهرب من «الوجوه الخليجية» إلى بوابة «سان كُلُوْد». هناك أتنقل بين سكنَيْن مختلفَيْن أحدهما يُكبّدني إيجاره احتيال مبتعث من بلادي عليّ. ستذكر ماتيلد هذا في مواضع مختلفة. أظنّها لن تتوقف عن توبيخي حتّى بعد انتقالي إلى الدائرة (16) للسكن في استديو الطبيبة، واليهودية من أصل تونسي. ستُحاصرني بشخصها الحريص والممتثل لضوابط أنسب لعائلة متماسكة، لا لرجل سيعرف منها أنّ استبدال الأمكنة لا يعني أنّ الحياة ستصير شيئاً آخر غير الانتظار. قد تضحك بمزحة مثل ريش معرضة بتنقلاتي: «لا تخف فالشتاء سيقف عند كلّ باب»، ولكن لن تُعلّق على ما قد أسكبه في أذنها: «بينما الدفء خلف الباب سأقيس معياره بأداء صاحبته...».

في جميع مناقشاتنا السريعة بخفّة، إن تحدث، سأعتقد جازماً أنّها لن تكون متشددة أكثر من سياج يحمي قبضة ياسمين. أمام هذه القبضة ستنبسط راحة عشب بطول ممر لن تقطعه ماتيلد بأكثر من ثلاث خطوات

مرحة لقدميها الصغيرتَيْن. سينتهي الممر إلى باب شقتها ذي الرئتَيْن ـ صالة جلوس وغرفة نومها ـ وستتّسع لثكنة من الآمال والكتب. ستقوم هناك خزانات الأشياء الأكثر قُرباً إليها. من صنع يدَيْها، بقماش الجوخ، تُزيّنها رسومات لظباء الشمواه وجبال الألب.. بينما الحجرة سيُلبّس منها حائطان لحاء من خشب القرو. لصق غرفة نومها حَمّام ستنسلّ من بابه نظافة لا يُمكن أن تغفل عن رائحة نبتة الـ«أُلوفيرا» فيها. رائحة تقدر على إضافة فراشات زكيّة ترفّ حول السرير. سأُجيد تخيّلي لسكنها من باب توقّعي وأتمنّاه صائباً. سأنظر إليها بابتسامة سببها مقولة فرنسية «متى تجلس الفتاة على سريرك فهي راغبة بفراشك». لن يتحقق شيء على الأقلّ في هذا الجزء من حال قائم. عن منزلها، على الوصف أن ينحاز إلى شكل الجنّة وما تُدخله من إضافات فتنة لتكون في هيئة سكنها.

أمّا العائلة ستُظلّها أكثر من سماء. ستكون وفْرَتُها في قلب عمّها وستختار بسببه سماء باريس للإقامة. هو لن يُغادر هذه المدينة بعد تقاعدٍ مرضٍ ترفده ثروة عائلته وتصنعها من بناء اليخوت عبر مئة عام تنصرم.

ستكشف لي هذا إن أسألها عن سبب إقامة إيقرِك لما يُقارب العشرين سنة في فندق «لُوُ مُوريس»[1]. الإقامة في الفنادق ستستهويه وهو طالب في جامعة السوربون.

---

(1) ـ في مستهل سيرة الأيام يجب توضيح أنّ هذا الفندق: (Le Meurice) ويُحاذي متحف اللّوُفْر، والواقع على شارع (Rue de Rivoli) قد تتعدد الأحداث فيه، والتردد عليه من موجبات التمسك بنسب فاخر مع الأماكن الراقية. ودون إسهاب حول هذا نعرف هنا أنّ الزمن يتلاشى ولا يُمكن القبض على دليل يضبط تراتبية الأحداث لمجموعة من الصحبة هنا، وللمنطقة المنتصف بين ماتيلد وغيثة وشمّاء. كما يصمت أن يُلفت انتباهاً إلى (صديقة تغيب) وتكون مِعْوَل الرجاء في الانتظار.

إرث الأهل..

طلال.. يعود إلى الاستديو والباب بارد من أيّ سؤال أو حتّى تحيّة لا تُثقل أحداً. جارة عجوز تُزنّر خصرها النحيل بحزام يُلفت إلى حذائها. تُصر على الحديث معه باللغة الفرنسية الطليقة. لا عائلة لها. هو لا يردّ باقتضاب كالبقيّة. هذه المرّة تُخبره أنّ لدَيْها خطّة صغيرة. قريباً تزورها حفيدتها لتقضي معها نهار ذكرى وفاة الزوج. لا بدّ أن تُجهّز قائمة مستلزمات الزيارة. لا يُوقفها اعتذار طلال لعدم إجادته الفرنسية. تُبادره:. Si.. Si

عليه أن ينصاع لإصرارها (بلى.. بلى) مكرّرة.

تعود تتحدّث، للمرّة الثانية في اليوم ذاته، عن تغيير ساعي البريد وأنّ البنك لا يستجيب سريعاً لطلبات مراجعة حساباتها. طلال يعرف أنّها إن تشتري باقيت خبز أو قطعة صابون تقوم بزيارة المصرف المجاور لتتأكّد من سحوباتها الأخيرة. هذه المرأة تنمو أيامها الباقية ببطء. إنّ همومها صغيرة جدّاً على أن تجعل للدينا حدوداً أوسع.

بينما هو يتحسّس المفتاح عدّة مرّات، تشعر الجارة أنّ إعداد قائمة ما في انتظارها وتصمت. لا تُبادر يوماً بالذهاب أولاً. طلال يُفكّر في أفراد عائلة ماتيلد واستقلالها عنهم. يعنينا أنّه ينوي القول لها بقدر يستطيعه: إنّكم تُهزمون بعيداً عن العائلة ولكن يحدث هذا بعد أن حصّنتكم التجربة والقدرة على التجاوز، بينما نحن في شرقنا نُهزم ونحن لا نزال داخل العائلة، ونبقى على الولاء. يُلازمنا تقليد متشدد مهما نفترق في الحياة.

يتدارك أنّ الارتباط ليس الصورة الكاملة للأهل. في فرنسا يلتقي كثير عرب يحدوهم التنوير، ولكنّ بعضهم من أول كأس يكون أُسرَةً يُفرّقها تنازع القيم على يابسة شَمَال البحر. يُفكّر أنّ واحدهم بعد سنوات، (ربما هو) يعود إلى الجنوب البعيد، إلى جنوب هذه القارة والبحر، ليموت على سرير غريب عنه. يموت

داخل حجرة لا رائحة له فيها. يغيب بداء القلب.. وهذا القلب يُربّيه طيلة ثلاثين سنة، أو خمسين سنة، يُربّيه على الشغف والتمسّك بالحياة!.

***

فيما بعد قد تشرح لي ماتيلد علاقتها المباشرة بعمّها..

ستحكي عن قربها منه أكثر من والدَيْن يفترقان مبكراً وستراهما في مكانَيْن مختلفَيْن من العالم. ستلتقي كلّاً منهما على حدة، مرّة في شتاء هِلِسِنكي حيث أمّها الفنلندية الأصل ومحاولات صنع كعكها الخاصّ من طرف جدّتها. في الصيف تزور والدها «النورمندي» جدّاً؛ وهو سيتّخذ من مدينة «لُوُ هافر» الساحلية مقرّاً يدوم بعمر زواج أخير لا تراه هي سيعيش أكثر من سنين صغيرة. لاحقاً ستُعدد لي أسباب أبيها المستمرة للتخلّص من النساء. أول أسبابه أنّهنّ لسنَ كالعشيقات مملوءات باللهفة أكثر من رائحة البيت. ستقول ماتيلد سبباً تحتفظ به لنفسها عن أبيها، وهو أنّه مثل القطار حميم في أول الأمر ويقترب للدفء؛ لأنّه سيأخذك لمكان آخر، ومع مرور الوقت تكتشف أنّ الأمكنة تتشابه عند القطار[1]، وأنّ دفأه لم

(1) ـ جدُّ ماتيلد لوالدها طبيب بارع ومتطوّع، وسنوات كثيرة يقضيها في قطار الشرق يجوب أصقاع الاتحاد السوفيتي ـ سابقاً ـ. في رحلة بعيدة يأخذ والدها البروف ماتِيُو معه في القطار ذاته ويمر بمدن قصيّة وقرى معدمة من شرق وجنوب شرق روسيا. يقطعون جبال الأُورال. من هناك يُدرك والدها صبر القطارات على نأي الوصول. عندها يكون ابن اثنتي عشرة سنة فقط. بعد زمن طويل يعود لإحدى تلك القرى ليختار فتاة روسية تُحافظ على سقف البيت وتقطع معه ما تيسر لها من الحياة في منطقة النورمندي ـ شَمَال غربي فرنسا ـ. لها منه ما يجود من ودّ وله منها طعامه ورعاية طفلة تُنجبها لاحقاً. أمّا علم اللسانيات ـ تخصصه وأستاذه في المدرسة العليا للأساتذة ـ فيبقى في ورق لا يذوي وتنشره دوريات متخصّصة تحرص ماتيلد على متابعة إرسالها له من باريس. **نقول هذا من قبيل التوفيق بين متابعة خطو الأيام معهما ـ إن تتقدّم ـ وبين ما يتوقعه طلال لتمام الصورة.**

يكن إلّا من لوازم التعارف السريع. سوف تختصر: «أبي يضعهنّ مثل نقطة في آخر السطر، وعليه أن يبدأ من جديد أو يموت». ستُضيف متحققة من إضافتها بمدّ يدَيْها بيننا مثل محبّة: «بصدق لا أُريده أن يموت ولا أُحِبّ النقاط حتّى في بحوثي». ستبقى يداها مشرعتَيْن كشخص عمّها المتأهب للعناق دوماً. سنُكمل «كرهنا للنقاط» بضحك سيشرد في أسئلة لن تُعلن أبداً من كلينا ولو لمرّة واحدة، منها: «هل تُفكّر بي الآن؟!»، «هل تشعر بحاجتي للّمس؟!». سأُلاحظ لاحقاً أنّني وحدي مَنْ يطرح الأسئلة في خفيّة، بينما، إن يحدث، هي ستُعلن صراحة: «أنت تُعجبني!».

أيضاً الأبّ..

كريم شمس الدّين (مارك بوثيقة فرنسية، لبناني مسلم) يلتقي طلال في أفكار اليسار المتأخر. هذا قبل أن يتعرّف طلال إلى توفيق سلّومي. هذا التونسي يفتح له نافذة على الانتظار وخيبات الثائر خارج الحدود. في كلّ مرّة يسبق اسمه بكلمة (أستاذ). قد تسأل عنه ماتيلد مُطوَّلاً، ما إن تبرق عين طلال بذكراه.

يعنينا هنا مارك.. يسكن من قبل في بناية وفيما بعد يُقيم فيها طلال أيضاً. يعود والده المغترب، بعد أربعين سنة في مدينة تُولُوز. يقول مارك: أمّي تطلب منّي أن أستأجر بيتاً لأبي.

والده، ولأول مرّة، منذ أربعة عقود، يعود إلى بلده لبنان دون رجعة. طيلة تلك السنوات يزورهم أثناء قضاء زوجته المسيحية نتالي (أم مارك) خلوة الكنيسة، ولا تشعر بالفرق، لأنّها مقيمة في بيروت. عندما يطرق باب البيت في عَوْد أخير تكون في غير خلوتها لتُفاجأ أنّها لا تعرفه. الزوجة لا تعرف الزوج. تسأل مارك أن يتدبّر بيتاً لأبيه لأنّها تجهله. يشكو لطلال هذه الحالة،

وفي الوقت ذاته يُهاتف عامر صُبيح ليُمرر له قطعة من المروانا. يُعالج مرارة الخلاف بين والدَيْه بليل طويل، ولا يتناول

وجبة العشاء مع طلال وبعض رفاقه، بدعوى أنّه لا يأكل اللحوم. من باب الحيطة في قول كلّ الحقائق، مارك يرفض أكل اللحم لأنّه يمتنع عن غير الحلال (غير مذبوح على الطريقة الإسلامية). مهما يُحاولون إقناعه يعرفون أنّ هذا الامتناع من دوافع الانتصار للقضية الكبرى وروح المقاومة في جنوب بلده (لبنان). يُغنّي بهذا بعد أول سيجارة تُعزّز نشوة الروح.

طلال يُفكّر أنّ آباءهم في أرضهم يموتون وهم لا يعرفون تغرّباً كهذا، ولكنّهم يشْكُون، ربما من فرط القُرب، قسوتهم في العائلة. يكسبون متانة القربى بسلطة خانقة!.

ويتحفّظ أن يبدأ مع ماتيلد حديثاً عن رجل من غصّة. هي تسأله عنه. عن توفيق سلّومي. يتعرّف عليه طلال في يوم يستعدّ له بكلّ قلبه. الرجل، عند المصافحة، يكشف عن أنصع ما في القلب. يتحدّث كأنّه مُدان بآلام البشر. موبوء بالهمّ العربي من الوريد إلى كلّ عناوين هزائمهم. من الثورة العربية ١٩١٦م إلى الشقاق المستمر. هكذا يُعبّر من فمه. طلال يكتب له بعد اللقاء رسالة لا ينتظر لها ردّاً: أتمنّى مُطوّلاً لو أنّ الزمن يعود وألتقي (غِرَامشي).. أخيراً يحدث.

أمّا عن الأبّ، فطلال يعرف أنّه مقبل على أيام ليست له إثر رحيل والده. يفجع بهذه الحقيقة من صديقة تغيب ويُجعد الفقدُ قلبها على أمّ، ثمّ أبّ لا تتوقف مع السماء فزعاً [**والدي لم يمت، أنا أجزم يا الله!**]. بعد لقائه بمثقف يُرابط في الهمّ العربي، يتأكّد أنّ الآباء العرب يموتون أيضاً في الكلمات والأشياء، وليس في التغرّب وحده. يموتون من حاجة ملابسهم إلى تشبث أطفالهم بها. أطفال يُصَادَرُون منهم!.

***

لن تتجاهل جدّتها «الرومنية» إذ تدّعي أنّ الخُرافة تدلّ على امتداد تاريخ أهلها، غجر الرومن. إنّها ستتفاخر بمرابطتها على هذا الإيمان

بقومها وعلى تزيينهم بخرافات متماسكة وحيّة الدهشة. ولنهرب عكس العشب الفارّ من الصدر؛ ستُشير ماتيلد إلى تعريض تلك الجدّة بكذبة المقاومة في فرنسا لولا ردّ أميركا للجميل. هذا لتُقلل من فرنسية حفيدتها ـ ماتيلد ـ إن تتطاول بجذرها الذهبي مقارنة بأصول الغجر.

هنا سيعنّ لي العزيز مرشد السُمير وهو يشتعل بالنخوة لمنح سيدة جزائرية تأشيرة لزيارة مكة، فقط لأنّ اسمها «بنت أخوالها». هذا الاسم يُطلق عنده عنان الاعتزاز بأصل الدماء وانتمائها للجذر واتكائها على حائط لا يُبليه الزمن. على هذا الاعتداد بالأخوال لن تُوقفه اشتراطات الإدارة عن منح التأشيرة لامرأة لا مرافق لها من عصبتها الذكور البتّة.

عن أميركا وردّ الجميل، بخفّة المتقد سأُغمض لها عيناً واحدة متى أُعلّق: «... موقف لويس السادس عشر مع استقلال أميركا، حُبّاً فيها أم كُرهاً في الإنجليز». سنضحك والسيدة ستفرك بطاقة المواصلات. ستُشاركنا التندّر بأفكار الجدّة وستقول: «الانزال النورمندي بمثابة آخر يد من السماء لهذه البلاد». هي لن تجد دافعاً لشرح تهكّم الجدّة. بجاحة عيني تشرح أنّ الفضل لأميركا وهي لن ترَ فضلاً لأحد سوى عمّها إيقرِك. سأعرف في مستقبل الطريق السريع، داخل الباص وفي المترو، أنّ هذا العمّ لن يُؤمن بالحقيقة بقدر ما يتتبع أشباهها وأنصافها. هذا ما سيرتكز عليه كلامها إن تقول: «السياسة تواطؤ مع الخدع». لن أترك فكرتها دون هذا التعليق: «كأنّما تغيير القناعات هو جوهر اللعبة». وذهانتها الحاضرة ستُخلّصني من كُلفة أن أزيد: «أقصد باللعبة هنا.. السياسة».

سيصل الباص وسيُخفّف من رعشة يد الستينية. هي ستسبقنا في الصعود ساحبة بطاقتها على آلة الحافلة في ثقة المتريث وستتّخذ مقعدها. ماتيلد ستقع في مأزق النسيان حين تشي عيناها بحرج يتدفّق من خديها. ستنسى محفظتها بما فيها من تذاكر المواصلات ومصروفها

اليومي؛ وهنا ستتّسع فرصة الرجل. سأمدّ لها ورقة خمسين يورو تقضي بها التزاماتها. لن يكفي الوقت لتعتذر أو لتعود إلى البيت. ستُواعدني أمام محلّ اللحوم، سنُحدد اللقاء في يوم قادم، ربما الأحد، وليته لا يأتي. لن نتحدّث عن صقليّة أو عن «جزاء سِنِمّار» ويلقاه «لويس السادس عشر»[1] حين أدّى جميلاً لأميركا وتردّه عرفاناً إلى فرنسا بعد قرن ونصف على إعدامه. في هذه المواعدة لن نتحدّث عن النوم المقدّس صبيحة يوم الأحد، كما نتّفق. ستُعيد لي المبلغ فقط.

ماتيلد، لو تتحدّث عن دراستها، ستقول: «إيقرِك باستمرار ينصحني أن أتجنّب ادّعاء المعرفة، وكيف؟!». سيُوضّح لها: «ماذا يعني أن تُنجز بحثاً، وقبل نقطة التوقف تُسجّل المزلق القاتل عندما تكتب (Donc)، إذن أو خِتاماً؛ كأنّها الحسم، أو خلاصة العالم قبل القيامة بومضة فكرة؟!». ستُكمل حديث عمّها بحذر الأمين: «إنّ هذا يفضح ضآلتك أمام جوهر المعرفة. لا يُمكن أن تحدّ من العلم بكلمة (إذن) وكأنّك تضع يدك على دُوَار الكون ثمّ تُعلن سرّه في نهاية بحثك!». وبصدق إجلالها لاتّساع العلم لأيّ احتمال ستُورد مقولة: «ليست هناك كلمة أخيرة، لأنّه طالما الحياة مستمرة، فكلّ شيء يُمكن أن يبدأ من جديد»، هذا عن مواطنها الروائي «فيليب فورست» ليُوافق ما تُوضّحه عن استجابة العلم للتحوّلات. سأكون أكثر اعتداداً بالمفكّر محمد أركون وهو يُكمل رحلة الحياة في مشروع «نقد العقل الإسلامي». قد أشرح عنه لماتيلد، لكنّ

---

(1) ـ **دون أسف ملحوظ يقول كميل**: هذا الملك حصيف، وإن يبغض التاج الملكي في لندن، لكنّه يقف مع استقلال أميركا وكأنّه يعلم مستقبلها، فيُرسل أهمّ ضبّاطه وهو (لافييت)؛ ليقود قوّة كبيرة ضدّ مطامع الإنجليز في أميركا.

ـ **كميل يُكرر ما قد يُلمّح إليه طلال في يوم سابق**: أميركا لن تهتمّ لاحقاً بإعدام هذا الملك إثر الثورة الفرنسية؛ لكنّها، بعد مئة وخمسين عام تقريباً على إعدامه، تُلقي عليه التحيّة بطرد الألمان من فرنسا؛ إثر (الانزال النورمندي) في حزيران 1944م.

إيقرِك سيُعفيني من هذا الدور، كما أتوقع. أركون يرى أنّ العقل المرتبط بالدّين لن يتخلّص من معتقدات ثابتة. وهناك يُسور العقلَ جمودٌ دائم. يدعو المفكّر إلى تحليل تلك المعتقدات. «الحقيقة أنّه لا يعني العقل الإسلامي فقط؛ بل أيّ عقل ينقاد بالمطلق إلى معتقد ما». استنتاج كهذا سيقْسِمُ تُهمَةَ الانغلاق بيننا وبين الغرب. أستعرض بهذا من فرط استعدادي للردّ على كلّ سؤال يتصيّد من جذري الثقافي.

أكاد أُطلع ماتيلد على أنّني أنحدر من ثقافة الإجابة الواحدة. في الحقيقة لن أُخبرها، هي ستعرف.

> عن ثقافة الإجابة الواحدة، يأتي أنّ خطّاب العلي أو السيد خطّاب، كما يُسمّونه، وهو رئيس المكتب الثقافي، يأخذ المترجم جاسر بِن يزن وطلال هاشم في رحلة بالسيارة إلى معرض فرانكفورت للكتاب. قد يتحدّث طلال إلى ماتيلد عن (الرحلة المغمورة بالفجائع المحببة). كلمة (الفجائع) لا مكان لها في السياق البتّة، كما قد ترى ماتيلد. عليها أن تعتاد لغة طلال حين لا يتوانى عن الزجّ بمفردات لها دلالات صادمة أول الأمر. إذن في مستقبل الوقت عليها أن تتفهم حاجته إلى خلق لغة خاصّة به. هكذا عليها أن تُقَدِّر، وأن تستسيغ طرقه المبتسرة للإيضاح وحاجته لاحتضان جراحه أكثر من النكاية بأسبابها. عليها أن تجتهد لتلمس اختلافه، ما يتيسر لها، وهذا يعود في المقام الأول إلى قرار القلب، لا إلى اكتشافات تتجاوز شخصه. إنّها تفرض على نفسها ضابط الفضول المعرفي؛ بينما عند طلال يكون القلب وحده معيار التطلّع، وما عداه لها كلّ رحابة للبحث.
>
> طلال يُفكّر على نحو يرغبه؛ ليُعمّر الوقت قيد أيام يرجوها تكبر بينهما.
>
> حول الرحلة يقول لها: المعرض شاسع لدرجة الهروب من مشاركة العرب بصفتهم ضيف الشرف...

وفي النقاط الثلاث، بنهاية حديثه، ما لا يكشفه لكنّها قد تعيه، وتعيه جيّداً، ولا يصلها من وسائل الإعلام عن حال تلك المشاركة. لاحقاً عليه أن ينقل لها أنّ ضيف الشرف (العرب تحت مظلّة جامعة دولهم) يُقدّمون نماذج من ثقافتهم. يعرضون صورة فاخرة لحضارتهم ويحملون قناني من مياه (زمزم)؛ مستهلّين كلمتهم بآية من القرآن (ذلك الكتاب لا ريب فيه).

هنا ماتيلد، عليها أن تعقد الحاجبين متعجّبة: ثقافة الألمان كلّها قائمة على الشكّ!.

لا تُثير السؤال: كيف لهم أن يقتنعوا بهكذا استهلال على أرض التنوير وأمام أهله؟!.

بنيان جبّار من التجربة الفكرية يقوم على الفضول والشكّ المطلق، كيف يفهم رُوّاده وأهله استهلالاً يُنفي الشكّ؟!.

طلال يتخفف من مآل تلك المواجهة أنّه عَارٍ أمام فتاة مناهضة لانكّساره أصلاً. هذا ما يدفعه إلى تذكّر السيد خطّاب (التزاماً بتسميته)، وهو يقود السيارة على أحد جسور فرانكفورت، عابرين نهر الرّين ويستحضر مع بِن يزن، ويجلس إلى جواره، صورة الحرب العالمية الثانية، متعجّباً: يا لهذا النهر، كم ذاكرته زاخرة بالجثث!.

طلال لحظتها، في المقعد الخلفي، يأنس برسالة من صديق، وحال يسمع كلمة (جثث) يُسارع في غفلة ساذجة بسؤال السيد وجاره: أين هي؟!...

هناك يمتدّ منهما الضحك عليه، وحتّى ماتيلد لا تُعفيه من السخرية ما إن يستعيد الرحلة إلى معرض الكتاب ويُعدد جمل تحدّيات الثقافة العربية ومعركتها في فرانكفورت بسلاح الأجوبة القاطعة.

***

سأكتشف لاحقاً أنّ السيدة الستينية ستظلّ على ابتسامة وهي في مقعدها

المريح داخل الباص. ماتيلد بعد شراء التذكرة ستتجنّب الحرج الفاضل في أناملها. ستقبض بقيّة الخمسين يورو من السائق وستتردد في وضعها داخل حقيبة تبدو مملوءة بالكتب أكثر منها بأشياء صغيرة ورفيقة لأيّ فتاة.

لن أنظر إلى عينَيْها الواثبتَيْن بشكر مكرر. كم أنا في ظمأ على نهر هذا الامتنان الأزرق. له لمعة الرغبة والمقيّدة بضابط التصبّر. سأحتاط من التماس، فالباص يكتظّ بالركاب في المؤخرة وحركة الناس تزيد صباحاً. السيدة الستينية ستختار المقعد الأمامي، وكأنّه خُصص لها تماماً.

علينا مواصلة الذهاب حتّى نُقارب ساحة «إنڤاليد»، ويُقابلها متحف الجيش ومن خلفه تتعالى قُبّة مذهَّبة تُتوّج قبر «نابليون» دون أن تقول كلمة واحدة عن الدوق الأخير ومعركة «واترلو». هندسة حذقة تفرض على أيّ زائر للمرقد الباذخ واجب الانحناء تقديراً للإمبراطور الأوحد. لن يندم كثيراً على أمجاده بخسارة المعركة الأخيرة؛ فهو سيعتدّ فيما تبقى من أيام نفيه بولادة «القانون المدني» في عهده. هذا المنجز سيكون وفير السمعة حتّى اليوم، بحسب ما سيقوله إيقرِك، في المقبل من الأيام؛ متجنّباً وعد «نابليون» بدعم «وطن قومي لليهود في فلسطين». يُعارض هذا كثير من المؤرخين محتجّين بأنّه لا تُوجد أيّ مادة علميّة لاعتبارها وثيقة على هذا الموقف. الجادّ فيما يُنقل أنّه يُحسن أوضاع اليهود في إيطاليا، لكنّه يمنعهم من دخول مقاطعات فرنسا. هذا وكثير، العم كميل[1]، سيثُيره من الفصل الساطع لسياسة الإمبراطور الفرنسي، كما يأتي. سيطرح شائكات التاريخ بكلام لا يرى وجهةَ نظر تُخالفه، ولا يَقبل باعتراض يقطعه. ومما يستحيل أن يحدث في عيشه نسيان صديقه القديم «مُنا»، وأكتب اسمه هكذا كما

(1) ـ كميل حاضر لأيّ معلومة مخالفة، ويقول: في تلك الحقبة من فتوة الثورة الفرنسية يوجد منشور، كما لو أنّه صحيفة شبه حكومية، وينشر بياناً أنّ نابليون يعد اليهود بوطن في فلسطين، بينما آخرون يُدافعون بأنّه محبٌّ للغة العربية ولحضارة أهلها.

يطلب منّي العم كميل. سيكون في مقام قول الحق، لذا الوفاء سيد اللحظة عند تذكّر دفاع «مُنا» عن الإنسانية جميعها؛ لا عن شعب واحد.

أثناء تناسل هذه المراجعات كشوارع ومعالم باريس، سأستقلّ مع ماتيلد وصمتها المترو في اتجاهات مختلفة أهمّها قطع طريق «سان جيرمان» الممتدّ من «مجلس الأعيان» وحتّى «معهد العالم العربي». ماتيلد ستزور هذا المعهد بعد أيام إن ترغب اقتناء إصداراته الموسيقية وخاصّة «نحيب الصحراء»، أغاني من أفريقيا.

إن أتمكّن، لو يصحّ الوقت معها، سأختلق تحت علمها الحميم ارتباطاً بموعد يتحدد مكانه قُرب نُزل ستتناول القهوة فيه. موعد سأبتكره وسأتحلل منه حال تدعوني للتعرف على عمّها في فندق «أُدِيُون». الاسم ذاته تحمله محطّة المترو وسنخرج منها. لن أُخبرها مباشرة بطالبة من بلادي وهي تفزع من قبلة يُفاجئها بها عشيق طويل من بين جموع تخرج من المحطّة ذاتها. تنتظره على الجهة الأُخرى من طريق «سان جيرمان»، وأنا خلف زجاج مقهى «ملتقى أُدِيُون» كعادتي على يقظة الترقّب. أُلاحظ خوفها من أنّ متطفلاً يُشاهد التهام كرمتها حتّى يطويها العاشق تحت جناحه، ثمّ يدخلان في الليل بعيداً عن نظري. أُريد أن أُكمل المشهد تقديراً لعبارة صديقة تغيب[1] | **بعض الأُمور لا تليق بها العتمة** |. باريس لا تُخفي العُشّاق، وقد تُحقق لي قبلة في أوضح الأيام وعلى عين الناس. في جميع الأحوال لن يُغيّر الشاب الفارع من قوام العاشقة شيئاً. فتاة مسلمة من بلاد عربية وشاب

---

(1) ـ **من قبيل مشاغابات بِن يزن لطلال**: أن يُكثر سؤاله عن هذه الصديقة الحاضرة في كثير مكاتبات خفيّة الوجهة والعنوان، ولا يذكر لها اسماً سوى (صديقة تغيب). يُثير قلقه على المسافة المحذورة بين الأصدقاء الخاصّين جدّاً، مثلاً، وبين ماتيلد. الصديقة تُبرر كلّ الحكايات بعبارة | **عن عالمٍ موازٍ لم يُولد بعد** |.

ـ بِن يزن يطلبه بمراوغات من يُجيد الأفخاخ أن يُحدّد المنطقة الفاصلة بين الكاتب والحياة.. هذه الأخيرة يسمعها من كميل، وبِن يزن لا يرحم طلال من ممارسة توابعها.

يهودي من البرتغال، وعبر التاريخ أجدادهما «الموريسكيون» يُطردون من شبه جزيرة «أيبيريا». الآن بوسعهما، الشاب والفتاة، أن ينالا من تعايشٍ بين أسلافهما القدامى. هذا التعايش يُحكى عنه في المخطوطات فقط. في جانب آخر، من باريس، العم كميل، المسلم، يطلب من صديقه اللبناني، المسيحي، أن يحمل له «قنينة عَرَق» من بيروت، بينما هذا الصديق سيسأل العم كميل، حال يُسافر إلى دمشق، أن يجلب له كتاب «السيرة النبويّة».. هكذا يتمازحان بصور تعايشهما الطويل.

سأسير إلى جوار ماتيلد غير مرتبط بأيّ شيء عدا الشغف. عشب يفرّ من الصدر ـ سأعتقد ـ لن يطول عليه الوقت وينضج. وربما لن نلتقي مثل الغجر بعدها. في لمحة خاطفة سأقصّ على نفسي حكاية المذيع العربي المخضرم وهو يصل باريس في نهاية الستينيات. يقول لي: «أُواعد الفتاة ولا تأتي. لا أغضب. من يوم غد أُواعد أُخرى مجدداً، ثمّ لا تأتي. أعتقد جازماً أنّني لن أتوقف ذات يوم؛ بل أستمر مثل عمر يخدعني ويهرب...». هذا المخضرم مثل جرح مكثّف، أو بلاد وحيدة، أقرأ في إصراره العميق أنّ الحياة هي الترك، الحياة إدراك متأخر. الإدراك يصل متأخراً.. هنا سأضحك، وسأُفكّر أنّني في مقبل الوقت قد أحكي لها عن غازي السالم فبعظيم عطائه ـ قد أقولها ساخراً ـ يدعوني إلى منزله ليُعرّفني على فتاة لبنانية؛ وعلّه يُقلل من يُتمي؛ التزاماً بادّعائه الهشّ، وأنّه حريص على اقترابها منّي. عندما أصل أجدهما معاً على الكنبة ذاتها وتتمسح به كقطة. أسأله لاحقاً: «كيف تُريد منّي التعرّف عليها وهي...؟!». يردّ: «عليك ألّا تصل متأخراً!».. إذا ما تسمع ماتيلد هذه الحكاية لن أُفلت من شماتتها بي مرتَيْن، أولها وصولي المتأخر، وثانيها أنّ مستوى حاجتي متدنٍ جدّاً لدرجة أن أنتظر هبة من ولد السالم ـ اختصاراً لاسمه ـ!. ستعود لإصرار المذيع. ستُوضّح تصالحها مع الحياة بفعل شروحات عمّها: «الأفضلية ليس لخيارات الحياة؛ بل لمقترحات الاختلاف».

حكاية المذيع، قد تسمعها ماتيلد في مناسبتَيْن أخريَيْن، مرّة على طاولة إيقرك وهو يُسهب في وصف شرابِ شمبانيا. قنينة هي الأغلى في العالم وتُفتح، قبل سنوات كثيرة، في قلب سفارة إحدى دول الخليج. يكون هو في مطلع سنوات التحدّيات وتدفّق الاكتشافات. في السبعينيات للدول العربية ثقل القادم الجديد إلى عالم متحضّر.

يُؤكّد إيقرِك أنّ الأيام الوطنيّة لدول الخليج، في تلك الفترة، تشهد ليالٍ تطول بعدد فتيات يأملن صحبته في تلبية دعوات ذهبية.

ومرّة، ربما تتجدد سيرة المذيع، بينهما، وهما في الدائرة الخامسة، يُفتّشان عن مطعم دودان بوفان، ويتّخذ شهرته إثر تردد أهمّ زبائنه عليه في الثمانينيات، الرئيس فرَنسوا مِيترَان. يُذكر عن المطعم أنّ له قائمة لا تُوجد على أرض أُوروبا. في سنواته البعيدة يُقدّم دجاج الأرض مطهواً بشمبانيا خاصّة، لا تَقِلّ عن شمبانيا تستهل اليوم الوطني في سفارة دولة خليجية وينسى اسمها إيقرِك. يتذكّر أنّ الرجل الأول في تلك السفارة يبرز بشخصيّة نافذة، ويتحدّث اللغة الفرنسية كما لو أنّ مُوليير[1] يكتب من لسانه. طلال يتغافل، فلا طائل من تفاخر هنا.

***

(1) ـ عندّ استقصاء مكانة السفير الخليجي ومحاولة معرفة بلده لا بدّ من كشف هذا: قد تعنّ ذكرى ليالٍ بعيدة على إيقرِك ويُقرن لغة السفير الخليجي بلغة الشاعر والمؤلّف Molière(1622 ـ 1673م)، فهذا الأديب له الفضل في إدخال اللغة الفرنسية إلى منطقة رفيعة ومرموقة في الآداب بموهبة فذّة تبتكر التراكيب وتُجيد الدقّة في الألفاظ ويُعدّ من أهمّ من كتب باللغة الفرنسية في تاريخها وأسس لمسرح خالد منذ القرن السابع عشر.
ـ **ويزيد كميل**: جاك شيراك، ومثله قِلّة، يتحدث هذه اللغة بإتقان من مخارج الحروف وحتّى الصدح بالعبارات العُليا والقديرة جدّاً عندّ نصرة الحق. المقام لا يستدعي تَذكَر أمره للتلفزيون الفرنسي أن ينشر صورة الطفل (محمد الدرّة) إلى كلّ أنحاء العالم.

إن يتيسّر الطريق معها وفق مسوّغات الأمل، وحسب المضطّر إلى التمنّي، إن يحدث، فقبل أن تُقرر النزول في محطّة «أُودِيُون» ستُغير رأيها. ستستدرك حاجتها لإكمال مسافة صغيرة حتّى المحطّة التالية ـ مترو كلوني السوربون ـ لحظة ستحكي عن فسيفساء تُرصّع سقف هذه المحطّة سنخرج بمحاذاة طريق «سان ميشيل» ونسير. قبل أن يتبدّى يميناً سور حديقة «لُوكسُمبُورغ» سندخل متجر مظلّات. ستُسلمها بائعة المحل مظلّة[1] بمقبض من خشب «بِتُولا» وله حلقة من فضّة يُنقش عليها اسم إيقرِك. إن نعود أدراجنا، ستختار ممراً يُجانب طريقنا الأساس، ومن هناك ستظهر على اليمين كلية الطب. في إثر شوارع صغيرة لقدميها حصافة اختراق مسالكها حتّى نكون أمام «مترو أُودِيُون». ستكون على موعدها، ثمّ ستُعَرّفني إلى إيقرِك. كلّ هذا دون أن أذكر شيئاً عن طالبة من بلادي يُقبّلها برتغالي أمام تلك المحطّة.

عن «سقف المعرفة»، وفي مناسبة أتقصّى حدوثها قريباً، ستقول: «يرفض إيقرِك أن ألتحق بمدرسة للفنون وصناعات النسيج. أُحِبّ هذا من جدّتي الغجريّة». «ولكن لن يكون هذا على حساب المسافة بيننا، من باريس حتّى مدينة (رُوبيه) مقرّ تلك المدرسة». هكذا قد تقرأ، ذات يوم، ما سأُفكّر فيه. وقبل أن أُعلّق، ستُكمل: «عمّي يرى أنّه يتدخل في الأقدار بكفاية يُمكن للربّ أنّ يُبررها له...». لن تنسى أنّ النسيج حرفة يدويّة في المقام الأول. لها أفكار توّاقة ستتعارض مع صناعة لا أُفق بعدها. بالتأكيد إيقرِك سيتفهم قبل أن تُفاتحه بموافقتها على الدراسة في «معهد العلوم السياسية» كما سيُشير عليها، بينما سيدّخر لها أفكاراً شهية عن العاشق.

---

(1) ـ بِن يزن يُحذّر طلال من أن يعتمد الترجمة الفورية لأيّ كلمة أو عبارة تُواجهه، وهنا ينصحه ألّا يتساءل: ما شأن كلمة (pluie) وتعني مطر في كلمة (Parapluie) وتعني مظلّة أو شمسية؟!.

عن هذا الجانب، لا غير، سأوافقها فيما لو أُهذّب لها هندام الروح بكلمات قادمة وشأنها إصلاح ما يُمكن من معشر ـ أتمنّاه ـ سيطول لنا.

بفضل الشغف وحده، بعامل اللّوعة الجامحة، سريعاً ستنمو أيام يملؤها ما هو أكبر من الوقت ـ في الحقيقة أقلّ من أمل ـ. ستزدهر تفاصيل قابلة للتوزيع مستقبلاً بالتساوي على الأحداث. سأقصد تقسيمها في ليالٍ سأكون بحاجة إليها أكثر من أيّ وقت ينقضي أو يحلّ.

من الأيام ما قد يحصل هنا؛ تحديداً في القصر الكبير، تُقدّم العروض العظيمة لكبار فناني العالم. هناك سيُدشَّن كتاب إيفرِك الجديد في فنون «العمارة الإسلامية» برعاية «جمعية المتاحف الوطنيّة الفرنسية». لن يكون وقوفها أقرب لاستاند المتحدّث منه إليّ. حقيبتها الصغيرة، كبنفسج تكاد تُشعرني بأنّني أستحق هذه الدعوة من جهة القلب لا من منفذ المجاملة. ليت يدها تتلمس انضباط الكرافتة في عنقي. لمحة الإطمئنان للبس تحدث بين أيّ ثنائي، في خاطف الوقت، بعيداً عن أعين الحضور. أن تتفقد ثبات التوازن بين بذلتي الزرقاء وقميص الزهر سيعني صوابها في اختيار ما ألبسه لحفلٍ مسائي. سيأسرها تنافس لونَيّ ربطة العنق، من «كَرُوهَات» عادلة بين الكحلي والوردي. في وقت سابق يلزمني أن أُعاتبها على التقصير في وصف عمّها الفاتن جدّاً. مع أنّه ـ تقريباً ـ يقرض أوائل السبعينيات من العمر البهيّ. يومها قد أُعاتبها بوقع الدهشة فقط. سيقول في كلمته إنّه لم يُقدّم شيئاً لإبداعات المعمار الإسلامي. ستنظر نحوي ماتيلد فيما يُشبه الوشاية بروح التواضع عند المؤلّف. ستهمس لي لاحقاً: «هل تُصدّقني؟»، رغم أنّي لن أُخبرها باندهاشي من مَلَكَة عمّها الفكرية، بل افتناني بشخصه وأناقته الأخّاذة؛ لكنّها قد تسأل: «هل تُصدّقني الآن؟».

***

لعلّه في يوم آخر.. وبفاتحة ستكاد تكون قاطعة، سيبدأ إيقرِك: «لا تُوجد أيّ مشتركات تنتج حالة طبيعية من التعايش، بل تُوجد حاجات تتقارب وتتبدّل». سيُؤكّد أنّنا لن ندخل مختبراً بحثياً. هذا إن نجلس في انتظار ماتيلد، أمام «مترو مابِيُون» وهو اسم مقهى سيتناول فيه، صباح الأحد، «كريب نُوُتِيلا». طالما أنّه متعمّق في معالم من الإرث الإسلامي، فسيكون مستشرقاً بارزاً. لا شك أنّه سيُجيد اللغة العربية؛ لذا سأتوقع أن تتيسر بيننا قناة اتصال. على هذا سأُعوّل في أحاديثنا عدا ما سيصون كثرة أشياء ستتنامى مع ماتيلد. بدوره سيُظهر عدم اكتراث إلى تفحّص الغد بيني وبينها. لن أُربّي أُمنية في هذا الاتجاه تحديداً. ستتوقف أحاديثي معه قبل ماتيلد بقليل. إنّها أنصع من عوارض الحديث، وهي أيسر من أن يُمهِّد لي إيقرِك الطريق إلى قلبها.

سيضطّر إلى رفع الجزء الأيسر من لباسه، متى يشعر بوطأة مدفأة، تعلو رأسينا. ستظهر ماركة الجاكيت «زيلي»، من اختيار ماتيلد. مع أنّه سيقترب لألوان أيلول إلّا أنّ المنديل من جيبه سيُطلّ فاتحاً كزهر الليمون. القميص، بلون حَلوى البَرْميت، سينفرد بإشراقة الجاكيت الأقرب للكستنائي منه للكاكي. سيضع النّادل طلب «الكريب» على طاولة ستفي مساحتها أيضاً بالـ«بيان بُلُو» مع وجبتي الصغيرة ـ الإفطار ـ المكونة من شراب البرتقال وقطعة «الباقيت» مدهونة بزبدة سأُغطّيها بمربّى الكرز. ستحبّ ماتيلد اختياري وسترفض جلوس عمّها تحت تدفئة ستُلهب يدَيْه ووجهه رافضاً نصيحتي بتغيير المكان. سيأخذنا الحديث عن الكثير وعن قبّعته؛ إذ سيضعها على كرسي مجاور ستسحبه زبونة وستجلس عليه. لن نلحظ استئذانها لأخذه. ستعتذر الفتاة ذات الوجه اللّاتيني عن عدم انتباهها. هو سيَقبل لطفها بمداعبة: «أُحِبّ جلوسك على الكاسكيت الخاصّ بي.. كيف تجدينه؟!». سترتبك الفتاة بابتسامة تسند تماسكها وستهرع بنظرة

إلى ماتيلد لتُنقذها من غزل رجل لأنفه دقّة التزامها بموعد الوصول. بكثير اهتمام ستنظر إلى وجه الفتاة المتورّد. ستضحك وستُصافحها لتعرف أنّها رسولة محبّة تنحدر من «الإنكا» وهي في زيارة إلى باريس مع فريق مختصّ بتسليم بعض آثار البيرو إلى متحف اللوفر. صاحبة الوجه اللّاتيني ستحبّ مداعبة إيقرِك وستُعيد ماتيلد تلك الابتسامة إلى تمسّك عمّها بزمن يرتحل وتأنّق يشي بحدّة الذكريات. هذا يُمكن حدوثه في صباح من صباحات ستُبشر بشتاء جادّ.

في سيرة ماركة Zilli وغيرها..

فيما يتعلّق بالوسامة وتعزيزها بالألبسة المذهلة، عادة يلزم توخى العدالة. تكون الأناقة أقرب للمقارنة لكونها تتحقق بأشياء متاحة للمقتدر، مثل شراء ماركات مُكلفة في الاهتمام بها قبل الثمن، خلاف الوسامة عصيّة التحقق. لو تُقابله قد تُعارض ماتيلد فكرة بِن يزن عن خسارته لزرقة عينَيْه وبهوت

شعره من درجات الأشقر إلى سواد يخصّ رأس رجل من ساحل القرن الأفريقي. هنا لا نقصد صاحبهم الجيبوتي الأصل عامر صُبيح. هذا ما يشتكي به فور حديثه مع أيّ زائر لمقرّ عملهم. يدّعي أنّه منذ سنوات قريبة طويل وله بشرة لا يجدون نظيرها في البُرونز. يصعب عليه وصف وسامته السابقة. وأنّه الآن يفقد نضارة لا تعود. هذا بعد عمله مع طلال، وفق شكواه. ماتيلد لا تجد في كلامه مخرجاً له من هيئة هو عليها ويَقْدُمُ بها من أقصى جنوب جزيرة العرب. بقيّة رفاق طلال، غازي السالم، عامر صُبيح، ومرشد السُمير (أو أبو سُمير توثيقاً للأبوة وامتياز القدوة حسب طلبه)، قد تودّ ماتيلد التعويل على تجربة مباشرة لتعرف عن هؤلاء الرفاق أكثر.

. نعود لسيرة الماركات، تقريباً.. يزور الملك باريس مطلع عام 2007م، ويمنح كلّ موظف بممثليات مملكته هبة مالية. لاحقاً

ليس بمقدور أيّ موظف أن يتحدّث عن مقدار الهبة مع أبي سُمير في ميدان Passy (باسي). يحتدّ من هذه المواقف الرخيصة، كما يصفها. يقترح طلال على بِن يزن اقتحام متجر كَنَالِي[1]، لتخذلهم كافّة القطع المعروضة. مرّة البذلة تكون تامّة الامتشاق لدرجة حرجهما، أو يكون البنطال منضبط الوسع دون مجاملة لخصرَيْهما. يُعلّق بِن يزن بما يُؤكّد انسحاب حظوظهما في الأناقة: أستاذ طلال.. إنّ الماركات الشهيرة لا تخيط مقاس الفقراء أمثالنا حتّى وإن نستطيع كلفتها.

الاستطاعة هنا طارئة. الطارئ لا يُبرر انتماءهم للطابور الذهبي. إذن لا نسب لهم في تلك الماركات، ويتمدد أساهم على فرص التأنّق. قد تتذكّر ماتيلد هذا إذا ما تلتقي بولد السالم ولحذائه قطعة معدنية تعلو المشط، ويشترطها برّاقة لتُميّزه كما يعتقد، وياقة قميصه، لها صرعة (الهِيبْ هوبْ)، تطول حتّى تُوشك على دسّ ذقنه. القميص مشجّر بألوان صاخبة وتعلوه ربطة عنق خضراء على بذلة بنيّة فاقعة. (يا إلهي.. إنّه كرنفال شعبي يتحرك بقدمين!). ماتيلد قد تتعجّب مع طلال، ويضحكان...

***

هنا حادثة القلب الأكثر صخباً من تجارب ـ ربما لاحقاً ـ لن أحفل بها..

---

(1) ـ (CANALI) متى يستطيع طلال الحصول على قطعة من هذه الماركة، فيعني الكثير. ليس فقط انتماءه لنادي المرموقين، ولكن ليكيد لأبي سُمير خاصّة، فهي ماركة لا تنتج إلّا للرجال دون النساء. يزيد على سمعه: إنّها للرجال الشجعان فقط. يستنقص من ميوله لماركات هو يعرفها. هذا قبل أن يبتاع طلال نظارة من (بول سميث) وتنقلب عليه الآية، فهذه الماركة تحمل ألوان الطيف وهي ألوان يتّخذها المثليون شعاراً لهم ويُشاهد جمعهم ذات يوم أثناء مظاهرة لهم في باريس. ما إن يستخدم هذه النظارة حتى يُشير عليه ولد السالم أن يحمل عَلَماً بألوان الطيف ويُطالب بحقوق (المثليين).

تحديداً عن شتلة من ساحل «الريفيرا». إنّها مدينة تكثر في عيني لأنّ هناك فتاة تحرث داخلي حقلاً وأُخفيه مُطوَّلاً. هذه حقيقة، قدر اجتهادي أتمنّاها أن تغور عميقاً. ما إن يهمّ أحدهم بسفر إلى جنوب فرنسا، حتّى أُسارع لأمدّ أمامه الخريطة. أشرح له نوع المواصلات في المدينة المحظوظة. برحابة أُدوِّن له عنوان مطعم عند آخر ركن من صفّ الليل وساحل الفضّة. أتشدد في الوصف. أحضّه على اختيار وجبة هناك، وفي معترك الشرح أُشير إلى طاولة محبَّبة. هذا وأنا حينها أبعد مئات الأميال عنها.. أقصد مدينة «مُنتُونْ» على البحر، ومن الدقة زنبقة الأبيض المتوسط. أُسمّي فيها عامل مقهى هناك ومقترحاته عن مشروب حادّ التعلّق. عن الإقامة أُسلّم المسافر قائمة مختصرة جدّاً من الفنادق. لا بأس أن يصل حديثي إلى سياج صغير يفصل فرنسا عن إيطاليا. إنّه سور مزرعة صغيرة هي ذاتها علامة «الريفييرا» الطويل. لن أختصر جادّة المدينة وصفوفها المتشحة بنوارس الساحل ونسيج البحر.. ولبيوتها كرنفال قزحي.

في مفترق الأفكار عنّي، أبدو أول مرّة أنّني بذاكرة محدودة، وأتمكّن من لملمة أطرافها القصيرة. في جانب آخر، أُفكّر أنّ يوماً أحفل فيه بتلك المدينة وحيدة. إنّها «مُنتُونْ» وفيها أتعرّف على ابنة الـ«دُلْمُون» تعمل لصالح «يوم الطالب الخليجي». لي، ولي فقط، عِشْرَة تلك المدينة. فيها أرغب أن تُطوّق أصابعي أنامل الفتاة. قبلها تكون مترجمة معي حتّى تستقرّ اللهفة على كلمات من قبيل التماس. فيما يلي اللّمس تستمع منّي إلى قصص زرقاء وخضراء، وبألوان أُخرى لن تتّسع لها غير مخيّلتها، مثلما يحدث، كما سيحدث مع ماتيلد ربما.. إنّها مدينة كفيلة بصنع ذاكرة لها، وعلى تعريف ضارب في التجربة إنّها: «مدينة الرجل ذي الفتاة الواحدة».

لم يكن اجتهادي يتوقف عند فتاة تنتظر شَالاً يلفّ عنقها، له طعم العائلة وسقف البيت. بداية سأعِدُها بهذا من شدّ ما أعرف عن الشرقيات، لكنّها ستشترط على غير مسمعي؛ أن يكون للشَّال لون الوضوح؛ لا الحياد.. إنّها شمّاء جاسم. لن تطلب منّي أن أُكمل معها المدينة والخريف العاجل، ولا قضاء شتاء تستعصي عليه عادة المدن الساحلية؛ فالبحر أكثر شجاعة، وفي هذا يطول شرحي. أصف من المدنية شُعباً مرجانية تحتفظ بنضارتها، مع أنّ الصقيع يتسلل قريباً إلى أطراف المياه. إنّها تطلب الوضوح!.

حديثي مع شمّاء ليس أكثر من باب موارب. لا أدع للظلام السيادة المطلقة على الغلق. في أول الأمر لا أترك الوضوح مشرعاً على مصراعَيْه. تكون اللعبة سرية. أقود فرص الحظّ أو التحذلق سيان. ولأنّ أيّ فتاة تتجنّب معرفة الشروط؛ وحدها تعي دائرتي البعيدة عن يدها، عن هدفها.

أنا لن أُسهّل لها الدخول أبعد من مصافحة. إنّه منح كبير قد لا أهبه لأحد غيرها. هذا كما أُفصّل في تمكّني من قلبها قبل لقاء ماتيلد. أضعها أمام شخصي، وحالها كَمَنْ هو في شغل لغربلة جميع الاحتمالات؛ إذ تهجس: «هل من المتوقع أن...». لن تجزم أنّني قاطع بها هذه المتاهة إلى بسيطة تعتمر الحقيقة، وفي تلك اللحظة أُبهرها.. إنّها مُنطلق الوقت للحياة المسمّاة باسمي: «لم يكن لي تاريخ، وحدكِ هنا البداية..». عندها يتحقق منالي الأوفر من الشكّ والضبابية. أُسمعها الشاعر الفرنسي «لويس أراقون» يقول لـ«إلزا»: «تبدأ حياتي بحق يوم ألتقيك».

أيّ مدينة أُحِبّها، تكون بقدرها فتاة تستحق تشبثي بمكانها، حتّى تحلّ باريس أكبر من خريطة آمالي. هناك ستصير ماتيلد أكثر من الرجاء القديم، وأكثرهنّ قِلَاعاً متينة أمام عاصف مثلي.

كثير من هذا الحديث لن تسمعه ماتيلد بشكل مباشر، وإنّما ستبتكر الحكاية الكاملة من مداخلاتي، إن تتمّ، فتنزع مسامير الغيرة من صدرها المحموم إلى وضوحي، وما أستطيع منه على تردد. باريس غفيرة إلى درجة أنّني أشكّ في محو «مُنتُونْ»، بينما إذا أنظر إلى ماتيلد فحتماً ستكون فكرة المحو داخلي أقلّ أدوات الهدم لكلّ مدن العالـم.

محو المدن..

لا علاقة له بعوائل الفنارات ومدن البحار الكثيرة. أمّا المدينة الممدودة أذرعها في مياه المتوسط فيُلوّن طلال أحاديثه عنها منذ عام. مرّة بأشرعة من ورق وأقمار لا تطير عن كتفَيْه. ومرّة بشواطئ طوع مزاجه وسفن لا تُغادر من فرط الطمأنينة. لا يُفوّت أن يُعلن عن أرصفة من مرمر، كما يلمسها وحده، وقبالتها بشر لعيونهم شبق البحر على السواء. دون توقف يُثني على ضلاعته بمعرفتهم؛ أنّ لهم وقتاً محدداً من العام يتساقطون فيه على هذه المدينة، ولا يتنبأ أحد بموعد هطولهم سواه. (كلّ هذا) لأنّ شمّاء هناك. يُخفي على الجميع (لأنّ المنامة هناك)، عدا كميل يعرف أن نسب هذا الحنين يعود إلى صديقة تغيب، لا أكثر. هنا على الأقل تظهر بوصلة تُشير نحو تلك الصديقة رغم الغياب، ومنذ بداية ما يخيطه من حكايات.

على بعد (كلّ هذا)، يُقرر أنّ قائمة الأمجاد لا تتوقف على ماض يغرب، بل على اجتهاد دؤوب، ولا يقوم على حقيقته أحد سواه. يعود من مُنتُونْ ويُضيف بطولة واضحة حول عنق تلك القائمة الفقيرة. تُعززه قصص خاصّة تفوق الطبيعة البشرية، لا يُصدّقها الرفاق بطبيعة الحال. يلوذ بابتسامة ساخرة، وهو يبتر أيَّ رأي لهم عن مدينته. ومهما طلال يتجاوز عامر صُبيح (بصفته المتعدد في الأمكنة) نطاق خريطته إلى مدن إيطالية وصربية وألمانية، فهو لا يُقلل من فيض تلك المدينة، من غدق شمّاء. هو على هذا الفيض إلى أن تُشرق ماتيلد وباريس. إنّه

اعتراف يأتي من وسع قلبه المنزوع إلى وجهة أثيرة؛ والماثل مؤخراً لعامل مقدّس يجب اعتناقه.

***

هذا ما سأكيده للورد في يدَيّ ماتيلد إن تتعمّد تحديد الجهات في باريس. لا شكّ أنّها ستقتصر على انتباهٍ لثلاث جهات، عدا جنوباً يُزيّنه «الريفييرا» البعيد.

في وقت سابق، وتحديداً عند ظهر يوم الاحتفاء بكتاب عمّها في القصر الكبير، سأتمنّى لو تضمّني إلى تناول القهوة، أول الأمر، مع إيقرِك الوسيم في فندق «لُوُ مُوريس». بعد هذا اللقاء لن تُصبح مجلات أزياء الرجال أثيرة ومُؤجّجة لمزاحي مع مترجم المكتب بِن يزن، ويترجم بقناعاته. سأتجنّب أن أذكر لها شيئاً عن العارض الأشهر «ديفيد قاندي»، فهو انجليزي صرف. إن يبلغها أنّنا نُتابعه بتخيّل المحاولة ستبعث «حرب المئة عام» بين فرنسا والإنجليز.

سأكتفي لها أنّني أُمازح بِن يزن بأن نتحوّل لعارِضَيْ أزياء وإيطاليَيْن تحديداً إمعاناً في الحلم. نتمسّك بأنّ العاشقات لا يشترطن عيوناً لها ألوان زاهية. عمّها الفاتن والسبعيني ـ تقريباً ـ سيكون محكّ هذه التخيّلات اللّامعة؛ بل فشلها في قلبٍ سيُقلل من الوثب أمام الفاترينات وإشهارات الجذب.

سنجلس حول طاولة مستطيلة ومحاطة بأربع كنبات، من خشب الزّان الروماني وقماش «الابيسون». أولها الرئيسة تتّسع لشخصَيْن، وإيقرِك سيصون فراغها ببذلة حالكة من «جون فارفاتوس». عطره سيبعث زمناً فارهاً. بنطال الحرير يتخفف من لمعانه بخليط الصوف الرمادي. يكسب جاذبيته أكثر بقطيفة لصدرية يكاد لونها المرجاني يُغرّد. الكنبة الثانية إلى

يمينه سأجد صياغة مقبولة لجلوسي عليها. كنبة ثالثة إلى يسار إيقرِك وأمامي ستملؤها ماتيلد بالحياة. تزدهر في بلوزتها رسومات صينية كأنّها تخصّ الشرق الأقصى بكلّ النهار. ستقف خلفها خزانة «صِوَان» من أثر ملكي وستظهر فائقة الانتماء إلى بيت حميم.

أكاد أنسى الكنبة الرابعة، لا بدّ سيلحق بنا مَنْ يشغلها وستتّسع لكثرته المحببة.

بداية سيتحدّث إيقرِك باقتضاب عن وطنيين فرنسيين يُؤثرون عدم المقاومة في الحرب، مقابل ألّا تُمسّ متاحف باريس وآثارها. سينظر إليّ حين يُعزز كلامه: «باريس مثل العار أيّها العربي». ماتيلد ستتمسّك بالحياد عند أيّ اكتشاف جديد عن مرجعيتي. سأُخبرها أنّ لا علاقة للعار حين تعرف أنّ فتاة من بلادي تُقيم مع شاب برتغالي في الحيّ اللّاتيني.

لا بدّ أنّ شروحات واضحة في العار تأتي حال تعرف ماتيلد رفاق طلال في باريس، من بلده وجوارها. تُقرر أنّهم على استعداد لأن يخسروا قامة الشرف في سبيل اتصافهم بكلمة قصيرة جدّاً، غير مُجدية لوقت أطول، كلمة (ودود).

أبو سُمير يستحضر قبيلة في الشمال فتتقد عيونه للقتال، وكي لا ينكسر أمام الأصدقاء يُناديهم (الرجال). يُعزّي النفس بأنّهم يغضّون الطرف؛ فيميل كلّ الميل لأيّ فتاة في المتناول. يختار باستمرار الجلوس في المقاهي المقابلة للميادين المكتظّة، مثل (مكسيكو، الجمهورية، إيَنًا)، أو على امتداد شارع (هنري مارتان)، وتحديداً في مطعم Le Flandrin (لُوُ فلاندرين)، فهناك تزيد الحظوظ بطعم الطبقة المخمليّة. يبدأ بتحفّظ كعادته، يُراهن على غفران الرجال ويذهب بعيداً في معاركه الطفيفة والعارية من أيّ مكاسب. إنّه يدحض شكوك الجميع في تمكّنه من فتاة المقهى والمطعم والمتجر وحتّى مزيّنات الشَّعَر. ما إن

يسمعوا كلمة (شَعَر) حتّى يطردوا نظرهم بعيداً عن رأسه المقشوع. تظهر عليه منابت شَعَر تمتدّ إلى الخلف بداية من أعلى صدغَيْه. لا يهتمّ بكثير نصائحهم أن يتزيّن بتغطية صلعه. ما يهمّه أن يتأبط نيات شفيفة تجاه تلك الفئات فقط والمتوفّرة في مكان واحد. يكتفي بما يتيسر ويقرب من العين واليد. يُؤمن بالحظّ المقيم في الأمكنة، أمّا ما يتطلّب حركة فلا يعنيه. من هنا قد تتسقّط له ماتيلد شبيهاً؛ لتمنحه كنية لا يعرفها في أول الأمر سوى طلال. تُسمّيه Lézard (الوزغ أو أبو بُريص)؛ فهو مثله لا يذهب بعيداً في الليل، ويقتات على اقتناص ما يسنح لنظره وتحت الضوء فقط. صِدقُ الكأس يحق له أن يُمدد الوقت، وهذا نعت يأسره. ماتيلد لا تُخفي ابتسامتها إذا ما تتذكّر فقر إمكانياته، وإصراره على أنّه يملك عبارات تلد من رحم الفرصة القائمة. كلمات تكاد تتطابق، مع أنّه، هل يُكرر ما يقوله أمس؟!. لا، لا يُعيد المفردات نفسها، على المقهى ذاته، وعن الطلب ذاته، وعلى مسمع النّادلة عينها وهي تُؤدي له ابتسامة بواجب اللّباقة أمام الزبائن. هو يرى أنّها تغمرها البهجة خضوعاً لكاريزماه المعززة بأناقة لا تنتمي للموسم أكثر من انتمائها لتخبطاته. يفجر بالرجولة ليُقنع طلال أنّ أيّ فتاة سهلة أمامه. يعيش على ما يثبت ويلقاه باستمرار.

***

بعد حفل التوقيع في القصر الكبير، قد تقترب أكثر لتسألني بعيداً عن محاذير الذوق العام: «كم الساعة الآن؟!». أنا سأتّسع لظلّها النائم عليّ بفعل إضاءة شارع «مُونْتيْـنّ»، حتّى يستبيح جذعي كاملاً، ليس لأنّها ستبلغ طولي، متر وثمانين سنتمتراً، بفعل قبلة، ولكن لأنّ لها اللهفة ذاتها وأعمق. سيخطفني حجر لازَوَرْد في «بُرُوُش» فضّي واثق من لهيب ما. يتمسّك بعالي القلب من سترتها المُخلِص لونها للماروني وتُغطّي بلوزة لها غفوة السُّكّر.

أنا سأُجيبها بارتباك أخّاذ من فتاة تنتصر لأُنوثتها: «لا أحمل ساعة.. لدَيّ التحفّز». عليها التنبّه، ففي سؤالها تجاوز واضح منها لموقف إيقرِك من فتاة تخطو نحو رجل بحجّة معرفة الوقت، سيأتي إيضاح موقفه. سيكون ردّي بمقدار خطوة ستقطع بحراً بأكمله. وهي لا تحيد عن الوصايا المهذّبة؛ ستُعلن مخاض الحياة بيننا، لا صرامة المعرفة. إنّها ستختم جميع المساحات بكلمة الحسم؛ إذ ستردّ بثقة الأمل لا بحدّية الباحث: «إذن...». بعدها، لن ننتهي من محو المسافة حتّى نستقلّ سيارة أُجرة في طريقنا إلى الدائرة (15).. هناك نسكن في بنايتَيْن يفصل بينهما شارع «كُومّيرس»؛ كما سأُدرك، من قبل، ولن أكشف تلك الملاحظة لها.

بعد الاحتفال سنأكل وسنتحدّث عن رامبو وعَدَن والنبيّ سليمان فملكة الكون بلقيس، وستحضر قصّتها. سنحكي عن «مُنتُونْ»[1] وفتاتها، وعن العراق وقصيدة تتعشّق بمنطقة «جازان» سأُترجمها أنا برجاء العين المبلل في الحنين، وتتقبّلها هي بندى الروح. سيحدث العم كميل في آخر كلامنا عن باريس متى نتّفق على فتنة شوارعها ليلاً، والمرصوفة بحجار

(1) ـ **يُسارع بِن يزن للنكاية بطموحات القلب**: في مدينة مُنتُونْ يلتقي شمّاء. أول فتاة تدخل معه في معطف هذه المدينة دون خطط مسبقة. يُعيّنُها نادي الطلبة الخليجين مترجمة مرافقة له أثناء دعوة رئيس بلدية المدينة. تكون له أول الصليل هناك. بهدوئها يُجدول مواقفه المتصالحة، على مائدة المضيف، ويتتبع حذافير كلماتها إلى أن تبلغ به حدّ اليقين بصدقها في الترجمة. هذا وهو يُقلل من إيمان الأُخريات برفقته وبالساحل الأخير منها. يُسخف من تمسّكهنّ بقداسة الارتباط كما يُبدين له. مع أنّه يُعيد أيّ نقمة إلى سذاجتهنّ فقط، لكن لن يشكّ أحد أنّه يقف دوماً إلى أيّ صفّ يُحقق اقترابه من شمّاء.

ـ **تشدداً في الحصار على طلال، يُضيف بِن يزن**: يجد في هذا عرفاناً مفتوحاً لتركة فتاة مختلفة، لها عسل في عينَيْها لا ينضب وسُمرة الحنطة بصفاء يُخَلّد نشيداً روحياً لا يعلوه شيء. لا يُحاول ـ حتى بوجود ماتيلد ـ مجانبة فضلها في تعرّفه على تلك المدينة، وتعرفه على يدَيْها.

دقيقة الثبات وعادلة الاتساق، تماماً مثل كلمات العم كميل صلبة وجادّة لا تتوخى غير تصديقها فقط. ومن المسلمات أن نُؤمن بصداقته للناشط في حبّ البيئة «مُنا» وهو يسعى في شوارع باريس بالزهور تملأ شعر رأسه وذقنه. يا لصراحة شوارع هذه المدينة في حدائقها وأشجارها وعناوين مبانيها وجهاتها. أمّا ذاكرتها فكثيرة ولصيقة.. تأكيد هذا الالتصاق سيظهر في واحد من شوارع باريس متى تأخذني إليه ماتيلد، في يوم قد يُقبل. ستضحك هناك كأنّها شمس تسطع على بيوت الشارع المزهرة ألوانها بهبات «الريفيرا» وتتراص على جانبَيه الحادَّين في إحراجي، كما سيأتي.

أكاد أنسى.. عندما سنخرج من القصر الكبير، لمواجهة ميدان «فرانكلين رُوُزفلت»، ونخطو حتّى نُواجه نصب القائد «شارل ديغول» ـ Charles de Gaulle ـ عليها أن تذكر مخالفة عمّها لكثيرين يرون أنّ هذا الرئيس ينحدر من عائلة عريقة لتوسط اسمه كلمة «De» وتدلّ على «النبالة». سأُعلّق بما يُعزز التقدير: «لكنّ الجميع يرونه أبّ جمهورية فرنسا الرابعة»، لا خلاف.

عن الشارع الفاخر، إن نصله، وقد تروي ماتيلد قصّته.. لا يُزعجه لحظتها أنّ اسمه القديم متعلّق بالأرامل، قبل أن يأخذ اسم كاتب زمن النهضة «ميشيل مُونتيْـنّ». باريس تحتفظ بهذا لوحدها، أمّا عاشقو هذا الشارع فيخلعون عظمته بشهوة الموضة. يتحوّل إلى «الفخم»[1].

على بعد هذا التفصيل في سيرة الشارع الأغلى.. لن أنشغل عن ظلّها.

---

(1) ـ يتدخل بِن يزن ويقول كثيراً: في هذا الشارع (Avenue Montaigne) الدائرة (8)، تتراص أغلى ماركات العالم ويلتقي طلال فيه ذات يوم بصديق يُسمّيه دخيل التركي ـ صاحب برنامج حواري متقدّم في الخليج ـ. فور أول كلمة تذمر من التمثيل الدبلوماسي يدعوه للبرنامج ليتحدّث عن تجربته. طلال يُؤجّل المواجهة فالشجاعة لم تحن بعد في رأيه. يُوافقه صاحبه بتحفّظ تقديراً لفضيلة التروي.

تحت ضوء سليط تنحاز سترتها للأحمر، وبرهافة تُمسّد كلّ حاجة بي متى تتمكّن من لمس بمثابة الحياة حين تكتمل. سيكون لعنقها ازدهار سلاح من فرط شجاعة الطول. ستعقد حوله شَالاً بربطة لن تنتمي لعصر غير زمن الملك «هنري الثالث». سأعتقد هذا، بينما هي لا شكّ ستُدافع عن أناقتها الفرنسية لأتوقف عن اتهامها بتقليد الإنجليز. إن أُدقق في لون الشَّال وله تنقيط نمش يتدرج إلى الإرجواني فلن أعرفه. ستُسمّيه «بُورجُوندي» من شرق فرنسا حيث منافسة «بُورْدُو» في إنتاج النبيذ. هل ستقول: «الإنجليز يدّعون ملكيتهم لجميع عروش الأرض...». أنا سأتأكّد أنّه يسهل عليهم سرقة التيجان من الهند عابرين بقياصرة الخليج وسروح أفريقيا إلى أعمق مياه الأرض، لكنّه سيصعب عليهم تماماً أن يُحاكوا أناقة ماتيلد.

في تلك اللحظات إن تُوجد، لن يغفل عنّا الحذر لأنّ أيدينا ستكاد تتشابك وتُكَوّن حلوى. إنّها العاشرة والنصف ليلاً، وبرائحة «جان بول جولتير» يفيض عطرها ليتنزه الشتاء قبل وقته. نفحة برتقال أفريقي بعنبر شرقي. العاشرة وقليل لا بدّ من البيت، و«عذراء أُورليان»[1]، كما يُناديها إيقرِك تيمناً بالبطلة القومية «جان دارك»؛ ستُزهر بكلمات صغيرة عن

---

(1) ـ يتحدّث عنها بِن يزن: فتاة في السادسة عشر من ربيعها، ترى أنّ رسول السماء يختارها لإنقاذ فرنسا وعرش مَلِكِها من الإنجليز. تخوض معارك وتعلو بانتصارها إلى مصاف الشجعان وتُقرّب من البلاط الملكي، وتقود إلى أُورليان معركة كبيرة وحاسمة ضدّ بريطانيا، لكنّها تُهزم وتُقاد إلى مصير أليم. يُقرر بحقّها عقاب القرون الوسطى (au bûcher) أي (إلى الحرق)، فتُربط إلى شجرة ويُشعل في جسدها أمام الناس، وهي بعمر صغير، ليُسمّونها عذراء أُورليان. بعد زمن كثير يُقيمون لها نصباً تذكارياً كبيراً في قلب عاصمة النورمندي مدينة رُوان.. بعد موتها تُحاكم مجدداً وتنال براءتها فمرتبة القداسة.

ـ ولد السالم يسخر من طلال: ما عرشك لتحافظ عليه العذراء ماتيلد؟!.. يا ملك القلق.

مدينتها «رُوان» ومارتين، زوجة العم كميل كما تحكيها الأيام. تُصر على حديث في «حرب المئة عام» مع الإنجليز، وصعود مزارعين إلى طبقة النبلاء وتوسطهم لمجالس العرش. سنختم المشوار بذكر «مُنا» المفعم بالوطن والدفاع عن الناس والطبيعة. هذا الذكر سيسرّ قلب العم كميل، وأبتهج إن يعلم.

ستفوح من فمها حديقة كأس يتيم تتناوله من شمبانيا «تي تانجيه». خمرتها تتسلّق دائرتنا القليلة. ستفيض لأنّها تشرب بصفو الروح. من المؤكّد أنّ إيقرِك لن يستطيع الحديث، أثناء الحفل، عن «رامس» المدينة الأشهر في الشمبانيا. أشجار الزّان والدلب والسنديان ضائعة الظلال في الليل وستُفتّش في ماتيلد عن الصباح.. ثمّ هي ستتذمر من تأخر الوقت!. ثمّ أنا سأشكر للأشجار الخرساء تواطؤها معي على صمت أتمنّاه يدفع ماتيلد إلى صدري الخالي.

كميل اللاذقي..

من سوريا.. والده لاذقيّ الأصل والمنشأ. مثقف منذ بواكير النهضة في بلده. جدّه أحد قضاة الشام ومن المصطفين بدعوة رئيس فرنسا Gaston Doumergue (جاستون دومرقو) لحضور افتتاح مسجد باريس 1926م. الرئيس في كلمة الافتتاح يستشهد على جلال الإسلام بنطقٍ للنبيّ محمد (المسلم من سَلِمَ الناس من لسانه ويده).

لا يكون الوقت مناسباً أن يتبادل طلال ورفاقه (بعد صلاة وسلام على نبيّهم) حول هذا الاستشهاد بسؤال: لماذا تُوجد في شروح مدارس تعليمنا كلمة (المسلمون) بدلاً من كلمة (الناس)؟!، والسيد خطّاب ببحثه الدائم يُثير هذا السؤال. بينما كميل لا يُفوّت أن يذكر لهذا المسجد موقفه الرحيم، إثر دخول الألمان إلى باريس ١٩٤٠م. يحمي اليهود من الملاحقة. يمنحهم هويّات تشهد بأنّهم مسلمون.

إذن كميل يمتدّ من عائلة عريقة، ومع منتصف الستينيات يُرسل للدراسة في باريس. لمدّة خمس سنوات لا يعرف طريقاً في الحيّ اللّاتيني سوى خطوات تُيسر له صباحاً اتجاهه للدرس في جامعة السوربون، ومساء إلى بناية يسكنها. البناية تستحيل واجهتها، منذ الثمانينيات، إلى ماركات تتعجّل الربح. يشغلها، من قبل، متجر دباغة يُديره يهودي يدفع لكميل مصاريف فترة تتلو حركة (مايو ١٩٦٨م) وبأحداثها تتوقف حوالات الأبّ اللاذقي. في تلك الأثناء لن يجد كثير وحشة في المكان. سيأنس بزحام الشارع ومرابطة صديقه Aguigui Mouna (مُنا) لحشود الطلبة في الحيّ اللاتيني. في هذا يطول شرح أخّاذ لا يفي به غير كميل ويزيد من عطر صديقه كالربيع الكثيف في شعر رأسه وذقنه وجيب بذلته الزهيدة. لا يُمكن أن يغفر لطلال أن يكتب اسمه (منى) بألف مقصورة، ففي صعود حرف الألف، وفق الكتابة العربية، امتداد لذكره، لذا عليه أن ينطقه ويكتبه عالياً هكذا (مُنا).

على اعتزاز خاصّ، طلال يُقدّم كميل لكلّ مَنْ يسأل.. مثلاً لماتيلد وعمّها، إن يكن له شرف التقديم. يحبّ أن يُناديه بـ(العم كميل) فقط، ولا يُضيف أنّه سيد اللّاءات لِمَنْ يُعارض آراءه؛ فهذا سريعاً تكتشفه ماتيلد وعند أقلّ خلاف له مع إيقرِك، كما يتوقع طلال.

كميل، يكون لطلال بمثابة العلامة الوحيدة بين منطقتَيْ المغادرة دون عودة وبين انهزام قدمه بقيد التردد. هو الوحيد القادر على سؤاله عن وجعه الخفي. عن صديقة تغيب يُكرّر حديثه عنها بوضوح مع كميل فقط. ومنها حديث عن عبقرية الموت المسماة (الفقد). وهنا يُكابد رحيل والدَيْن في حزنها، ومن كتابها | **لا يعرف أيحفل بالحياة حين تعلو بامتياز وجودها أم يُبجل موتاً تنتخبه...** |. وكميل يُردد: أيّها الموت، الحياةُ تسألك.. ماذا تُقدّم غير الموت؟!.

بعيداً عن هذا التشظّي، ولا يستنهضه من روحه مُطوَّلاً، يخشى في كميل صورة الدوام، أو التمسّك بمكان واحد. (أخاف من فكرة الاستمرار. البقاء يُشعرني بالتخشّب).

طلال يكتب هذا إلى وجهة ما، قبل إدراكه أنّ كميل لا يُولي اهتماماً لأيّ حسابات للتغيير، أو تصطاد التميّز والاحتفاظ بمكانة جيّدة في المكتب الثقافي (مقرّ عمله). منذ التحاقه بالمكتب في بداية السبعينيات يعمل مترجماً. يعترض على كلّ رأي عدا ما يقوله رئيس العمل. لا يُبدّل في ترجمة أيّ نص أجازه رئيسه، وإن يكن خلاف المعنى. بينما بِن يزن يُترجم بقناعاته على الدوام، كما يُكرر عنه طلال.

أيضاً، خمسة وخمسون عاماً تمحو كلّ شيء عدا مشاهدة فيلم في حقول اللّيلك من رواية (الليلة الناعمة) للكاتب الأميركي ف. فيتزجيرالد. كلّما تذكّر الكاتب يُقرن اسمه بصفة (الجيل الضائع). يُفتّش عن الرواية مراراً. يقصّ في نعيم الوقت أنّ هذا الكاتب يُدير جولة واحدة من الملاكمة بين صديقه إرنست هِمنغواي (المهووس بمتع التحدّي) في (بار فالستاف) مع كندي عريض جدّاً، فلا يرحمه من قبضته، ولا الكاتب الحكم يُوقف العذاب عن صديقه. يحكي كميل هذا وعن فيلم مستوحى من قصّة يبحث عنها كثيراً. ذات يوم يُعيد على طلال ذاكرته عن تلك الحكاية ويذهب ليُفتّش عنها. إنّها علامة الحياة وتشهق وردتها عند العشرين من عمره وتتوقف. يتي يأتي باريس ويعيش منها يعيش نهاية الثلاثين سنة المجيدة، كما يُسمّيها الفرنسيون. ثلاثون تتلو حرب العالم الثانية وتُعيد لهذه البلد قيادة النور والثقافة؛ لأنّها علامته في نهاية القرن التاسع عشر. يُعدد كميل تنقل الموسيقى والكتابة في باريس، كأنّما الفنون رفقة من الغجر. بداية في Montmartre (شارع مُونمَارتر) لصق كنيسة القلب المقدس، ثمّ جيل مطعون بالصدمة من أول حرب للعالم الحديث، أو (جيل الضياع)، يعيش في Montparnasse

(مونبارناس). هناك قد يجدون وجبة مجّانية يُقدّمها Le Dôme Café (مقهى القبّة) للمفلسين منهم. ينتهي طواف المبدعين إلى سان جيرمان دي بريه، أو الحيّ اللّاتيني منذ خمسينيات القرن العشرين. يكون كميل على الهامش. لا ينفذ عميقاً في الجرح ولا في الفرح. توفيق سلّومي يقول لطلال: تُهدّمنا الحماسة لتلك الأفكار البعيدة.

عندما يلتقيه.. يراه أنّه متمسّك بالمشقّات العربية والعصيّة على الإحصاء. مثقف ملتزم حتّى مع الخسارة. يحفظ كلّ الجراح ومشتقاتها. توفيق سلّومي في قلب طلال هو Antonio Gramsci (أنطونيو غِرَامشي).

الآن جيل التقدّم ليس بيده من تلك الفترة سوى ذاكرة المقاهي والحذر. حتّى الخوف يشيخ.

الأفكار لا تُراعي ذهاب العمر، تبقى فتية الجذوة في زمنها فقط. تتوقف في معترك السنوات. تتركهم في دفاتر ليت، بينما الأعمار تذهب.

كميل، مثلهم يُناصر الزمن عليه ليحمل الوقت الثقيل من العمر دون اعتراض. يتذكّر من سنواته البكر في باريس فيلم (الليلة الناعمة) ويصمت عن نسيان البلد وجذر الأمّ ويبحث عن القصّة في مكتبات فرنسية قبل أن يُؤكّد أنّه سيجدها في أول مكتبة إنجليزية في باريس، مكتبة شكسبير. مجدداً يبحث عنها في أماكن قريبة من منزله. ويعود يقول لطلال: أتعرّف؟.. لأجد نسخة من القصّة لا بدّ أن أستعين بمكتبة شكسبير.

يقول هذا طيلة خمس سنوات، وطلال لا يُذكّره بآخر حديث عن بحث يتيسّر جوار المنزل ومقرّ العمل فقط؛ دون أن يذهب إلى أبعد من المسافات اليسيرة، فيقصد المكان الصحيح ويعرفه جيّداً.

***

عن بلادنا البعيدة، ستعرف ماتيلد، دون مساعدة من إيفرِك، أنّنا مرتبطون بتراب الجذر وسنُعيد هزائمنا للمكوّن الثقافي. كأنّ الأستاذ توفيق سلّومي، وهو تونسي بامتياز الترحّل، يحضر. مثقف من خلاصة المراحل جميعها. ألتقيه في إحدى صدف باريس المليئة بالبهجة والانكسار. سيقرأ لي من (سيرة الهزائم الطويلة). إن يصحّ العنوان المقترح هذا للحالة شرق أوسطية، فأنا أستقيها من عينَيّ الأستاذ توفيق. عند أول لقاء يُشَرّح حالة العرب ويُكرِم «سمعة اليسار» يوم يعلو الصيت. يذكره في الكلمات، في أجنّدة تهرم بالتأجيل. يُخلّص أحلامه من غبار الزمن أمامي كما لو هي سبق لصحافي مُجِدّ.

الأوراق لم تعد تقبل بها أيّ مدينة أُخرى. يُغادر تونس عند الربيع العشرين من أمله في بلاده ومن عمره الذاهب في نضال التجربة. لم تكن البوصلة جيّدة. باريس محفوفة بالتطلّعات أمامه، لكنّه يختار الطريق الأبعد. يتجهون إلى الشمال كأقرب تماس مع البحر وخلفه أوطان الجنّة. هو يذهب عربياً غرباً فشرقاً. يتفتّق عن أفكار راديكالية كأنّما شريطة العمر الأول أن يكون على تلك الحدّة مع السُّلطة. تلك السُّلطة ستُضيف إلى «التيار الحديث» اشتراطات محلية. هو، مع الرفاق، يختار «اليسار العلمي»، بمعنى حاف هو القائم على النظرية البحتة. باختصار، الجوعى لا بدّ أن يحكموا أولاً. ليس أقلّ من هذا المطلب، ففكر الحركة يُحتّمُ التغيير في المركز بأيّ وسيلة. ينحاز إلى الفجوة الصادقة ضدّ الحاكم العربي يومها. يقصد الريح العاصفة باسم «أُمميّة الحراك»، باسم الشعوب الهادرة إلى الاشتراكية. يتحدّث لي عن لقاء المتهم بانقلاب (1962م) على «النظام البورقيبي» في طرابلس. هي أول محطّة عربية من ليبيا، ثمّ ينتقل إلى الجزائر الواسعة حينها بتعدد الاتجاهات. هناكَ يُؤسس مع البقيّة رابطة لمتطوعي اليسار. ثمّ تنبت رحلة جديدة إلى الشرق، فيبدأ

باليمن، ثمّ بغداد. أمّا الحديث عن بيروت فجميعهم يحضرون قصّتها الكثيرة، لكنّها تبقى مصيدة المستعدّين للذهاب على الدوام. لا أذكر سبباً وقد يدفعه لأن يقول: «فقط في بلداننا.. القَتَلة وحدهم يتحوّلون إلى قادة مبجّلين ومنقذين!». من أمانة يفرضها التزام المثقف، يتبع هذا أن يستشهد باتفاق كبار كُتّاب أميركا اللّاتينية على تقديم صورة الطاغية في بلدانهم، فيُسمّي روايات يكتبونها عنه: «حفلة التيس ليوسا، السيد الرئيس لأستورياس، خريف البطريرك للماركيز، انتفاضة المشانق لترافن». أعتقد أنّني سأتجنّب اسم الكاتب الروسي «باسترناك» وروايته الخالدة «دكتور جيفاقو» لأنّه يُعرّي الاشتراكية. من تمام التقدير لاستشهاده أن أصمت عن أيّ منغص عابر، ثمّ أُكمل التقدير بتساؤلي معه عن التزام الكُتّاب العرب بمناصبة «القائد الأوحد» الرفض ولو بكتابة رواية، باستثناء نجيب محفوظ و...

الآن في باريس، وبعد خمسة وعشرين عاماً، يستعيد الأيام الخوالي بحماسة من يبدأ للتو صباح عمل يُحبّه. يثق بحمولة قلبه ويحفظ فيه فضلاً لرفقة الصحافة. هل يتحدّث عن إصدار «صحيفة اليوم السابع» في باريس؟!. يكتفي بنظرة ناعمة من عينَيْن ضنينتَيْن بالحنق، فلا يُمكن أن تحملا غير الرضا. لا يتذمر من قليل ولا يظهر عليه الكثير. يكون على ابتسامة صغيرة إن يقول: «أن تحبّ الشيوعية عليك بباريس، وإن تكفر بالشيوعية عليك بكييف». «إذن العودة إلى الجذور». أنا أُعلّق على مقولته، وهو يُضفي الهدوء للفكرة، بينما يرى أنّ خروجه، قبل عمر، إلى باريس هو من قبيل الواجب الأقلّ لنصرة الرؤيا. إنّها أول مدينة في التاريخ تنتصر لـ«اليسار» عام (1789م) حيث يسقط التاج؛ بعلو الجوعى.

***

من (سيرة الهزائم الطويلة) إيقرِكَ يُجانب الصواب في كثير من

الشواهد. أنا سأردّ له الكيل كَيلاً واحداً، فلن أملك دفوعاً تُجابه صوراً مدهشة تأسرني عن موت مدنهم وبعثها. عندما سيقول: «لو أنّ الإسلام يُقَدَّمُ كنظرية قد يتمكّن من فعل الكثير...». ستُساهم ماتيلد بنظرة متحفّزة لأردّ: «ولكنّ جميع النظريات وإن تظهر في بدايتها لخدمة البشرية، كأنّها اليوم تصمت... أمّا الإسلام فحراكه ممتدّ، لماذا الآن...». لن أُكمل فإيقرِك سيُشير إلى دور السُّلطة الصارمة، وسيتساءل: «ومن أين تأتي كلّ هذه الخصومات للإسلام؟!». لن يسأل لمزيد من الإيضاح؛ بل ليُقرّر. سيتبادر إلى ذهني الدفاع بما ينمّ عن اتهام جميع الحركات الراديكالية: «أيّ نظرية تخلق عدوها الخاصّ...». بالطبع لن أُعلّق بهذا، ولكنّه سيسبقني: «الحروب لا مُبرر لها سوى التوسّع...». سأُفكّر جيّداً قبل أن أقول له: «ولكن ما تزال فرنسا (الأقدام السوداء) تحديداً ترى الجزائر مجرّد مقاطعة...». سيُوقفني بضحكة، لا لركاكة دفاعي، بذكر ذوي «الأقدام السوداء» أو «الحَرْكِي» ـ مَنْ يرون الجزائر فرنسية ـ إنّما ليردع محاصرة لا داعي لها. سيُعيد عليّ ما يُشبه التهمة: «وماذا عمّا تُسمّونه بالفتوحات الإسلامية؟!». سأنبري بالردّ على هذا، وسأقول دون تفكير: «لم تكن معارك الإسلام تطهيراً...». سيعي أنّني لن أقصد الدفاع، إن أُذكّره بالحروب الصليبية وما سيحدث إثر نهاية الأندلس لليهود والمسلمين، أو الموريسكيين. سأقول لنفسي هذا المصطلح قبل أن أنطقه أمامهما، لأنّه جمع أكثر دلالة علمياً وفيه من الزهو بإجادة اللغة البحثية ما يدفعني للثقة. ماتيلد من حركة جلوسها ستُسعدني بخاطرها الخالي.

(إنّ التمسّك بالجزائر في الضمير الخفي، كما يُنادي العميق من دولة فرنسا، يدعو لإنقاذ الأندلس من الترحّم والكتب، فنملك في إشبيلية وقرطبة والحمراء ما يفوق أباطيل تسرق حجر الجزائر قبل لغة إنسانها وهويّته).

لا تطلّع ماتيلد على هذه العبارة ويكتبها طلال في وقت متأخر من ليلة لاحقة على حفل الكتاب، ولاحقة على رهافة ساعدَيْها تحت إنارة شارع رفيع الشهرة، وتحت خشوع أشجار لها عمر بلده، خمسة وسبعون عاماً وتزيد.

تتداعى الحماسة لبلد عربي، متى يُدرك أنّ الوقت يختلف، وأنّ النوايا القومية تتحوّل. يتذكّر حديثهم في فندق (لُوُ مُوريس) ووقوف بلده مع قضية الجزائر في منصّات ومحافل الأمم، واليوم تتبدّل القيم وتعود العلاقات برابط المصالح.

يسري في ليل الجحيم: إلى ماذا يعود هذا الضعف في الدفاع عن بلادي؟!.

زخّ المحاكمات لا يرحمه. إن هو القارئ وفارس الفضول إلى القيمة المعرفيّة، ويقبض على أيّ معلومة بشخوصها مكاناً وزماناً، فلماذا هذا الضعف؟!.

حق مشروع له على أرض فرنسا أن يُناقش ويُدافع وعليه حتماً أن ينتصر لصورة بلده، وتجربة البلدان العربية لا تَقِلّ عمّا وراء الأبيض المتوسط. يُدير التساؤلات وحيداً.

بصفتهم ممثلين لبلدهم، يُعلّق أمام أبي سُمير وندماء خاصّين جدّاً: مَنْ لا يشكّه وخز، بمذاق الغيرة الوطنيّة، وهو عاجز عن الردّ على أيّ تناول يمسّ بلده، فهو سطحي لا يستحق تمثيلها.

يهتز عمق مشروع ويأمله قبل أن يصل باريس موظفاً في شؤون التمثيل الثقافي. هذه الأرض صالحة لكلّ معارك طيّبة وخبيثة. يتساءل: لكن ماذا عن قلّة المعرفة وتكرار الهزائم، والهروب إلى هذا الاستديو الفقير؟!.

يختنق. يرسم شجرة وطنيين عرب يُسجّلون مواقف مُشَرّفَة عبر تاريخ بلده. أولئك لم يُوقفهم لسان أو دين أو جنسية عن رفع قضايا العرب بعيداً. يتحاشى أيّ دلالة على نزوع قومي

داخله. يُعدد بعضهم. في الخمسينيات أحمد الشقيري (لاحقاً يرأس منظمة التحرير الفلسطينية) يكون أول سفير لبلاد طلال في هيئة الأمم المتحدة. اللبناني، الماروني، جميل البارودي (الشجاع) يخلفه في رئاسة بعثة العربية السعودية في أميركا، ويقول للرئيس كينيدي: والدك خَرَّبَ أميركا بالويسكي المهرّب.

أسماء بقامات لا تقبل بأقلّ من رتب الشرف، يصفها على اختلاف الأرض والعَلَم، ويُقارنها بأسماء اليوم!.

(في زمن نفتقده.. القضايا تكبر من حجم رجالها، أمّا اليوم تهون لأنّ صغاراً يسودون باسمها).

يكتب هذه العبارة ليُرسلها لماتيلد، فلربما تتحدّث معه في الغد عن نهار جديد من شمس بلدها الكبير.

***

عن مجيئ يوم يتبع في القائمة..

قد أجدها، بقليل من الحماسة، تهتم ماتيلد بترجمة ما سيصلها مني. عندها سيندفع العم كميل إلى إنصاف رجال البلدان العربية. سينقل عن مواطنه السوري «منير العجلاني» ـ مستشار ملوك السعودية ـ استحسانه لرحيل قادة الاستقلال الوطني العرب قبل أن يشهدوا إجهاض أحلام الديموقراطية في أوطانهم بحلول منتصف القرن العشرين. سيُعيد إيقرِك السبب إلى البُنى الثقافية القائمة وسيصفها: «إنّها هشّة.. مشاريع تقوم على المواربة ويسندها الجهل». سألمس بكلامه شواهد كثيرة عن بُنى ترى ضعفها في دفوع من لا تعترف به أصلاً. سيُؤيّده العم كميل: «هذه قوّة في داخلها وما سواها هو عامل هدم وإن يُصنَّف من أبناء أرضها.. الكارثة أن تُوجد دولة بحكومتَيْن». سيُعارضه إيقرِك، كما سيعتادان: «مفهوم الدولة منال بعيد.. هي فئات تدّعي الحاكمية وتُنتج عداوات مجانية». من هنا

سأفهم يقيناً أنّ هذا الشكل من الحكم دوماً يقع في الفخ ذاته، فهو يصنع بلا وعي «شُجعان القشّ». هنا هل أتساءل في نفسي: «... وإلّا ما دافع دول كثيرة تتهم بلادي بما لا يُعقل عند إيقاف أحدهم خالف طريقة ما، مثلاً؟!». للأسف بلادي تقف حَصْرَاً في هذا المقام. لن أتحدّث بهذا، ولكن أيّ حصار مستمر، وسأتحاشاه، سيأتي من هذا الباب الممضّ. سيقرأ إيفِرك: «إنّ ثقافة تُؤسس أباطيل لن تُنتج مفكّرين يقودون مرحلة تصحيح بل ستخلق راديكاليين يتمسّكون بمكتسبات الباطل». سأتمنّى على العم كميل ألّا يُضيف بقوله: «سيحتفظون بعامل قوّتهم الوحيد». عليّ أن أُعيدهم إلى الملك «سان لويس». بل أنطقه: «لويس التاسع»، فهذا أوفى للأنفة وامتداد التاج. سيُوصي الفرنسيين ألّا يخوضوا حروباً مع العرب. ليس لأنّه ذاق سجن «المماليك» في «المنصورة» (مصر 1250م)؛ بل لأنّه يقترب من روح التقوى. سيعرف من أيّ وريد سيُنقذ القدس بحملات الصليب؛ فيُسمّونه «الصالح». وصيته أن يأتوا العرب من الشام. يخترقون أولاً نصّهم المقدس، ثمّ إحلال ثقافات لن ترفضها أرضهم فيما يعقب من أيام مراراتهم الممتدّة. بعد خمسمئة سنة على تلك الوصية لـ«أسير العبيد» تقوم الثورة الفرنسية وتتسم بالالتزام ذاته للملك التقيّ. سأقع في خجل أن تكون خططهم بوصفة واحدة وعلى تماسك عابر للزمن. الهدف الطويل في معمل السنوات ينضج، سواء يكون القائد ملكاً خلفه شعب، أو شعباً يقوده فردٌ من عامّته. العم كميل سيُؤكّد: «نابليون سيُرسل إلى جزيرة العرب مَنْ يكتب له تقريراً أميناً عن الوهابية ويكتفي بفهم خطابهم». هذا التقرير يرقد من مئات السنين في دار الوثائق القومية مثلها مثل وثيقة الملك التوّاق لإنقاذ القدس. هزالة الدفاع عن صورة البلاد لن أستطيع إخفاءها. أيّ حجّة ستكون واهية لأنّ أساس منشئها لا يمتّ للطبيعي بصلة. من طرفي ـ واجب، لازم ـ سأمتثل

لتعليمات لا تعرف الرمادي إطلاقاً. إذا ما يُحكم حصاري على هذا التصوّر، سأتذكّر ضعف شخصيّات عليها أن تُمثّل البلاد بصرامة. سأشعر بالزهو وأنا أردّ على إيقرِك برؤية «لويس التاسع» عن مناصرة الصليب في شرقنا. «حماية مسيحي الشرق» هو مبرر الانتداب الفرنسي (1920 ـ 1941م). لن يَقبل وطنيو سوريا بهذا «المبرر الواهي»، كما يصفونه. يقودهم «فارس الخوري»، المسيحي، إلى المسجد الأموي. من المنبر ينطق بشهادتَيّ الإسلام؛ وعلى الأكتاف تحمله حشود، مسلمة ومسيحية، وتُنادي بسوريا واحدة الأرض والربّ.

***

ماتيلد قد تستثني، أثناء أيام تكبر أمام عيني، قدراتي على الاختلاف بعد اقترابها أكثر، لذا ستُحافظ منّي بقدر انضباطها الداخلي ولن تذهب بعيداً.

من الآمال المقبلة أن تنصح ماتيلد عامر صُبيح بمغادرة غضب الأطراف وهو سيُمارس وصاياه على المهاجرات تحت بند «المساعدات المشروطة». وأن يحترم أبو سُمير حاجة الزمن في التغير وأنّ صبية واحدة تكفي البيت. وأن تقترح على بِن يزن التنازل عن وداعة أمّه والتاريخ الصغير لأبيه، وأن يَصدق لمرّة واحدة في وعود يقطعها للمشرف على رسالته الأكاديمية. وأنا عليّ أن ألعن القيم الجامدة وقليلاً من الوفاء لأخوة لن يرحموا قلقي عليهم. وأن يكون ولد السالم على معنى ما يأمله تماماً ولو في قضاء الحاجة عند نداء «التواليت» وألّا يخجل من خيباته. سيجب على عاتقنا عمل توافق مع الجغرافيا. سيلزمني والرفاق فهم ماذا يعني اجتياز الحدود. أن نكون على قدر خططنا الخاصّة ولو بأقلّ ما يُمكن من طموحات فقراء التجربة. في جميع الأحوال لن نُكون رابطة

للقادمين الجدد. الأرض ليست لنا، ولن نقوم بدور «الآباء البِيض»، كما يفعلون في الجزائر[1].

لنفترض أنّها تهتم، في جميع الأحوال ستتدارك ماتيلد مفاصل التوقف أو الاستمرار في محاصرة كائنات. إنّهم أشخاص يُوقدون الحياة معي في باريس زمناً يذهب هو الآخر.

سأزعم مع الافتراض أنّها ستبدأ بعرض قدرات العزيز أبو سُمير في العمل. ينشط في شؤون رعايا بلادنا. قد يقطع ليلاً طويلاً يجوب أرض فرنسا لأنّ مواطناً سعودياً تشاجر في مدينة «تُوُلُوز». لا بدّ من ممثل حصيف مثله لحلّ المشكل. سأهب أنّ ماتيلد تسمع سهب ذات ببسيدة سعودية تَعْلَقُ في مطار «شارل ديغول» لخطأ في إثبات ابنتها الرضيعة. تقضي نهاراً كاملاً تمتدّ ساعاته بإهمال «جهة التمثيل» لمكالماتها. هذا قبل أن يصل صاحبي ليجد طاقم القنصلية الكندية ويمنعوه من التدخل. الرضيعة مولودة في «أُوتوا» وتحمل الجنسية الكندية، ولم تكتمل أوراقها. يشعر بخجل ممضّ، فهي مواطنته ولن يستطيع أن يُقدّم لها أيّ خدمة. يشتعل بداخله غضب بلاده. يُصدّ بشكر مبطّن لا قيمة له. الكنديون في ساعة يُنجزون جميع الإجراءات بعد لجوء السيدة إليهم. سأذهب إلى هذا الحدّ في تذكّر القصّة دون تعليق. ماتيلد قد تأخذ انطباعاً جارحاً لحال تمثيلنا وستُشفق على صاحبي، لا شكّ.

بينما سيكون تصوّر ماتيلد عن ولد السالم مبنياً على حجم الهزيمة. هذا ما يُمكن توقعه. بداية ستحكي أنّه دون القامات في مكتبنا. طالما

---

(1) ـ **في مبادرة هي من نوادر بِن يزن تتّضح هذه الجمعية Pères Blancs**: أعمال التبشير تتّسع في المغرب العربي وتظهر هذه الجمعية استجابة لأحوال المجتمع والانخراط فيه، عملاً بدور الكنيسة ورسالتها. تفتح المدارس لاستقطاب الطلبة ومنهم أبناء المسلمين. **في تعليقه اللازم هنا يذكر كميل أنّ المفكّر الجزائري محمد أركون يلتحق في مدينة وهران بإحدى تلك المدارس.**

تُذكر الهزيمة فلا جانب للتصحيح أو اكتشاف مكامن قوّة ماتيلد. سرعان ما سيظهر لها بيان الخيبات وستُدير ما تبقى من الحكايات على طريقتها في مشاغبتي.. هل سأكون المنال المتاح وتحصل عليه في مقتبل العشرينيات من عمرها.. لا أعتقد، فأنا سأذهب في قلبها عميقاً؛ بل قد أُحقق لها شيئاً من نبوءات إيقرِك المتشددة في غرس الورد أمامها. بإعمال ليت، ستقرأ يوماً محاولة ترجمتي لعبارة تخصّني «مَنْ يَحْدُثُون بالفعل في الحياة الخاصّة لي، وبمحض القلب والرؤيا، وحدهم هم الحدث القادر على إضافة النزاهة للتاريخ الشخصي».

أحدهم في الحياة الخاصّة بطلال، يكون أقلّ القامات جميعًا في المكتب. هكذا يتّفق الجميع نكاية بمن لم يُحقق أهدافه بشكل تام. تُؤكّد ماتيلد، لو تلتقيه، أنّه لم يكن قصيراً لدرجة الشفقة، ولكنّه قصير بقدر يُبرّر معه جدوى الترضية. تعتبره أطول بقليل مما يُرى أول مرّة، ولكن يجب إعمال المجاملة لتصل لمستوى من القامة. بالطبع ليس عدلاً أن يتذاكروا لاحقاً في سيرة ولد السالم مصطلحات تتعلّق بالارتفاع أو الطول، أو بإشارات تكاد تدلّ على مقاسات أحد من البشر. الغالب أنّ أحداً لا يجد ما يُؤهل المخيّلة في الذهاب بعيداً معه.

ماتيلد قد تُقرّب صورته بعيداً عن مواقع من سيرته غير المهمّة. ولد السالم يرتدي ملابس أطول من المناسِبة له؛ كي ينمو لاحقاً في اعتقاده. يُلاحظ هذا عليه، في مناسبات مختلفة ويُلحّ على حضورها؛ ما لم يكن هو قائد تنظيمها، بل لا يغيب عن أيّ واحدة منها. لا يتخلّى عن حذاء بقطعة معدنية تعلو المشط النحيل.

يُضنيه ضميره... حسب ما يُبيّنه من شرف باهظ المشقّة عند الحفاظ عليه؛ لأنّ هذا الضمير يتجاوزه بباع ربما. من قبيل المديح لتاريخه الخاصّ جدّاً؛ أنّه يخشى أيّ هفوة في أداء عمله،

فهو الواقف على سعة المكتب المالية. بدقّة مُشَرّفَة هو الأمين على خزينة صغيرة. الخزينة يُمكنها أن تشمله مع بضع وريقات نقدية يدّخرها. ويدّعي جهداً عند الطوارئ من قبيلها مناسبات المجاملة الكثيرة، وأُخرى يحرص على حضورها في جدول أيامه القادمة.

***

يُحتمل.. ماتيلد، الكثير ستعرفه، وستتعمّد أن تُغيّر ما تراه، خاصّة شعلة «مُنتُونْ». ستعلم أنّني سأُواظب على معهد اللغة الكاثوليكي، لأتعلّم كلمات ستعنيها حتماً. بينما ستضحك ملء لحظات تُزيّن روحها على حكايتي ـ إن تصلها ـ مع أول عبارة كاملة باللغة الفرنسية أحفظها من بِن يزن قبل أن أعرف معناها. يتمسّك ألّا أُترجم ما أسمعه، حتّى تستقيم الكلمات في ذاكرتي. سأُخبرها أنّني أفترق عنه عند اتجاهَيْ «مترو لامُويْت» المتعاكسَين. قبل وصول أيّ المقطورتَيْن فينقطع الحديث، ولم أكد أُذكّره من الرصيف الآخر، بأهميّة مراجعة تقرير المكتب حتّى يبتر كلامي؛ إذ يسألني بصوت عالي أن أُسمعه درس اللغة الأخير. عندها أُغرّد بحماسة فتى نجيب:

«Reste avec moi toute la nuit!»

«رِيست أَفك مُوَا تُوتْ لاَ نِويْي».. أنطقها بلسان فذّ، وكأنّني متوّج ملوك فرنسا في «كاتدرائية رِيمس» ـ Cathédrale de Reims ـ[1]. صفوف صغيرة من الناس على الجانبَين تبتسم في مثابرة لمعرفة حكاية أجهل

(1) ـ التشدد في اللغة لا يُفارق السيد خطّاب: حال يسمع طلال يسأل من بِن يزن أن يشرح له سبب وجود كلمة (نوتردام) في الاسم الكامل لكنيسة (Cathédrale Notre-Dame de Reims) وفي (كاتدرائية نوتردام باريس)، يجده ينطق اسم الكنيسة (ريمس) ليُصحح له أنّه (رانس)، ويذهب وقت شاق بين كميل وبِن يزن والسيد خطّاب لكتابة اسم الكنيسة عربياً بشكل صحيح!.

بدايتها تماماً. أُعيد له العبارة مثل مران المكتب. يقفز من الجوار أحدهم مؤيّداً ما يسمعه؛ بنعم مكررة: «oui.. oui». يضحك بِن يزن حتّى ينحني في وقاحة من يُوقِع بغريم ساذج!. من خدود مُحمرّة لفتيات أعرف أنّ اللعنة تختارني وحدي. العبارة.. يُترجمها لي: «تبقين معي طوال الليل». في الترجمة.. على مسمعي يُؤنث المخاطب لتصل الصور الصافعة. تعجّباً يُهمهم الجميع بأنّني أدعوه لسرير يطول ليله، فالعبارة تُقال للفتاة فقط. لم يكن الوقت سمحاً لأشرح أو أُوضّح ماهية المَيْل لدَيّ حتّى لعيون عجلة تُطاردني قليلاً داخل المترو فيما بعد.

على ماتيلد أن تُواصل ضحكها وستتأكّد أنّها جملة يتيمة أُجيدها، ولن أستخدمها إطلاقاً طيلة خمس سنوات. هذا سيعود لأسباب جوهرية في التعاطي لا في الشغف الناهض لفتاة واحدة ووحيدة.. ستتصيّد ماتيلد هفواتي، ولن تدحض تذكّري للشمال أفريقية غيثة، كما ستفعل بالنسبة للبحرينية شمّاء. ستكتفي فيما يتقدّم من الوقت بتحرّشي لِبن يزن أمام منتظري مترو في محطّة ستُجاور نُزلي الأخير في الدائرة (16)، حيث استديو صغير وتملكه طبيبة يهودية من أصول تونسية. أتذكّر أنّها محطّة يَجِدُّ العم كميل في تعليمي نطق اسمها كما ينطقها «أبناء الغال».

أن تكون بلا أمجاد، فيعني خلوّ السيرة من دواعي الشكّ لدى فتاة نبيهة. إنّما تبقى عبارة بِن يزن رصاصة عينَيْها الباسمتَيْن كلّما يقف طلال على إحدى ضفتَي تلك المحطّة. يرتجف لو يُفكّر أن تظلّ في رفقته الليل كلّه. قد يقضيان مجمل ساعات اليوم سوياً؛ إلّا أنّ الوقت أقلّ عمراً معها.

هذا التطلّع يخصّ طلال؛ فنزيد أنّ جُلّ الوقت يقطعانه معاً. هذا بالطبع عملاً بالتطلّع ذاته، دون تمحيص أحداث أو تلمّس متانة التفاصيل.

نقول يرتجف لو يُخالجه أن يسأل إحداهنّ: تبقين معي طوال الليل؟.

هكذا يشعر طلال. فكرة أن يُجرّب العبارة مع أيّ فتاة قد تمتد دون تنفيذ وقد تُوسّع الوقت وتستنزف قدرة الاختيار، فمتى اللحظة المناسبة، ولماذا لا تكون في وقت آخر؟!. هكذا حتّى تُجْهَض النشوة بالحيرة والتردد الفاجر. ولد السالم يرى النجاعة في مباغتة أيّ فتاة: هل تمنحيني جسدك؟[1].

كما يُؤمن ولد السالم، إنّه سؤال مباغت، يُوقع الفتاة في حقيقة حاجتها مباشرة. يُقرر أنّه سؤال يمحو كامل المسافة بشكل قاطع. من مجمل تطلّعات طلال أن تعتقد ماتيلد أنّه لا يعتنق مذاهب رفيقه المتنصّل هو منها أصلاً؛ ويكتفي بخطط صغيرة وهشّة. وأن تُقدّر ماتيلد أنّ فرص الدنيا مثل قبضتها، محبَّبة كنعومة قطن، لكنّها مؤلمة جدّاً فيما لو تُسدد الحظّ العاثر لولد السالم بين عينَيْه. هذا أبلغ تعليق على فكرته عن الاقتحام والتمكّن. تُجرّده بداية من اسمه الأول (غازي)، فهو أبعد ما يكون للغزو والطعن في نحر الفريسة، وتكتفي بولد السالم. تختصر شخصه بما هو أقرب للسلامة ومجانبة المعارك. ماتيلد لا تُنقِصه حقّه متى يتبجّح بقدرته على الانقضاض. وكثيراً يستعرض لها إيقرِك من التراث العربي (ابشر بطول سلامة يا مربع). رفاقه يُرددون ما يأخذ موقف ماتيلد منه على محمل الجدّ: (يا الله السلامة).. آملين له الأمان من طموحاته.

***

(1) ـ نُوضح للضرورة: يتقصّى طلال أخفّ العبارات ليُوصلها إلى ماتيلد. يُفتّش عن لغة تأنف من قاع اليومي وبذاءة رفاقه في تعاطيهم للحياة الخاصّة. يُخفي أيّ كلمة لا تليق، إذ يرى أنّه يصل إلى قلبها من أوسع إعجابها بشخصه ونظافة روحه.
ـ من واضح القول: طلال يُحاذي تلك اللغة الندية من صديقة تغيب. يُسمّيها لكميل (الجدار الوحيد في قفر شاسع)، ولا يُجانب كتاباتها أو وصاياها، كما يتنامى للرفاق بعضها في مدونات تتدلّى من لوحة مكتبه وتحميها صورة لمحمود درويش.. هذا دون أن يأتوا بسؤال عن (طاهر هشام) وله قصاصات كثيرة في تلك اللوحة.

إذن سننتظر إيڤرِك في بهو «لُوُ مُوريس»، وسيدخل «جاك شيراك» بمساعدة بعض أعوانه. «يشيخ آخر الديغوليين[1]...». ستقولها ماتيلد بحسرة تفوق حال الوجع من الترحّم على الرجال القادة حين يهرمون.

عند الحزن تظهر معادن لم تُلوّث. ستحكي لي عن نزاهة كبار يمرون. ستقول: «في الإليزيه لن يطلب شارل ديغول أن تُدفع عنه مصاريف إنارة خافتة تستخدمها زوجته ليلاً للقراءة. يُعدّ لتلك الإضاءة عدّاد كهرباء يخصّه، ويدفع كلفته الشهرية من جيبه حتّى يُغادر القصر الرئاسي». إنّه هو مَنْ يركض إلى أبواب الحلفاء لإعادة دبيب الاستمرار في باريس. ستأتي هذه الصورة وأنا أُمعن في كلمات تخرج من فم هذه الفتاة مثل ندى يُبشّر بصباح الأبطال. هذا القائد هو أحدهم، لكنّه بعد أول فترة رئاسية، يُغادر القصر باستفتاء شعب يتعجّب منه بسؤال: «ماذا أفعل مع شعب له ثلاثمئة نوع من الجبن؟!».

ستبتسم لتتفتح البهجة في المكان، وستكشف السبب. ستتذكّر أنّ «مِيتِرَان» وهو يجدّ في حزبه؛ ليدخل القصر رئيساً منذ بداية السبعينيات، يمرض الرئيس «جورج بومبيدو». مرّة «مِيتِرَان» يكون في مطعم ـ لن أجد أثره معها ـ يعشق أكل دجاج الأرض فيه، ويصله أنّ الرئيس يموت. يقفز من طاولة الطعام؛ موقناً باقترابه من عتبات الرئاسة. النّادل من خلفه يُذكّره بحساب المطعم، وهو يركض في الشارع، ويقول: «ارسلوا الفاتورة إلى قصر الإليزيه». ستعود لضحكة منضبطة وسأعود للتعقل في متابعتي لملامحها أثناء حديثها. سأرى الله خالصاً في بدعة.

(1) ـ **يُكرر كميل في تعريفه لهذا الرئيس:** يعود لشارل ديغول شأن في الحركة الوطنيّة الحديثة، أو الجمهورية الفرنسية الرابعة، بالمحافظة على مُقدّرات فرنسا إثر احتلالها من الألمان في الحرب العالمية الثانية. وتبقى صفة الديغولي للدلالة على تلك المرحلة الوطنيّة الهامة في ذاكرة الفرنسيين، وحتّى آخرهم جاك شيراك.

سأتحسّر لهرم كلماتي أمام ألق لمحة الأسف على الكبار. سأتوقف عند قدرتها في الوضوح البالغ صدقاً. لفافة من الكلمات الصافية ستضعها بين يدَيّ دون أن تكون لغتها حمّالة مقاصد، كلمات ناضجة ووافية. سأُغادر أمام هذا السحر إلى عتمة مسكني، كلّما أعود عاجزاً عن تقمص الصراحة أو أُحاول افتعالها، حتّى عند تعاطي اليومي والقصيّ عن مسافة الحذر. خلف الباب دوماً سأعي أنّ دويّ الكلمات، جميع الكلمات، مجرد إيضاح شحيح لما يحدث فعلاً وعميقاً. حتماً ستسمع منّي ماتيلد، ذات يوم، هذه العبارة وستحبّها لارتباط المعنى المفتوح على أيّ شيء والوثيق بمنجم نورها الكثير. ليس بعيداً المعنى هنا عن علاقة سلطته بوالدها، البروف رجل اللسانيات، ويُسمعها باستمرار: «لا تُوجد للمعنى، أيّ معنى، حدود..». لن أسمع هذا وإنّما إسقاطه يُحقّقه اجتهادي عن أساتذة اللسانيات، وبعامل التحفّز لفهم بذلهم مع كبير ودّ للسيد خطّاب فهو أحدهم.

... في سيرة المعنى: وحده يُحدد امتياز النقيض، يخرج من هذا الجسد، دلالة شفتَيْن ضاريتَيْن، فحوى لهاث الباحثين عن فردوس الكلام. يخرج من حنق الكتابة، منك وأنت تخلعك قسراً من نبل زائف، من مدينة سجينة، من لذّة تطوف لفم يتخطّف أطراف النيران، من حزن يتّسع وجوع فاجر يفتح للحاجة أوسع أبواب الخطيئة.

المعنى يخرج من هنا: من سلام الخطأ وشرف الرغبة، من سلالة الشغف، من أشخاص جديرين طوعاً بمصافحة الموت.

المعنى جرحه فاتك، يتفتّق من ضفاف الكأس، تفرغ منه لتعود إليه، من وهج اللغة من لَبْس. اشتعاله من غواية الحرف، من منعرج الروح، من استواء الكسر، والجسد يهوي إلى منحدر في الكتابة.

طالما الوقت سيمتدّ بالحديث في «لُوُ مُوريس»، سيحين موعد الغداء. سأكون على طاولة إيقرِك في هذا المكان الفاخر. سيلحق بنا العم كميل، بعد تقديمه لهما من قبل. لو تسأله ماتيلد عن زواجه من مارتين سيُجيب إجابة تشمل كلّ الأسئلة ويُحتمل إلحاقها: «هي مَنْ تتزوجني...».

حال أُناديه العم كميل يطفر قلبه بابتسامة سخيّة ويعرف أنّ وداًّ في ندائي، وليس تقديراً لسنوات كثيرة تحمل العمر من أمامه دون أن يكترث لها.

أيّ عربي يقول عن امرأة: هي مَنْ تتزوجني؟!.

كميل يتكفّل بتحوّلات الهويّة. لا يعنيه أيّ ضابط قِيَمي ولا عين قبيلة. يحرص على التذمر في بداية إقامته قبل أن يصل خطاب منحه الجنسية وانتمائه لرفاه الفرانكفونية يومها. التمسّك بالبقاء يكون أهمّ مصادره رحيل أفراد عائلته. يضطرّ للسفر لحضور جنازة أخته، وقد يسأله إيقرِك: هل هي الأقرب إليك؟.

يردّ: يجب حضوري لإكمال كثير معاملات خاصّة بالتركة وبيت في الشام.

لا يُعلّق على أنّها الأقرب. ينتقل حديثه عن زيارة مهمّة لطبيب بِتْشُوُن في القادم من الأيام. النظر لماتيلد بضحكة يكشف طلال ما يُخفيه من حكايات عن كميل واتّساع خطواته في ذاكرة هذه البلاد وما تشهده من مرور الكثير على عينه، تحديداً مَنْ يحتاجون ترجمته الدقيقة لعلاقات دولة نهاراً، وترجمته الحافظة لأسرارهم ليلاً في عُري (ملهى الملك رينيه) خارج باريس.

***

ماتيلد ستضع السكّين والشوكة بطريقة ستكشف الرضا عن طبق المدخل، وسأختاره مثلها. سيتكَوّن من كبد البط مع قطعة من التوست

وقليل من مربّى التوت. في انتظار الطبق الرئيس هي ستستمع لسرد عمّها الحليم في الحديث عن حضارة الأندلس. لن يتحدّث عن الموسيقي زِريَاب[1] مؤسس تتابع الأطباق على المائدة، ولاحقاً ستحترم ماتيلد أنّ له الفضل في خُلُق الأكل وانضباط أناقة المرأة. أنا سأُفتّش عن عينيّها وهي تجد في امتدادي ازدهاراً ما. سأتذكّر مدينة «بُواتييه»، جنوب باريس، وعلى أرضها بلاط الشهداء. هناك قبر آخر عربي يُحارب أُوروبا باسم الأندلس. مدافن معلومة الأسماء لن يمسّها عبث. هذا شيء من البكائيات.

إن تتقدّم بي الأيام معها، وأرجوها تطول، ستعرف ماتيلد حصارنا للتاريخ وانتظارنا لصحوة البطولات. سأتحدّث عن حرصنا على التسامح، وستُثني هي على دماثة الروح عند الخيّاط «رُوهان الكردي» المعروف بجواره الحسن لمتجر شوكولا «برُوج» على ناصية «كُومّيرس» إلى جهة الكنيسة. ففي مناسبة قد تأتي، الكردي سيشرح لها أنّ الشعوب المستضعفة تحتفظ بلغتها وغنائها وحبّها، لكنّها لا تتمسّك بالحقد، فالأرض الحقيقية تُساعدها على التصالح. هل أستشهد بالغجر ليغضب؟!. «رُوهان» قد يُلمح أنّه يحق له أن يستثني الجزّار الصقلي من

(1) ـ **كميل يُورد شكوكاً كثيرة حول هذا الموسيقي: يُحوّل معرفة طلال إلى وجهة** مُغايرة عندما يذكر أنّ (الباحثين لا يُؤكّدون ما يذهب إليه أغلب مُناصري حركة الفنون في الأندلس ويضعون زِريَاب في مرتبة عُليا ودونه أساتذة الفن من تلك الحقبة). في تلك الجغرافيا زِريَاب يستقى اشتغاله على الفنون من تراث (الوندال، البربر، العرب). هذا يدفع كميل إلى مراجعة كتابات مُضَللة حول دخول القائد (طارق بن زياد) للأندلس أول مرة، فالصورة الأُخرى من التاريخ تنقل أنّ (طريف بن مالك هو مَنْ يتفق مع البحّارين ليفتحوا موانئ شمال البحر، ثم تأتي القصّة بما يلحقها من أحداث). **لن يتوقف كميل عند هذا، ويُسمّي (سيد درويش) كأحد الناقلين للموسيقى العراقية ويُقدّمها في قالب آخر بصفته المجدد القادم من أرض الكنانة (مصر).**

حبّه للجميع. عليها أن تتعهد بنشر هذا البيان من رجل اسمه بالكردية يعني «وعد». وفي «بُواتييه» سألتقي بمرشد السُمير. أحد الحاضرين لمناقشة دكتوراه في القانون لطالب من بلادنا، وتجمعنا المناسبة ذاتها. عند هذا اللقاء سأتأكّد أنّ الحقد لا يُقتطع من العمر بسهولة. شخصيّة تدعوك إلى تأجيل المنغّصات، فيوم الغد لها وسيكون الوقت مناسباً للتخفيف منها. شخصيّة ستُعلّم الأشجار كيف يكون الظلّ رحيماً بي عند التعب. تلك المدينة لن تحتفظ بأسماء خالدة وحسب؛ بل وستحتفظ باللقاء كوثيقة لأنبَل ما يعيش أبداً. هذا الحظّ في شخص نقيّ، يتطلّب أن يظهر بعده الأستاذ توفيق سلّومي أمام ميدان «فيكتور هيقو»؛ ليبدو أكثر تماسكاً. أظنّ أنّه سيتحدّث عن شيء ما يتعلّق بكتابة على «أرض مشتركة» ويفرح.. يضحك بتساؤل: «أين هي تلك الأرض؟». لا تُرافقه غير الروح السليمة جدّاً. لن يُثير الكثير حول اشتراكه مع صديق عميق في تأليف كتاب عن صدع يُهلك شرقهما العربي. أُفكّر أن يلتقيه أبو سُمير، ولكنّه يختفي التزاماً بعادة الرجل النادر ظهوره.

***

بعد الغداء، إيقرِك سيُحرّك يدَيْه كما لو أنّه المتحدّث. يُقدّم معونة بالإشارة، وهو، في جميع الوقت، يُكرم سيرة العرب على أرض إسبانيا. لن يذكر شيئاً عن محاكم التفتيش، فـ«الموريسكيون» وأستحضرهم، ليس لأنّهم يتخلّصون من الحقد وحسب؛ وإنّما يتخلّص منهم المكان ابتداءً. ستكون لكفّيه حركات دالّة وصريحة تذكّرني بصفاء النهار. نظيفة كأنّها تصون زهرة الحرير. سأجلس في حماسة أقلّ كي لا يلحظ تحفّزي إلى المجادلة. ستصنع ماتيلد الكثير من الحاجة داخلي؛ بل ستبعث سنوات الخسارة. إيقرِك سيقطّب حاجبيه متسائلاً بتعجّب: «ما علاقة الأكراد بالعرب...»، ماتيلد لن تتكفّل بإجابة ولا أنا، فهي ستدسّ إليّ

أنّه أحياناً يبدأ الحديث عن التاريخ بما يستنهض اهتمامك، كسؤاله هذا. ستُناصر ماتيلد حاجته لذكر ما لدَيْه عن هذا الشعب الواقف منذ أربعمئة عام ولا تخترق لغته أيّ كلمة دخيلة.

«فوق بلاد الأكراد.. الطائرات ستدكّ الحجر فقط، بينما الإنسان يبقى فوق أرض الأكراد»، وسيتدارك العم كميل فحوى عبارتي. سيعود إلى بداية القرن العشرين. ثورات تلوح أمام المدّ البريطاني، فيبزغ أُفق وطن محتمل للأكراد وسيخبو، وبريطانيا بالقنابل تقترح الخرائط، ولن يستطيع أحد على لغة الحنين والغناء في حناجر هذا الشعب.. بينما الجوار سيتشكّل وفق رغبة بنادق أجنبية. لن أكون متحذلقاً إلى درجة أن أذكر الانتداب الفرنسي واقتسام المنطقة بطعم الكذبة من لسان القيصر الروسي. لن أكون بحاجة إلى شروح العم كميل عن وصايا المستعمر في أن يحكم «الهلال الخصيب» رجل من أقليّة ولا يرحم، رجل يعرف أنّه لو يسقط سيسقط لمرّة واحدة وللأبد، ويُجيد صناعة تحالفاته.

> ما لا يحدث أمامك من التاريخ سينقصه ما تصنعه أنت، فكلّ الحقائق القادمة من الزمن تفرض الإذعان، وإن تصل مجتزأة وقابلة لاحتمالات أُخرى. هذه هي وقائع التاريخ حين تُقَدِّم للبشرية التالية نتائج خالصة للتطبيق. نتائج لم تخض أنت معملها ولا يعنيها جدل المرحلة ولا مطلب الحاجة. عليك أن تمتثل للأسلاف فقط.

سيكون حديث العم كميل شاملاً لكلّ ما سنتجاذبه من صور «سايكس ـ بيكو» قديمها وحديثها، بينما سيُؤكّد إيقرِك أنّ العرب يُحْدِثُون نضوجاً في أول تشكّل لبلدانهم الحديثة قبل أن يضمحل كلّ شيء. من جهته العم كميل سيُقزم النهضة العربية لتَعارض تطلّعات الشعوب مع أجنّدة القادة.

في العمل السياسي عليك ألّا تقول الكلمات ذاتها في أيّ مناسبة، بل كرر المعنى ذاته ولكن بكلمات أُخرى، فعندها ينبري المحللون على العبارات الجديدة ولا يُلاحظون القصد إطلاقاً.. هذا ما يُعطي الأزمات صفة الدوام.

إنّها محاولة من إيقرِك لحلحلة موقف كميل حين يقدح في السياسيين بأنّهم حفنة من الكذبة، ولا يُغيّر رأيه مهما يزيد من الحجج. إنّه يتذكّر خداع الفرنسيين والبريطانيين للسوريين والعرب، في قرنَيْن سابقَين تقريباً، وهم يقتسمون طينهم بمفاهيم يجهلونها عن تحصين البلدان وحمايتها.

وجود طلال يفرض عليهم توجّهاً ما في استشراف منحنى النقاش. مثلاً يستشهد إيقرِك بتكوين (العربية السعودية)، كما ينطقها بالفرنسية، فابِن سعود في أول الأمر لا يُحالف أحداً في الحرب الثانية للعالم، لكن عندما يصله أنّ تشرشل يرقص في غرب لندن بينما شرقها يُدَكّ بطائرات ألمانية، عندها يعرف أنّ أميركا تدخل الحرب بفاتورة كاملة تدفعها اليابان. هناك يعي ابِن سعود أنّها هي الدولة العظمى بلا منازع وتكون حليفة بلده الحديث طيلة القرن العشرين ويزيد.

يُنصت كميل لهكذا تحليل عن تبديل الثابت في خضم الصراعات. يستدلّ بموقف بريطانيا فيما بعد، ولا نازع لها سوى امتياز النفط حين يتحوّل لغيرها. يخشى طلال أن يُلمّحوا إلى أفكار عن بناء بلده بالبارود البريطاني. هذا يدعو لنقاش أوسع يُحاول إثارته كميل لينتهي بتعليق إيقرِك: هل البريطاني فِيلبي يذكر شيئاً من هذا؟.

بحماسة يُجنّد طلال فكرة ليردّ أنّ فِيلبي لم يُدوّن أيّ شيء؛ بل يرفض محاولات الآخرين في آخر سنواته ليكتب مذكراته عن ابِن سعود وفق ما يعتقدونه عن هذا (الملك المؤسس).

لا يخوض كثيراً طلال في هذا المثال؛ لكنّه يُفضّل الإجابة؛

وكي لا يذهب الجميع في أكثر مما قد يسمع. واجبه أن يُمثّل بلده. كميل بهدوء استماعه يُظهر قبوله بأنّ ابن سعود يُجيد متطلبات المرحلة لتوحيد مملكته، ففي فترة فاصلة، من تاريخ جزيرة العرب، يُقدّم دوره ويذهب.

لا يروق لطلال أن يُمرّر كثير حديث يصدمه بخلوّه من مواقع الدفاع وفك أسره من تُهم ليست مطروحة ويتوقعها. يدحض شكوكاً حول تكوين بلده، فالإنجليز لم يتوقفوا يوماً عن منافسة الحليف الجديد (أميركا)، ولو بأسف على امتياز النفط. ولو باعتراف قاسٍ أنّ شمس امتدادهم تغرب قبل أرض جزيرة العرب. إنّهم في شأن من مواقف كثيرة ضدّ العربية السعودية؛ مما يُنافي دعمهم لقيامها، ما لم يكن تغير الظرف يستدعي اختلاف الصور وتبدّل المواقف.

***

خلال الوقت المحدد لانتظار إيقرِك في بهو الفندق.. ستكون هناك طاولات غفيرة بمجتمع رُقيّه واضح، وشخصياته ذات باع طويل فيما تفرضه هذه الأماكن من انضباط وهدوء صارم.

لن تُحدث إطلالة «شيراك» أثر اهتمام بشخصيّة مرموقة ـ رئيس فرنسا الأسبق ـ إذ سيدخل كأيّ مدعو لتناول الغداء مع أصدقاء. سيأخذ مكانه في طاولة تضمّ عدداً يقلّ عن ستة أشخاص. بالطبع ستحتضنه كبيرة النّادلين بطريقة تنمّ عن موهبة تعامل لن تنقصها شيمة التقدير لمعرفة عالية. ستنزع له معطفه الموشّى بالدفء. سيتوسط الطاولة على أريكة لشخصَيْن، ولربطة عنقه اللّيلكية استقامة لافتة ستُظهر طوله الفارع في بزّة فاخرة رغم الانحناء أثناء سيره. ماتيلد لن تُعره غير نظرة صغيرة ولامعة بذاكرة تجمعها من فاهَيْ عمّها ووالدها.

سيكون الجميع في سيل خافت من الهمهمات الخاصّة، كما هو الحال

معها. إن يصل إيفِرك سيُحدّثنا، فور معرفته بوجود «شيراك»، عن صديق له، يُعدّ علامة في النزاهة، ويُساعده هذا الرئيس ـ وهو عمدة لباريس ـ؛ بوظيفة يستحقّها. لن يعرف «شيراك» أنّه بعد تركه لقصر الإليزيه سيُحاكم بتهمة استغلال منصبه القديم لتوظيف أحدهم. الصديق الشاب نفسه[1] يستقطبه «مِيتِرَان» للعمل في القصر، ويتمكّن من شراء شقة بمساعدة برنامج حكومي متاح للجميع. ستطفر عين إيفِرك بدمعة. سيتذكّر نهاية الشاب النظيف. في اليوم التالي أغلب الشعب الفرنسي سيُكرر عبارة «مِيتِرَان»: «إنّهم الكلاب...»، يعني الصحفيين، وهو يُعلّق غاضباً على انتحار شخص يُتهمُ في نزاهته بأنّ منصبه يُمكّنه من امتلاك شقة!.

اشتراطات وطنيّة

لا يتخلّص طلال من تذكّر قصّة جارحة لرجل فرنسي ينتحر. في مستقبل الوقت قد يطّلع على تجربة كاملة تمسّ بلده؛ فيما لو تُفتّش يوماً ماتيلد في شبكة الأنترنت عن أنجع الطرق لمكافحة الفساد العام. يحدث هذا تنفيذاً لمشروع بحثي لمعهد دراستها، وتجد أنّ في بلده مؤسسة حكومية بأكملها تسعى لنشر النزاهة. هناك يتدارك لها طلال شروحات شبه عمليّة. هي تستوضح منه عن الجدوى في وجود جهاز للنزاهة. من متممات التوضيح التأكيد لها أنّه لم ينتحر أحدٌ بعد من رعايا بلده بسبب الفساد، كما يفعل مواطنها الفرنسي لمجرد اتهام باطل؛ أيضاً تمنعهم حرمة الانتحار في مكوّنهم الثقافي. وعلى توضيحه من

(1) ـ **تقديراً لذكرى (مُنا) المناصر للحياة البكر والفقراء، يُضيف كميل رواية أُخرى:** الشخص صاحب القصّة الحزينة، والمطعون في نزاهته يشغل منصب رئيس الوزراء، هو بيير بَرَقوڤوا (Pierre Bérégovoy)، أو صديق العُمّال.

ـ **شرط الأمانة يفرض أن نُوثّق فضل هذه الإضافة:** السيد خطّاب هو مَنْ يحرص على هذا التصويب فمن غير الأخلاقي أن ترد هذه السيرة الأليمة دون إرجاع الذكر الحسن لأهله، ولو بتسجيل أسمائهم الحقيقية، كما يرى.

الطبيعي أن تبتسم وتقول: الفضيلة ممتدّة لدرجة أنّها تُنجب لها مؤسسات لتُوثق علاقتكم بها!.

لاحقاً ينتهي بحثها إلى مقترحات تستشرف المخارج من معوقات قائمة في اقتصاديات الشرق الأوسط. وأنّ مكافحة الفساد (كنتيجة في بحثها) تصير من محسّنات الصورة لتلك الدول، لا أكثر، أمام الهيئات الدولية.

يتوقف عند هذا الحدث، ربما، في نقاشه مع إيڤرِك حول تأسيس عدالة يرى هذا الأخير أنّها لا تتأتّى بتعاليم مغلقة رافضة لكلّ قراءة عصريّة، أو تسويق الطمأنينة. هنا يعرف طلال أنّه يعني سلطة الدّين. يسأله إيڤرِك عن مخاوفهم الكُبرى؛ مشيراً بهذا إلى ويلات تُعاني منها أُوروبا ولا تُريد تجربة مماثلة. الشعوب لا تنسى لكنّها تُضيف تجربتها نحو الغد. يعترض طلال أن تكون رائحة البارود وسلطة الرصاص شرط لازم لتحقيق العدالة، ولكن السؤال (هل لدَيْهم تلك المخاوف؟) يضعه أمام حقيقة أنّ وفرة يعيشونها في الخليج تُؤجّل الوعي بوجود (المخاوف الكُبرى).

***

لو أتمسّك بعبارة «الشعوب لا تنسى»، خاصّة بعد الخراب الثاني للعالم، ستنتبه ماتيلد لمداخلتي عن زيارة المستشار الألماني لنصب الجندي المجهول في باريس، أو متى يحلّ أحد كبار ألمانيا ضيفاً على فرنسا. هذه الزيارة مجدولة لأيّ وفد ألماني. لن يترك العم كميل الردّ على إيڤرِك: «تلك الجراح ستبقى بلا تعويض.. هذه الزيارة المستمرة تُؤكّد أنّه ما يزال في النفس شيء».

من أيّ فكرة عميقة سيطول نقاش ويستحق، فالحديث عن «المخاوف الكُبرى» تحتاج وعياً بحسب إيڤرِك. لا يأتي الوعي نتيجة صفعة حدث؛ بل بتراكم المراس للدول. توثقاً بهذه الفكرة يستشهد العم كميل باجتماع

كبار ألمانيا في الجزائر لإعمار بلادهم إثر سقوطها بنهاية الحرب. من هناك يبدأون إعادة هيكلة التعليم. إمبراطور اليابان، أو باسمه الأعمق دلالة «سيادة السماء»، يُذعن له جميع جنرالاته: «أنا مهزوم مثلكم.. من هذه اللحظة لا تبحثوا عن الانتصار خارج بلادكم، من الآن أوجدوه داخلها». لن يتطلّب الحال من العم كميل أن يستشهد بالمركز الثقافي الياباني. مبنى من البلّور يُناهض بسطوة بريقه أيّ تحفة فنية على رصيف «كِيبرانلي» وبعد برج «إيفل». لن يكون الوقت أكثر خنقاً لي، إلى درجة أن يتحدّث عن مقرّ عملنا ـ جزء من قصر مهجور وأغلبه محترق ـ ويتذكّر أنّ ركناً منه عبارة عن دورة مياه قبل تحويلها إلى مكتب لأحد الزملاء ويُقدّم خدمات لمراجعين!.

يعود إيقرِك ليرى أنّ القوّة هي الحق. سيزيد العم كميل في نجاعتها إن يستعرض بطش قوات التحالف في حروب العالم. بالعودة إلى تقسيم الخرائط في بداية القرن العشرين. وفقاً لرؤية الصحبة في الجلسة، سأُعلّق: «إن يصنع ساسة الدول المتقدّمة الحقيقة، فمَنْ سيخلق لهذه الحقيقة المؤمنين بها». لن يتردد إيقرِك: «القوّة كفيلة بصناعة أيّ شكل من أشكال الإيمان.. مثلاً لدَيْكم قوّة الروح، قيم إسلامية عروبية، أيّاً يكن». «ولكنّ العرب أبعد من أن يستغلّوا قدراتهم»، هذا صوت العم كميل بصلافته الناعمة، ولن يتوقف: «يجمعون كلّ شيء ويُضيعون كلّ شيء.. إنّه لُورْكَا يصفهم». سيخسف بي إن أتحرك بدافع التمثيل الأمثل لبلادي وأُذكّره بجامعة الدول العربية، أو برابطة العالم الإسلامي. سيقول: «أنتم لم تتمكّنوا حتّى من تأمين البديل..». سيعني على مستوى التحالفات. لا، سيعني ربما على مستوى الرجل القوي «رفيق الحريري» مثلاً، بعد اغتياله «يصعب على العربية السعودية إيجاد البديل». يقول العم كميل. تتضعضع موازنات كثيرة فيطول الفراغ الرئاسي في لبنان. سيستدرك إيقرِك ما هو

أبعد من حدود تفكيري: «صحيح.. يُضيعون الكثير. مثلاً خسارة إدوارد سعيد. بعد أُوسلو مَنْ سيُبرّر عزلته سواه؟!». إذن العرب لن يستطيعوا صناعة أسلحتهم، قوّتهم؛ بل حقيقتهم الواحدة. الأستاذ توفيق سلّومي لا يرى أُفقاً صالحاً للمقاومة. يحرص على أن تصلني عبارة «أيّ كيان، أو مكوّن يقوم على عقيدة قطعية، هو المواجهة الدائمة». هل يعني دُوَلاً تقوم على عقيدة دينية مثلاً. أحيد عن الفكرة وأُفكّر بالعجز في رفع العَلَمِ على أرض فلسطين؟. يُثير هذا حين يظهر ذات مرّة أمام مقهى «لا روتندي». يسير على امتداد طريق «مونبارناس». أتصادف معه وهو يُحاكم الوقت في كيده له. لن أغفل عن فكرته «إسرائيل تعمل دون توقف على إسقاط الخيارَيْن، السلم والحرب معاً». لوحة التكعيبي «بيكاسو»، واسمها «في مقهى لا روتندي»، قد تُنسيني استعادة تفاصيل اللقاء بالأستاذ توفيق هناك. المثقف الملتزم لن يغضب من عربي يهرب من عجزه إلى قراءة لوحة تُمثّل مرحلة انقلابية في عمر الفنون. مرحلة لا تعني ولد السالم على الإطلاق. الأستاذ توفيق سيتأكّد من أنّ لدَيّ الرغبة في تأييد مفهوم «القوّة وسيلة التغيير». سأطلبه أن يأخذني إلى شعلة الستينيات، وحينها لن أؤمن بشعار اليسار فقط؛ بل وسأكون رفيقاً بجودة فدائي. يضحك لأنّه يعرف تمسّك الحياة بي، وعليه أن يعرف أنّني من جيل يوُلد علامةً على هزيمة الأبّ والبندقية. وقد يبتسم لو يعلم أنّ السيد خطّاب، في فرانكفورت، لا يرى من الفطنة الوقوف أمام فنان يرسم «قيفارا». الحسّ الأمني هو السور الوحيد لتصرفاتي كموظف دبلوماسي. أتردد ولن أشتري الصورة. الأستاذ توفيق لا يزال موثوقاً بوتد الكلمة الأُولى دون تراخي. لم يكن بحاجة للحديث عن الزمن القادر على معالجة الحدّة. التنازل قليلاً يفرضه تقدّم العمر. الأحزان الشخصيّة أكثر مواطنة للجسد، وأكثر انتماء من أولويات الأمس. عيناه تفيان لي بكلّ هذا، قبل أن يُغادر

المقهى ويتركني للوحة. تُعلّمني باريس أنّ الفن ما لا يُتّفق عليه جمالياً بشكل جمعي. أقول هذا لأُبرر اختلاف أدوات التلقّي لدى مَنْ يُنازعني في هذا الإبداع مثلاً.

وهج مرحلة..

السياسة يطول أذاها اللازم. يعود إلى فراشه. يُفكّر أنّ العرب قاصرون عن أدوات الاختراق. لا يجدون أصواتاً كبيرة في الدول القائدة.

لم يُذكر المفكّر الفلسطيني (الأميركي) إدوارد سعيد اعتباطاً. لو أنّ صوته مسموع لدَيْهم ويدعمونه حتّى يقود قضيتهم. لماذا لم تعمل أجهزتهم على الكونغرس الأميركي أو الكرملين مثلاً؟!. ماذا سيُكلّفهم لو يدعمون أيّ عربي بجنسية دولة مهيمنة حتّى يكون له الشأن. يتساءل طلال ويتذكّر رجال المراحل في بلده. يستحضر بدلاءهم.

يعرض تحوّلات دقيقة عن وزير خارجية بلده (أمير القامة). يصفه هكذا. يراه يُهندس الموازنات. يشتغل على فرص التسويات بمراس الجدير الثابت. يُسافر كأنّه لا يعود، ولبلدان العرب (من الماء إلى الماء) يعيش مُجَدْوَل الهاجس دون توقف. يصل مطار كنيدي لأنّ العراق يجوع، فيما رحلته القادمة باتجاه الخرطوم لحمل فكرة عن صَوْن دارفور. يُسافر من فاس المغرب، لسنوات بسلام الملك للشرق (العربي، العربي)، وحين يكون ذات مرّة في لندن المشغولة بجزر الفوكلاند تكون حقيبته خفيفة الظلّ أمام المرأة الحديديّة (مارغريت تاتشر). وتشرح، في يوم آخر، متانة الودّ مع كارلوس منعم (رئيس الأرجنتين). لا يتوقف هذا الوزير عن زيارة (آل بُوتُو) وعسكر السلاح الصديق في إسلام آباد، ولا عن بكّين ماو وأفكار التحديث والهند القادمة، ولا تكون مساهمات بلده أقلّ من اليابان لإعمار أفغانستان. يتحرك من مفاوضات (أيلول الأسود) في الإردن، ومن الكويت

لتخليص دبلوماسيي بلده المخطوفين من باريس 1972م.

الحقيبة الدبلوماسية تقود التوازنات بين الأضداد. وتتناسل المخاوف. يتساءل: أين هي الآن تلك المرحلة الفاخرة؟!. أين مَنْ يتحدّث في كلّ قضية، من مسلمي البلقان وحتّى إنسان الإنكا، من أسى سراييفو إلى مانديلا أفريقيا؟!.

يُفكّر.. لم تكن الحدود سوى تفاصيل في المعركة. وتتناسل المخاوف. الحنين إلى مرحلة الشجعان يتورّم في صدر طلال. يتورّط في ذكرى بنادق الصومال. البنادق لا تتآخى.

يا تُرى مَنْ البديل؟!.

يسأل طلال. يعود إلى هلع من غد: كلّ هذا النضال الهادئ ينتهي.. هذا الركض يتوقف!.

يُفتّش عن أيّ عربي، عن أوطانه. يتذكّر كميل عميقاً عن الشاعر الإسباني لُورْكَا:

(أنا من العرق العربي

الصديق القديم للشمس

الذي وجد كلّ شيء

وضيّعه).

***

«الإسلام يمتدّ جغرافياً، لكنّه لم يُؤسس فكراً مفتوحاً». هكذا سيُوضّح إيقرِك، بينما العم كميل سيقول: «النصوص يحفظونها جامدة لتبرير سلطتهم.. النظرية عادة تُلبّي القليل من الشغف بالتجربة وتبرير الأخطاء». من دواعي استمرار النقاش أن يستعرضوا القيمة العُليا المضافة من المفكّر محمد أركون. يفتح في أرض التنوير باباً واسعاً على قابلية الإسلام للتحوّلات، بعد إعمال التفكيك في المعتقدات.

المواجهة المتوقَّعة، أن أتساءل أيّ بطولات تخصّنا وسأُعددها في

مقابل تجاربهم لأجل بلادهم. مواقف طويلة يُمكن سردها عن بلادي. هنا مَنْ سيهتمّ بتاريخها؟!.

تاريخ آخر..

ليس بالضرورة أن تكون هناك مناسبة ليتحدّث طلال عن مناصرة بلده لثورة الجزائر من فجر انطلاقها؛ تحديداً مع مطلع الخمسينيات. العربية السعودية تُخصّص ميزانية لحكومة الاستقلال، وتُسمّي الحج عام 1957م (حجّ الجزائر). تأصيلاً للموقف على إيقرِك ألّا يُقلل من نجاعة الجانب الإسلامي في تحريك الكثير من القضايا، ولكنّه، على مسمع كميل، عليه أن يميل بضحكة على طلال قائلاً له: ويُردّدون عنّا نحن الفرنسيون أنّنا ندخل الحرم المكي لدحر حركيين يقتحمونه في نوفمبر عام 1979م.

لفتة مناصرة أيضاً لا تُنفي تبادل المصالح، كما يُعلّق كميل. طلال يبتسم بممازحة: مؤكّد أنّ الدعم لوجستي فقط ووفق شِرعة الإسلام (كما يشترط مارك المسلم).

تظهر لشخصه المنصت ابتسامة مصدرها عميق؛ ليتحوّل كميل إلى ذاكرته. يتحدّث عن مضمار طويل بين العربية السعودية وفرنسا؛ فمتى تُعوّل الأخيرة على (ثورة الخميني) لتحظى بعقود النفط، وتمر سنوات قطيعة، تبدأ بتسمية فرنسا بالشيطان الأصغر. سنوات تتخللها عمليات اغتيال لمعارضين إيرانيين يُقيمون في باريس، ويُسمّي إيقرِك اثنَين منهم، ولا يتذكّرهما طلال. فيما بعد يلتفت الفرنسيون إلى الخليج. ذات مرّة يُعاتبون وزير البترول السعودي في قصر الإليزيه أنّ بلده يكتفي بحلفاء محددين بينما دول أوروبية تعرض صداقتها. هنا لا يُشير أحد إلى القطيعة مع فرنسا إثر اشتراكها في حلف ثلاثي ضدّ مصر، ولا إلى موقف رئيسها (رينيه كوتي) القاسي من مناصرة العربية السعودية لشعب الجزائر. الوزير يعي

أنّهم في مسعى مشروع للحصول على حصّة من البترول؛ لذا بهدوء وحميمية يردّ عليهم عتابهم: أنا لدَيّ تفويض من الملك بالتنازل عن النفط. الآن أكتب امتياز ملكيته لهذا القصر، ولكن في المقابل نحتاج هديّة صغيرة. تنازلوا لنا عن متحف اللُّوُفّر ومكتبة الفاتيكان.

عملاً بمقولة إيڤرك أنّ باريس كالعار، فهي لا تُقدّم هذا المتحف، ويُسمّيه طلال (زهرة الأزمنة)، كهديّة، أمّا مكتبة الفاتيكان فهي باقية لا تُمَسّ تحت أيّ ظرف وإن تعود القارة العجوز إلى زمن ظلامها.

***

وفي الأيام المُشتَهاة، ليتها تكون..

إيڤرك، قبل كثير حكايا، سيقول: «في العشرين من عمري وحتّى ما بعد الخمسين، أيّ فتاة تقترب منّي لتسألني عن الساعة أعلم أنّها لا تُريد معرفة الوقت بل تُريد أن تتعرّف عليّ، أمّا الآن فأيّ فتاة تسألني عن الساعة أعرف جيّداً أنّها تحتاج معرفة الوقت بالفعل وأنّ لدَيْها حتماً موعداً مع شخص ما». سأضحك ناظراً أولاً لندفة الحياة في وجه ماتيلد ثمّ لوجهه المريح وسأقول: «كان عليك ألّا تحمل ساعة طيلة هذا المشوار». سيردّ بنَفَس حديقة: «بل عليّ ألّا أكبر ومعي كلّ هذه القبلات...». ستُباشر الفتاة وقيعة به: «إذن ظاهرة الطول الزائد تلتصق بالنساء الكبيرات». سنضحك بفخر على نباهة بهجة جلستنا، هي ماتيلد. ستعني أنّ الكبيرات ينضجن بلا عافية قبلاته؛ ليستغلّ الفكرة. سيُجيّر المسألة لحرب صغيرة، ويبدأها: «النضج لا علاقة له بالقلب.. النضج الشائع بينكنّ حالياً سببه مناهضة فزعَكنّ من الشباب». لن أستثني نفسي من هذه القاعدة، فماتيلد ستثب لمواجهته: «مَنْ يقول إنّنا في مهب انتظارهم.. على الطرقات متلهفات؟!»، سيحتدّ ظاهراً: «الفتيات تنوشهنّ نسمة الكلمات الجميلة»، وهنا سأذكر لأُمّنا الجنوبية «الهاجرية» مثلها الشعبي: «المرأة كالباب

المردود.. أيّ ريح تفتحه». عليه أن يسمع منّي هذا ليضحك ويفتح ذراعَيْه لفتاتنا الصغيرة، فتدخل طوقهما مثل نرجس بريّ. سينظر إليّ لأقطفها منه ونذهب. سأُحدّق فيه برفض. نظرتي ستُخبره أنّ الأحضان لم تُجدوَل بعد بيننا، هي وأنا. عندها قد يفهم أنّ حدود التماس بيننا هو وريد الطريق كلّما نقطعه بشوك الخجل ورجفة الأشياء المشتَهاة داخلنا. المؤكّد أنّ الحضن سيُعَدّ قفزة كبيرة على عمر لقائنا. سأتبع هذه الفكرة بمجرد أن يحتضنها إيقرِك، لتُودّعه، وليس لأنّها بالفعل تغضب. فهي تعرف مراوغاته، وأنّني سأتحيّن معركتهما عملاً بانتمائي لصفّه ورغبة في رؤية ندى الحياء وما يعقبه من اشتعال أتمنّى تمكّنه منّي.

«أحتاج أن أمدّ كفّيَّ لعناقك بما يفوق التصوّر، لكن أخجل عندما أتذكّر أنّ ليس لذراعَيَّ مسافة كون وليس لصدري عمق محيط». رسالة منّي ستصلها إن أُراهن على كبير أمل في إتمام بِنِ يزن لترجمتها؛ ما لم تمت جدّته مجدَّداً، كما سيأتي. على أيّ حال لن أُفرّط في ملمس سترة ميّاسة تفوح بعطر الورد البلغاري ـ مع الباتشُوُل من مودرين موس ـ متى نُواجه باباً وسأفتحه لها. سأمدّ لها ذراعي الأقرب عند صعود الدرج أو نزوله.. في الحالتَيْن سأتقدّمها بالطبع. هذا إن يحدث وتُعلّمني سلوكيات باريس، منها آداب السير برفقة فتاة، شريطة ألّا تحدّ من عطر ماتيلد سماء، وألّا أبتسم من تعليق صديقة تغيب | **عاشق أحمق لا يستطيع إخفاء عطرها في ياقة قميصه |**.

سيراً ستقطع بي ميدان اللُّوُفْر نحو جسر الفنون المدجَّج بأقفال العُشّاق ومفاتيحها تغوص في نهر السّينّ معززة بقبل مثل وديعة أبديّة. لن يدوم وقوفنا كثيراً حتّى تُخبرني أن بلدية باريس تنوي إعدام علامات الحبّ هذه. ستقصّ جميع تلك الأقفال لما يُسببه كمّها الهائل من خطر على الجسر. إن تتذكّر عَرْضَاً أفضل سنعود أدراجنا إلى محاذاة بلدية باريس. إلى الجوار قد نُشاهد «شجرة العدالة» البديلة؛ فالأصل تنزعها الثورة لمدّ المدافع بالدواليب. سنتحمّس إلى نهارٍ مرض. لا بدّ أنّني سأصل معها

إلى «شاتليه ليهال». وستُجنّبني في «سان دُوني»، ضاحية باريس، حشد سيدات من وعثاء الزينة وبقايا المديح لعامر صُبيح. هناك يقفن على أبواب هزيلة تبيع الاختباء وشبعاً على عجل. سنتقدّم إلى ميدان «جورج بومبيدو» ـ Place Georges-Pompidou ـ.

إن أصل معها حتّى تلك الناحية سيكون النّهار بهيّاً. لا شك أنّ جولة برائحة ساحة «الباستيل» ـ Place de la Bastille ـ على وشك الفوح. هناك ستختار مقهى المنارات ـ Café des Phares ـ ومنه يعبرون وسأعبر. لن أُخفي من قلبي الشعور ببطر السبق. هنا ألتقي «الأبّ الروحيّ» للحركة النقدية في تونس. رجل سبعيني وأكثر من ربيع؛ بل الرجل الحديث، والمرتبط بعنفوان الاستقلال. إنّه توفيق بكّار في هذا المقهى يشدّ على محاولاتي. من خاطف وقته يمنحني ساعتَيْن، ويذهب في شجون العرب. من سردياتهم المبثوثة للفتنة وحتى وحشتهم اليوم. سأعتقد أنّه لن يغفل حديثاً عن مواطنه «محمود المسعدي» وتساؤلاته عن الذات في «حدثنا أبو هريرة قال». اللقاء يطول بذكر عن شاب مغمور ويفتح كلّ الممكنات في الكتابة وهو على عمر مبكّر. لا شكّ أنّه يقصد توفيق سلّومي قبل خروجه من تونس ويكتب معهم في صحيفة تقدميّة. ماذا يُمكن أن يُخبرني به عن خصوصية تونس في المشهد؟!. ربما قد أُسجّل عنه متانة البنيّة للمثقف التونسي وليبقى لهم كلّ هذا الصمود. من جهة الودّ الآسر في هذا الرجل العلامة، ربما كلّ هذا لن يحدث لغيري مجدداً، وفي هذه الساحة تحديداً ومنها يذهب «سي توفيق».

هنا كلّ الحكايات عن سجن «الباستيل» وبطولات الثوّار على سور وحجارة تنتهي إلى مسرح ضخم ودار للسينما. عدد يُقارب العشرة أشخاص، وينالون من سِجّل عظيم، أنّهم ضحايا الملك وأنّهم مناضلو الشعب ويتمّ عِتقهم كأنّما أمّة بأكملها تنال حريتها.. هكذا تقوم الصورة ليقولوا: إنّها الثورة!.

في الجوار سيقوم سوق للفنون كلّ سبت، ومنه، بدافع تقدير موهبتها، أختار لزوجة بِن يزن لوحة من تشكيلات سكّين يعمدها الفنان في لوحته باشتغال لافت. موسيقيان يقفان في مرح الريح. تشعث بهما سَكْرَة اللحن. أحدهما يحمل «أُكورديون» لإتمام فضاء اللوحة بنغَم يتجوَّل. لون الشفق يشي بلحن حزين. أمّا الآخر فيمنع عن كمانه الريح وكأنّها تخطف موسيقاه. الكمان يشدّ وطناً بعيداً بنشيد وبياض يتشعب في اللون الفاصل. خطّ يتلاشى بين الأرض والبحر ومعجون خلف العازفَيْن بتجاعيد الموج. السيدة تبتهج بهديتي، وبِن يزن يُقلل من اللوحة قائلاً لها: «شخصان تحت وطأة الخمر يعبثان.. إنّهما في ضياع».

فيما لو أنّها تُقرر زيارة معهد العالم العربي[1] سيُكلّفنا من هناك سيراً بطعم الثقة. ماتيلد ستكون إلى جواري. الهواء سينشط بما يدعو إلى مزيد من فيض الرفقة المتألّقة. المعهد سيعلو مبناه بهندسة ذكية. وتستجيب لحاجته من الشمس فتحات تتبدّل زخرفاتها بدقّة عبقرية. يقوم المبنى على جانب نهر السّينّ، رصيف «سان برنارد»، وينشأ لربط الثقافتَيْن العربية والفرنسية. أصوات ترى أنّه يُنفذ برامجه بمعارف شخصيّة ومبادرات فردية. آخرون يُحمّل سفراء العرب التشوّه المكرر. يعكسون صورتهم. العم كميل يُوجز كلّ عصيّ في الجهد العربي ولو في معرض فني مشترك: «الثقافة العربية مخنثة»، فلا قيمة تُحدد أجندّتها أو ملامحها.

قبل هذا على ماتيلد أن تُواصل سيرنا من ساحة «الباستيل» قاطعين الكثير

---

(1) ـ التطلّع المأمول من أيام كهذه يتطلّب نسج تفاصيل شأنها الدقّة في تسيير امتداد الوقت. من قبيل هذه الدقّة أن يدخلا من الباب الأول للمعهد (Institut Du Monde Arabe) ـ لو يصطحب طلال ماتيلد إليه. على يمين المدخل تُوجد مكتبة أغلب محتوياتها من إصدارات المعهد وذات قيمة معرفيّة قديرة.. لكن يُفاجئ طلال أنّ اللغة العربية لن تكون أُمّاً للسان الكثير من العاملين هناك، بل وأغلبهم لا يعرفون كلمة واحدة منها!. بخلاف الحال في مكتبات عربية بالقرب من المعهد وتصطّف على الجانب الأيمن من شارع (Rue des Fossés Saint-Bernard).

من شارع «ليُون» إلى أن ندخل شارع «كخيمو» على جانبيْه بيوت صفراء وزرقاء. كأنّه لا يقع في وسط باريس؛ بل لم تمسّه أفكار المحافظ «هُوسمان»[1]. تعود لي ألوان بكثرة ساحل الأبيض المتوسط. دهشة كبيرة تستقبلني وتركض من اليونان أو موانئ مهجورة في قبرص. إنّها غير بعيد عن بيوت «مُنتُونْ». مقتل حميم إن تنظر ماتيلد إليّ وتسأل عن شمّاء. بيوت بألوان حكاياتي صفراء وبرتقالية ولها أطواق من الأزرق والأبيض. تُسور شبابيكها زركشات لا يُمكن أن تكون لغير مدينة ساحلية تحفل بالشمس.

***

إن نخرج من المعهد سأتحدّث لها عن أُغنية «المريود» السودانية في أسطوانة «نحيب الصحراء». باتجاه ساحة «سان ميشيل»، وبمحاذاة نهر السّينّ سنسير على رصيف «لا تُوُرنيل». سنعبر ساحة منتزه «جان الثالث والعشرون» فتظهر إلى اليمين «كاتدرائية نُوتردام». لن نتوقف قبل الوصول إلى الساحة المقصودة وسنقطعها لاختراق الحيّ اللّاتيني من بداية شارع «سان أندريه» للفنون. هنا سيأخذنا الوقت في مكان تُكوّنه عشرات الحانات ولا يخسر نصيبه من بهجة جيل فرنسا الجديد ويخضع لسطوة «الحلم الأميركي» بمقهى «ستار بكس».

عند نهاية البهجات المتراصّة من معارض فنية مختلفة، وأزياء لها

(1) ـ لا يهتمّ أبو سُمير أنّ (Georges-Eugène Haussmann 1809 ـ 1891) هو محافظ باريس ويُوجّه بإعادة هيكلة باريس وعلى سياسية هدفها الأول حماية (الحاكم) من الثورة. أبو سُمير يُسرّ في نفسه أنّ هذه الهندسة الحديثة تُؤدّي وفاء كثيراً إلى المقاهي والفرص، وأنّها تُيسر الطرقات بدلاً من التواءات شوارع باريس القديمة، كما تقول عنها الحكايات. عندّ ذكر هذا المحافظ هناك مَنْ يتأسّى على باريس العظيمة وترقد تحت باريس الحالية. باريس القديمة تُواجه مجازر باسم التحديث وإعادة تنظيم مبانيها وشوارعها بين عامي (1853 ـ 1927)، في عهد نابليون الثالث.
ـ بِن يزن يُبرر لطلال تعجّبه من وجود مثل هذا الشارع في باريس ولا يمتّ لروحها بشيء. يظهر كما لو أنّه منقول من مدينة ساحلية، مثله الكثير من آثار العالم.

خليط الثقافات، ومطاعم عجلة الاشتهاء، سنكون على استحضار (حركة مايو 1968م). لم تكن لها حاجة سوى اللحاق بموضة الرفض والاختلاف. هذه الأنحاء ستشهد انقلاباً على وهج الفكر والتعليم. الشباب يتتبع نزعات اليسار من الكاتب «ريجيس دوبريه» ومجلة «الراصد الجديد»، ويُشعل الفتيل في الصحافة الطالب «كون» ـ دانييل كُوهين ـ في سنوات لا ينقصهم شيء يُنادون بالعودة إلى طبيعة الحياة بعيداً عن باريس الجديدة. الأستاذ توفيق سلّومي، في إحدى مرّات ظهوره، لن يتوقف عند هذا الشرح. سيُعيد أمامي ما يعرفه عن المفكّر «ليفي سترَوس»، وهو يدعم المجتمع الفرنسي في الحفاظ على أصالته. يطلب من الفرنسيين تقبل القليل من المؤثرات الخارجية. في ضاحية «نانتير»، شَمَال غرب باريس، من كلية الآداب تبدأ الحركة ضدّ الجامعات وأساتذتها. تعطب باريس لمدّة شهر بإضراب كامل. تنقسم السوربون إلى ثلاث عشرة جامعة، ويتنازع الطلبة قوّة الحرم الجامعي مع الأساتذة. ستنطفئ النخبة ويتمّ وداع مرحلة عريقة من عمر الحيّ اللّاتيني. حينها ما موقف «سترَوس»؟!.

هنا، سنكون على مشارف السادسة مساء، وسنلتقي مفترقاً مع شارع «الكوميديا القديمة» ـ l’Ancienne Comédie ـ. ماتيلد ستهرب بي من زحام إن نتقدّم، وسنميل إلى اليسار كما لو أنّنا سنُواجه «مترو أُديون». ستتوقف بي أمام مطعم ومقهى «Le Procope». يسبق جميع مطاعم أُوروبا في العمر بثلاثمئة وخمسة وعشرين عاماً إن أُدقق في تاريخ إنشائه حينها. لن أُخبرها أنّ السيد خطّاب يدعوني مع ضيوف من بلادي في هذا المكان. يأتي الصديق الإعلامي عالي البيشي، وقبل أتململ أمامه من غياب غيثة أدعوه إلى هذا المطعم. يُدوّن في مذكرته تاريخ تأسيسه (1664م). إلى يسار المدخل تُوجد خوذة فاتح الصباح الكبير لجمهورية فرنسا الأُولى ـ نابليون ـ. ما إن يتقدّم الصديق للطابق الأول، بعد التأكّد من حجز موجود، حتّى يُقابل طاولة «فولتير». لا شك أنّه لن يقرأ عليها عبارة هذا المفكّر ضدّ

وزير القصر وهو يبيع نصف خيول الإسطبل الملكي لتغطية المصروفات اللازمة للترف؛ فيكتب: «بدلاً من بيع الخيول يجب على القصر أن يبيع نصف البغال العاملة فيه». يقصد مستشاري الملك. لاحقاً لن تُباع الخيول وحسب؛ بل وحتّى الرقاب، منها عنق الملك، ويتبعه عنق زوجته الغائبة عن جوع الشعب. إلى يسار الطاولة تُعلّق الرسالة الأخيرة للملكة «ماري انطوانيت» تُوجّهها لأطفالها قبل إعدامها، فيندم الشعب: «ما ذنبها؟!». ابنها في العاشرة يقتله السلّ داخل السجن. يتساءل البيشي: «خوذة الجمهورية، طاولة التنوير، رسالة بكاء.. أهذه فرنسا؟!». يزيد في تساؤلاته عن جدوى نشر الثقافة الفرنكوفونية. قبل عقود طويلة يتوقف التعليم الرسمي في بلادنا عن تعليم اللغة الفرنسية. بينما من الأحاديث الواردة في سير طويل كهذا، أعتقد ما ينقله لي السيد خطّاب، قبل عمله بالخارج، أنّه يتعاون مع مركز ذي سمعة جيّدة في تعليم هذه اللغة بمدينة «جدة». يلتحق بإحدى الدورات رجل يقطع منتصف الستينيات. رجل لم يعد حاله يسمح بأيّ إقبال على خطوة حاسمة. مقتدر ولا يحتاج الشهادة لشأن عمل أو لتحفيز العمر على حيويّة التجريب. يُثير فضول السيد خطّاب باهتمامه ومثابرته في الدورة. يسأله: «ما حاجتك بلغة أُخرى في هذا العمر؟». يُجيبه الرجل الستيني: «بحق أحتاج تعلّمها، لا لشيء أبداً، فقط لأنّ لي صاحبة تتحدّث مع صديقاتها بالفرنسية ولا أفهم ما يقلنه إطلاقاً.. لا بدّ أن أفهم كلامهنّ». فيما لو يبتسم البيشي من هذا الوطر المتأخر؛ ليُعزز كثير مفارقات يُسجّلها في مدونته، ستضحك ماتيلد مُطوَّلاً من القصّة؛ بل عليها أن تضحك حتّى يتوقف المساء قليلاً لفرحها.

هل ستُمازحني بقولها: «على الستيني أن يتعلّم مقولتك الوحيدة ـ تبقين معي طوال الليل ـ.. أم هي مخصصة فقط لِبن يزن!». لن تعني بأنّ هذه العبارة هي أظهر صور الثقافة الفرنكوفونية عند عربي عالق في التجربة. بطبيعة الحال، فيما لو تأتي ممازحتها بكلّ هذه السخرية ستحملني على الضحك بشدّة. فقط لو تأتي ممازحتها...

ماتيلد ستأسف أنّه يتعذّر استقبالنا لعدم وجود طاولة وتتّسع لزخم الآمال في المكان. السادسة مساء ستفيض بحماسة المحاولة لو نعود عبر طريق «سان جيرمان» صوب جهةٍ ما لن يطول الوقت لنصلها. سنُباشر اتجاهنا مروراً بمقهى «مُلتقى أُديون». هناك سيكون من اللازم الروحي أن أُعرّض بصانع الرواية الجديدة في فرنسا. في هذا المقهى، غير أنّني أُشاهد من خلف الزجاج فتاة عاشقة من بلادي؛ أيضاً أسمع عن «سِيلين»، المغضوب عليه، العائش في الصفعات، وعن روايته «سفر إلى أقاصي الليل». يصلني عن كتابه «سخافة الإنسانية»، ويُمرر هذه السخافة مفكّرو اليوم باقتدار. يرحل وهو مؤسس «حيويّة الكلام العادي» في الإبداع. بعد عداوة «اليسار الليبرالي» له، يقود الكثير إلى بساطة كتابته، مثال «سارتر، كامي[1]، دي بُوفوار». أن يكون الحديث عن أديب وطبيب فرنسي له اسم «سِيلين» فهذا يعني حديثاً كثيراً عن مناصرة ألمان ومعاداةٍ ما. لن أجرح ماتيلد إن أتذكّر مبنى استخبارات فرنسا، في الدائرة (15)، جوار ميدان، فيما يمضي من الزمن، يكون مضماراً لسباق الدراجات. قبل سنوات مريرة، يُعتّق هذا الميدان بذاكرة يهود إثر احتلال الألمان لباريس. المكان لاحقاً، وبعد تحرير فرنسا من الغزاة، يشهد حشد ثُوّار جزائريين فيه تمهيداً لغيابهم. العم كميل لن يُفوّت أن يُذكّر بمسجد باريس: «يحمي اليهود من الألمان 1940م. يُحرر لهم هويّات كمسلين». سيُسمّي جزائرياً في تلك المحنة، يُزوّر لليهود أوراق مرور ويُهرّبهم خارج باريس. أعتقد أنّ اسمه «سي قدور بن غبريت». ماتيلد ستفهم أنّني قد أقول: «يُخَلّد اليهود بلوحة شَرَفيّة في المكان ويُحيط بها عشب كملاك يحرس، بينما الأسماء الجزائرية لا يكاد يعرفها أحد». هل ذكري لمقرّ المخابرات له علاقة

---

(1) ـ هنا نستعيد تحفّظ كميل: ألبير كامي (Albert Camus) يتنقل بين ثقافتَيْن، وتتنازعه هويّتان، الأُولى (فرنسي، إسباني) والثانية (جزائري)، ولم يكن في اليسار ليبرالياً كما هو حال جون بول سارتر، وهذا لأسباب يأتي كشفها في موضع يتعلّق بمسألة الجزائر تحديداً.

بتصفية عالم الذّرة «يحيى المشدّ» في باريس (1980م)؟!.. لأُخلي البال، إنّها أبنية محصّنة بأسرار لا تحتفي بالسلام، على قدر ما تُخفيه من مقاتل وتعني قلباً عربياً يفقد همّه القومي. إنّه قلب يلوذ بشغف خاصّ. فيما يذهب بي الحديث إلى هذا الحدّ سنكون قاطعين طريق «سان ميشيل». أن أُباشر هذه المنغصّات في سيرنا، لن يُوقفني عنها إلّا النزول عند رغبة العاشق. إذن عليّ أن أتجنّب حسّ القومي ودواعي الانتقام المكثّفة؛ بل أمتثل لقول صديقة تغيب | للانتقام مزية.. يُخلق لِمَنْ يُولدون بلا غاية |. سأنحاز إلى طبيعة الأشياء. سأنقاد إلى صوت «مُنا» من روح العم كميل. يُحارب المكينة الحديثة. يُناهض تلوث الذائقة قبل انتهاك المدينة بآلات العصر. المسيح يُبرز إكليله من عطاء الأرض، و«مُنا» يسقي جسده بالورد في يدَيْه. طيلة النّهار يحمل الزهر في جيب جاكيته المعافى قليلاً، في شعر رأسه وذقنه. ينتمي إلى الصنعة الأُولى، إلى ندى الله. حينما ينعقد مجلس النواب في «قصر فرساي» كلّ الصحافة تحضر. الإعلام يتحدّث أنّ «مُنا» سيُشارك في مناقشات هامة، ولكن هل سيلحق الجلسات قادماً على درّاجته من باريس!. يُخبرني العم كميل أنّه يُقرر الحضور ليعرض على النواب مقترحاته. أولها تخفيض مدّة الحمل إلى ستة أشهر بدلاً من تسعة. والخامسة عشر من العمر هي حدّ سن التقاعد؛ حتّى يلحق الإنسان بمتع الحياة. ثمّ على أرباب العمل تقليل الصلوات في الكنائس لتحسين أُجور العمّال. تفنى جميع القطارات وجميع المركبات إن تنتظره، فهو لن يستخدم غير الدرّاجة الهوائية لعرض مقترحاته.

سأنتقل بها إلى حكايات العم كميل. يتحدّث مع مارتين عنّي بعيداً من «بتْشُوُن» منعاً لغيرته؛ إذ يرفض أيّ حديث بينهما عن غيره. يُخبرها أنّني أُحِبّ كعك جوز الهند، وتخرج لجلب بعض مشتريات تلزم لصنعه. الحقيقة أنّها لن تشتري فقط ما يجب. كعادتها تحمل ما يأتي على نظرها من إكسسوارات أو شرائط وتعليقات عطرية. تأخذ أيّ شيء شريطة أنّ لحجمه المساحة الكافية في صالة الاستقبال.. صالة لا يُوجد بها موطئ

قدم إن تسمح لصاحب القدم بالدخول غير العم كميل، وهذا لن يحدث وهي على قيد العيش. تعود تتبعها خشخشات أكياس لا حصر لها. ترميها في منتصف الشارع متى تُفاجأ بسيارة أحدهم تُقلّ زوجها وتُحاول التوقف.. تظنّ أنّ صاحبها قد ينزل ضيفاً عليهما. تهرع بلا وعي لتصرخ في صاحب السيارة: «لا يُوجد مكان.. لا يُوجد مكان»، تقصد عدم وجود موقف، والحقيقة أنّه لا يُوجد مكان لجلوسه في صالة حوّلتها إلى مستعمرة من أكياس على رباطها منذ شراء محتوياتها. هناك ميزانية لمشتريات تخصّها وتنتشر بالمئات من مدخل الشقة وحتّى غرفة نومهما.

ستستمع ماتيلد لهذه الحكاية، وأنقلها عن العم كميل وهو يضحك من خوف زوجته أن ينزل صاحب السيارة. يُهوّن عليها أنّ الرجل تكرّم بتوصيله فقط. ينسى أنّ «بِتْشُوُن» يركض بينها وبين أكياس ملقاة على رصيف الشارع. يسألها: «ماذا عن كعك طلال؟».. عندها يضجّ الشارع بجلبة «بِتْشُوُن» المحتجّ على أن تكون هذه الترتيبات لأجلي. ينهره العم كميل ويُهدده: «إذا لم تتوقف لن تذهب معنا إلى دُوفيل».

«إذن أنت محاط بكائنات تعيش أكثر بالأشياء». سيكون تعليقاً مناسباً منها لو تُدقّق في سلوك الأشياء معنا. سأقصد التصاقنا بالأشياء، كما تفعل مارتين كلّ الوقت. ونحن نقطع شارع «سان جاك» ستتبدّى لنا قُبّة السوربون. هذا لو نُكمل سيرنا في «سان جيرمان» يميناً سنسلك طريقاً باتجاه واحد وستتعسّر الخطوات فيه بصعود إلى شارع «مُوفتار»[1]. سننتهي، قبل ساحة «كونترإسكارب»، إلى مطعم إسباني. هناك تعود أمامنا

(1) ـ يحرص كميل على كتابة هذا الشارع (Rue Mouffetard,75005 Paris) لطلال قبل زيارته بوقت. يُشير إلى ضرورة زيارة الشارع المحاذي له (Rue Cardinal Lemoine)؛ منبّهاً على إقامة (إرنست هِمنغواي) هناك وأنّه يُهمل كثير تفاصيل في سيرته (وليمة متنقلة)، كما تُنشر في فرنسا بعنوان (باريس حفلة). يكتبها في باريس عبر سنوات صاحبة اللذّة قبل أن تقل باليسار الشامل واصطدامه بهذا التيار في أميركا اللّاتينية ومع الثورات.

السنوات الثلاثون المجيدة (1945 ـ 1975م).. قبلها يُقدّم كبار اللغة والفن عيشاً كبيراً للجمال. باريس شرط أساسي لاتّساع الحياة، ولنمو «سنوات الجنون» ـ Les années folls ـ فيها وتعقب الخراب الأول[1] لأُوروبا.

أن تعيش أكثر..

بِن يزن يستأنف مقولته الشهيرة: شكراً جزيلاً (بلفظ فرنسي قديم) كما تنطقها جدّتي الأُوفيرنياك.

قد تَخْلُصُ ماتيلد من أول لقاء به إلى أنّ هذا العربي النابه غُصّة عند أيّ التزام. دائماً يتأخر عن مواعيد الرفاق، ويتعذّر جدّاً أن يجدوا عليه هفوة في مواقيت الفتيات. هذا من دواعي سروره بالمدح فقط. كلّما يتكبّد عتاباً شاقاً من طلال والبقيّة، يعتذر بأنّ جدّته في النزع الأخير ويضطّر إلى تلبية نداء موتها (الوقوف على حالتها) في بروكسل، ومرّة في غُرونوبل، وعدّة مرّات في مرّاكش، ومرّتَيْن أو ثلاث، وفق روايات يختلقها، في صنعاء أو الكويت. بالتأكيد على ماتيلد معرفة أنّ نسب جدّته (سيدة تموت في مناسبات كثيرة)، لا يعود لمنطقة قلب فرنسا (أُوفيرني) النقي من أيّ التقاء عرقي. ليست أوفيرنياك بادّعائه ويُخالف حزب اليمين المتشدد حين لسان رئيسه يزلّ: الفرنسيون هم فقط أبناء الغال.

هذه صورة من عيش بِن يزن في اللغة. يصمت المتلقّي الفرنسي في دهشة ويستنكر ويضحك مُطوَّلاً على اتساق لغة هذا الفرنكفوني وحذلقة الفكرة ولا يخسر قليل جهد في إنضاجها.

---

(1) ـ لا يُسمّي الأحداث باسمها المتعارف عليها: الحرب العالمية الأُولى (1914 ـ 1919م) يكتبها الخراب الأول لأُوروبا، لأنّها حرب لم تتجاوز أبعد من حدودها، كما يعتقد. (باريس شرط أساسي) لصناعة جميع أجناس الفنون الحديثة في (سنوات الجنون). أمّا (1945 ـ 1975م) فهي ثلاثون من الحياة المعطاء، دون مشكلات اقتصادية أو بطالة تحديداً، لذا يتذكرونها بالمجيدة.

بلغته الفرنسية يكون الاسكندر المقدوني دون خوض أيّ معركة. قائد حملاته عامر صُبيح ينتصر بهم في مدن أُوروبا. يقتحمون الأسوار من برلين وحتّى امستردام مروراً ببروكسل مرتع الرعشات المحببة، ثمّ قلب النورمندي، وجنوباً الريفيرا الفرنسي متجاوزين حدود إسبانيا حيث دمهم العربي يُحارب في فتوحات الأندلس. ينتهي المطاف بهم لتبادل رسائل غرامية مع حفيدات لمحظيات في آخر بلاط لملك أندلسي يبكي عرشه ولا يعرفون له اسماً الآن.

عن (أن تعيش أكثر في باريس).. بِن يزن يزبد من طلال حين يقول له: يا صاحبي أنت مع الواقف.

لا يستطيع عيشَ باريس سوى القادر على قدميه وبمال يدَيْه. يختلف مع طلال حدّ السيف في العمل والكلام العابر والقرف الصغير. يقتسمان ساندويتش يحتالان لقيمته بمستفحل الضحك. ليلاً تصل منه رسالة تأسف؛ ليُعطي طلال النوم في كتاب حلو.

***

إن أتناول طعام العشاء معها، في مطعم إسباني قبل تلك الساحة، سأراها كأنّها تكيد لعصفور بدقة تأليف اللقمة من طبق «البايلا». تمضغ مثلما تَهمُّ بتمتمة ستشرح الرضا على فمها. لن تنمّ شفتاها عن حركة.. وينال من المكان أخذٌ عذب تجاه نجمها العميق. هل سأذكر لها أنّ «البايلا» تأتي من بقايا وجبة سلطان أندلسي، كما لو تَصْدُق رواية التاريخ المُبكي؟!.

أن تعشق أن تتهذّب في كلّ التفاصيل، أن تخضع لك الأشياء. تكون الحيطة التزامك الأول، ومعدّل التنازل يفوق التوقعات. أن تعشق أن تمتثل لسلوك ارستقراطي لا يُضاهيه خُلق، ويستقيم منجزك الشخصي في أيّ ظرف.

لن يكون المطعم ذا ذكر؛ لنتباهى به أمام إيقرِك لكنّ المكان سيأخذ لها معي صورة؛ بل أنا معها. هذا أدعى لعدل منه لادّعاء سأُفرِط فيه كلّما أحتاج تسجيل أيّ بهجة. إنّه مُنتهى التباهي إن يلتقطوا الصور. حائط المطعم سيأخذ نصيبه من ملامحها الربيع الدائم ذاته. ستلتصق صورتنا كغيرها في شجرة السنوات وتُزيّن المحل مثل عائلة واحدة لا ضغائن ستُفرّقها. هذا النهر لها سيسقي ما يظلّ من حديقة الزمن وإن سيفقد يوماً بعض مياهه. وميض الكاميرا لن يُنسيني وشاية صديقة تغيب بأحدهم؛ إذ تفضح هاجسه، وهو يُجرد حجرتها من زينة تعاليقها | **الصورة معقل فوضى، ودعاية «فارغة المحتوى».. الصور تمكث ما بين روح وقلب، لا بين ورق وحائط |.** بحق، ربما لن يعود أشخاص الصور للمكان، ولكن علينا أن نعتاد يُتمَ إطاراتٍ تضمّ ملامحهم. في هذا المطعم سيُخَلّدون فماتيلد هناك ارتواء تام.. ارتواء يفوق نبيذ «كبش الفداء» من اختيارها ولن تكون بحاجة لأكثر من كأس منه.

دقة الدهشة وفرص القبض عليها الشحيحة ستجعلني في غفلة عن راقصة «الفلامنكو». يحيك فستان رقصتها ليلاً من «مَجّريد» ـ إمعاناً في التمسّك بالأندلس لا أكتب مدريد ـ.

لننتهي من وجبة العشاء، ثمّ سنطلب «قهوة قُوُرْمان» ـ Café gourmand [1] ـ، أو كما سأجتهد لأفهم ترجمتها بـ«قهوة نهمة». سأُفكّر أنّ «اللغة في بدايتها حدس، إلى أن يغدو المعنى إدراكاً». سأضطّر إلى

(1) ـ عملًا بروح المداخلات الضرورية يُقدّم كميل إضافته عن (Café gourmand): يُسمّونها في مطاعم أُخرى أعلي درجة وأكثر حضوراً في الأوساط (Café et ses Mignardises). يرى لطلال أنّ الوقت المحبَّب يأتي بزيارة مثل تلك المطاعم الغنية جودة وسمعة:. بعد تزكية صادقة من إيقرِك. تزكية تُخفّف من أيّ نوايا قد تحضر عندّما يزور مع ماتيلد مطعماً شهيراً في ذاكرة باريس.

القبول بهذه الترجمة تقديراً لحدسي(1)، ولأتواطن مع لغتي. إنّه نزوع إلى خلق عالم موازٍ في اللغة وسيضع الأشياء باستمرار على محكّ الاكتشاف والتعريف الأول. يُمكن أن أقول «قهوة شرهة» إذ يأتي معها أربع قطع من الحلوى بحلقات صغيرة. هنا الحدس سيُرغمني على مناسبة هذه التسمية العربية لطلب بتعدد أصنافه يدلّ على نهم مَنْ يختاره بعد تناول الوجبة. في الحقيقة إن تُدقّق ماتيلد في الحالة ستجد أنّني أنا الشره للبقاء فقط.

«خطيئة الشراهة» ثالثة سبع خطايا مميتة. بيت المسيحية الكاثوليكي يُحددها بهذا التسلسل وبهذه الصرامة في إثمها. باريس تنفك من أسر الخطيئة الثالثة، بل تُوثّقها - في جوع الجسد - برغبة بسيطة في تناول قهوة ومعها أصناف حلوى. انفكاك باريس من الخطيئة يُحقق لـ«ستيفان

---

(1) - **للسيد خطّاب صرامته في تخصصه (اللسانيات)، ويذكر طلال عنه:** الحدس يرتبط أولاً باللغة الأم، فمتحدّثها هو مَنْ يفرض ملكة الحدس وهنا خياران (حدس مرتبط بلغة طلال الأم، وآخر لفهم دراسة علم للغة)..

- **يُضيف السيد خطّاب:** تكبر الثورة في علم اللغة حدّ التعامل مع الواقعة اللغويّة وفقاً لمنطقيْ (الفرضيات والتحقق) أي أنّ نصف الواقعة اللغويّة (القهوة الشرهة) بظرفها القائم من الحدث - هذا إن يتمّ ويتحقق موقف طلال العاطفي - مما يجعل شخصيته ممزوجة بنظرية الخطاب... ثم نلاحظ أنّ صوت الـR والـAN قورما، قورمه، يتغير في الكلمة (gourmand).

- **يزيد السيد خطّاب** أنّ اللسانيات (تنقلب) على فقه اللغة والنحو التقليدي وفقاً لثلاثة معطيات (وصف الوقائع اللغويّة - كما يفعل طلال في اصطدامه بلغة أُخرى هنا - وإسقاط المفاضلة بين اللغات، والتعامل مع الشفهي بنفس درجة التعامل مع المكتوب).

- **كميل يُوافق السيد خطّاب هنا** ليس لأنّه المدير - معه مُطلق الحقيقة - بل لأنّه يُلامس فهمه الصائب عندما يُقرر أنّه يميل إلى عبارة (قهوة شرهة) بينما المسمّى يُحدث انقلاباً على الموروث المسيحي بالنسبة للخطيئة، كما يأتي توضيحه ومثاله.

هيسل»[1] المبرر متى ينتهي إلى آخر العمر. سوف يجتاز التشدد الكَنَسي؛ لتكون كلمة «لا قُورمونديز: الشراهة» منه طاغية حينما تنفجر بها صرخته الأخيرة:

«J'ai de la gourmandise pour la mort»

يقول: «لدَيّ شَرَهٌ للموت». يُقلّص عيشاً كثيراً بحاجة شديدة في الذهاب من الحياة. فيما يبقى من أيام له تنبت شراهته للموت، كأنّما يتمّ الشبع كاملاً بالفَناء. البقاء مع ماتيلد هو تمام الامتلاء. هي ستهتمّ بمديح عمّها لهذا المفكّر. عليها أن تُفتّش عن كتبه (منها: وداعاً للشجاعة، مواطن بلا حدود). سأميل إلى دفاعه عن أرض فلسطين بزيارة جرُحها المتين. لم تمنعه أيّ حرب أو ضغوط ليتوقف عن رفع صوته النقي وهو مَنْ يمتهن الدبلوماسية باسم فرنسا!. وعن الكتب سأتمنّاها تلتزم بمقولة العم كميل: «لا تأخذ الكتاب لأنّ له عنوان يُناسبك؛ بل لأنّه سيُمثّل عنوانه حقاً».

ليكن أنّنا سنتناول العشاء هناك، فهي سترفض أن نُنهي الأمسية بكأسَيْ «كُونياك ـ إكس أُوْ». إنّ الذهاب في مياه الليل إلى منحدر النشوة ليس من خصال مَنْ تحتفظ لصباحها، في الغد، اتّقاداً وفيّاً لأعمالها البحثية. لن تُبرر لي رفضها لأسرع طريقة يهضم بها الشخص طعامه ـ بكأس كُونياك ـ؛ فهي ستُفضّل طبيعتها الخالية من وهج المياه. من جانب أدق ستُوقف محاولتي سرقة الوقت معها. سيجب عليّ أن أزفّ فرحي، بهكذا بهجة إن تمر، إلى سكني دون تسويف ستأتي آثاره أكثر من ليل في ليلة واحدة. لن تكون بمزاج أن تُكرر عراكها معي لاقتسام فاتورة المطعم.. إلّا أنّني سأُمازحها: «ماذا لو نطلبهم أن يُرسلوا الفاتورة إلى القصر؟!». ستلمع الفكرة بقولها: «إنّك تتعجّل حظوظك في الرئاسة.. ليس بعد».

---

(1) ـ يرى إيقرِك: في هذا المفكّر الفرنسي (Stéphane Hessel 1917 ـ 2013م)، مثالًا لا يغيب في الموقف ومصداقية المثقف مع قضايا الإنسان أولاً.

هذه الفتاة تغضب جدّاً على أيّ دقيقة تتجاوز الثانية عشر ليلاً وهي خارج شقتها. أبو السُمير يتدبّر في ساحة Passy (باسي) جميع مسوّغات الترحيب بالقادمين من لندن أو من الرياض. في يوم الجمعة، تحديداً، لا شيء يدفعه لقضاء ساعات آخر النّهار في المنزل، ولو لتبديل ملابسه الرسمية، ومثله البقيّة وهم يلحقون بركب العطشى. طلال إن ينضم إلى الجمع المكشوف قد تكون ماتيلد على شغل مستمر لتوليف ندب الليل أمامه، إمّا باتصال أو برسالة: أينك؟.

رجل المسرّات لا يتوقف من جانبه عن نسج الأسباب الوجيهة لتجزية الوقت بمياه الرعشة، قنينة من موسم 2005م. إنّه نبيذ (سانتيمِلْيُون) وله الاختيار فائق الطالع.

عملاً بما يقرأه في مكتب طلال من صديقة تغيب | **الليل وهم الغنيمة** |، أبو سُمير يُمدد الأمسية بقناني تتتابع دون توقف. في كلّ مرّة يسمع نية الذهاب يُقسم للجميع أنّه الكأس الأخير. يكون الليل مشبّعاً وفسيحاً أمامهم. يُعزّز فرحه ببقائهم. هكذا إلى أن يُنذر طلع الضوء، من فجر السبت، بدحر آخر مستلزمات السهر. مجموعة يصعب عليها منافسة المضيف الدائم. كأنّهم يُشكّلون رابطة ما.. من منظرهم ببزّات رسمية لا يتخففون منها قبل السادسة صباحاً!. إن نقول (كأنّهم رابطة ما) على طلال أن يُحصّن اللحظة بتوفيق سلّومي. في فتوّة اليسار العربي يُؤسس مع بعض الرفاق، في الجزائر، رابطة لتنظيم الملتحقين حديثاً بالتيار. كثيرهم يذهبون إلى منابع الأُممية. توفيق يُغادر إلى اليمن ولا يحلم بأكثر من كلمة تخصّه دون إملاءات المتحزّبين. يكشف هذا لطلال عندما يظهر له خلف كنيسة مادلين. تحديداً في مقهى Fauchon (فوشون). قد يتجاوز انتماء هذا القمهى لحداثة ما، ويجلس مع طلال قبل أن تصله ماتيلد.

فيما لو نعود لطلال ورفاقه.. نقول تأخذهم أحاديث بعض التغييرات في بلدهم؛ حول اتخاذ قرار بالنسبة لمحفزات مالية مثلاً. وعن مديح وغيره في (جهة التمثيل) الدبلوماسي؛ لا بدّ أن يتحسّسوا المكان أولاً وخلوه من كاتب تقارير قذرة. الوقت ليس يسيراً لتندّي الجبين. يتذكّرون عرض لقاء (الملك بن سعود مع رُوُزفلت) في احتفالهم بعيد بلدهم. الجميع يتساءل ما شأن هذا اللقاء التاريخي باحتفالية تُقام على أرض فرنسا؟!. لن يتوقفوا عن التهكّم بمَنْ يصمت عن هذه الحماقات في يومهم الوطني. مثلاً، كميل يتساءل: أين لقاء (فيصل بن سعود مع شارل ديغول)، ولو بصوَر؟!.

بعض الفضائح من شدّتها تكتفي ببصقة لتنسى!. من سلوان الحال أن يُفكّروا جميعاً في هكذا عزاء، قبل أن ينقلبوا إلى أبي سُمير وهو يصف النّادلة بأنّ لها عِرقاً يطول حتّى الهيكسوس.

كعادته يعود طلال بربطة عنق مطويّة في الجيب الداخلي للبذلة. يفتح باب الاستديو المقفر من مشاريع الانتظار. غيثة لا تطرق الباب منذ سنة تقريباً. (الباب يفقد أيادٍ مألوفة). لا يُصبح انصرام الخريف علامة عودتها. يستعيد أحذيته من أسفل خزانة الملابس. يرصّ صفّها أمامه. يُفكّر (بعض المساكن لا تتّسع لأُلفة الأشياء)، أو على الأقلّ تخذله المساحة للوفاء إلى تلك الأشياء. لذا لا حاجة لشراء مزيد من الأحذية. لدَيْه ما يكفي للاستئناس بعددها الطفيف حتّى مارس القادم. يحين تطور جديد على مستوى قيادات العمل، ربما. في هذا الشتاء يُؤجّل اللقاءات الطويلة مع الرفاق، أو يحدّ منها. الانتظار يكون مليك الرجل الوحيد.

***

سيكون الوقتُ سمحاً معها. سيرها بحذاء «فلات» من «قُوتشي» سيجعله سهلاً. ستقترح أن نبدأ عودتنا مشياً عابرَيْن ميدان «مقبرة

العظماء»[1]. سيروق لي إن تُشير إلى هذه المقبرة باسمها القديم «معبد المجد». هنا سيرقد «فيكتور هيقو، إيميل زولا، فولتير...» والكثير مِمَنْ يُثرون الأُمّة. في الجوار سيقوم مبنى السوربون، وتُحيط به مبانٍ مختلفة من طراز «هُوسمان». في الجانب الآخر فندق «الرجال الكبار» - تيمّناً بالمرقد المهيب - وينتمي إلى حقبة ملكية زاخرة. سأُمعن النظر إلى مدخله. هي ستديُر دفّة سخريتها: «لو أنّك تصل مبكراً إلى شقة ولد السالم، ستكون فتاتك اللبنانية في انتظارك الآن.. داخل هذا الفندق الكلاسيكي». لن أضحك. سنُواصل السير في مواجهة حديقة «لُوكسمبورغ» فيعترضنا طريق «سان ميشيل» لننحو يميناً قاصدين «مترو سيتي» - ليس بعيداً عن «كاتدرائية نُوتردام» الواجب زيارة ميدانها والوقوف هناك على «نقطة الصفر»، منتصف باريس، قبل العودة.

طبيعة الحال ستُقرر بيننا صمتاً عن كلّ شيء عدا خرير ماء الروح. متى نُحاذي الحانة الأثيرة لدَيّ، وسأرفع القبّعة لحارسها ليردّ بابتسامة مودّة، ستعرف ماتيلد منّي أنّ فتاة المشرب - Bartender - لا علاقة لكتفَيْها القاسيَيْن بنمش الصبايا. إذا ما إن نقترب من طريق «سان جيرمان» سأُعلّق على كلامها الأخير: «الكلاسيكيّة شرف أتمنّاه ولا أدّعيه». عليها أن تنظر إليّ لأظنّ أنّها تنتظر بقيّة الردّ: «أمّا اللبنانية فترضى بقليل يدي إن تحبّ».

المتاجر في باريس مصدر دائم للفرجة نهاراً، وفي الليل لن تخلو عتباتها من أشخاص يتوسّدونها. عائلة بمتاع هزيل - من طفلَيْن ووالدَيْن - ستلتحف بغطاء واحد في ممر صغير ويُفضي إلى ليل مغلق. أطراف أُوروبا ستُفتّش عن ملاذها بعد تلاشي الحدود. «العين ليس في استطاعتها بنظرة عابرة أن تُحصي حسنات الاتحاد الأُوروبي».

---

(1) - البانتيون (Panthéon).

هل سيُبرر عبارتي هذه إن أقول لها «البادي أظلم»؟. ذمٌّ كهذا لن تجده يرتقي إلى موضوع النقاش، لكنّها بشكل مباشر ستقول: «عليك أن تعرف أنّ هناك رفضاً قاطعاً لأن تكون حدود منطقة اليورو بلاد فارس والعرب». ستعني منع انضمام تركيا للاتحاد الأُوروبي رغم أنّها فاعلة في «حلف الأطلسي»، وكُبرى دول أُوروبا بعد الحرب تُعمّرها أيادٍ تركية.

«الجغرافيا لا يُمكن تزويرها،... ». دون استعراض الخريطة سيقول العم كميل هذا في أيّ وقت يتناهى إليه أنّ الأُوروبيين يخشون حدود سوريا والعراق، فأطرافها بعيدة وستجر الكثير.

أطراف بأظافر شرسة..

في أحد الأيام، يقترح ولد السالم ان يُجرّبوا مطعماً يُقدّم شُوربَة (حَرِيرَة). لن يتنازعوا في أصل هذه الشُوربَة أهي مغربية أم جزائرية. يقترح بِن يزن الذهاب إلى حيّ باربيس في الدائرة الثامنة عشر. يخرجون من المترو أمام حشد البشر والأشياء. يتساءل طلال هل يُعقل أن يرى هذا في (مدينة الشكل)، باريس مثلما يُسمّيها كُونديرا.

لم تكن أفريقيا وحدها هناك. مجاميع تدبّ من كلّ بلدان الكوكب. بعددهم يعجزون عن إحصاء ما يُعرض من سلع للبيع العاجل. دخان معالَج في مصانع خربة من شرق أُوروبا. تُحَف يتوسّل حالها العاثر نَسَباً كاذباً إلى منغوليا. حيّ باربيس، له الحياة الملقاة من هامش باريس. عامر صُبيح يعيش فيه. ينتمي إلى عائلة فرنسية تبنّته من وطنه جيبوتي البعيد، ويكون وفياً لكلّ مَنْ يسأل البقاء. لا يتوقف عن ابتكار أكثر من عيش لمهاجر من القرن الأفريقي خاصّة. لا يتراجع يوماً عن ترجمة أشواكِ الرغبة في عابرات الليل ومنافذهنّ الكثيرة. خمسيني النجابة والقدرة على باريس.

هناك في باربيس، يصدف مع الثلاثة لقاء فتاة تلوذ منها الحاجة من فرط تمسّكها بسؤال ممضّ. فتاة عربية تفضحها عينان تلمعان بالشارد من حاجتها. بينما حاجة الأطراف من باريس (الضواحي بمعنى أدق) تندلع باحتجاجات مع قدوم حزب اليمين ولا تتوقف نقمتها بوعود الإصلاح.

***

في مسألة الضواحي.. ـ على لسان السيد خطّاب ـ تتمّ محادثة بين فرنسية تستقبل طلبات التوظيف وبين أحدهم من تلك الضواحي. «اسمي محمد. عنواني الجهة القصيّة من كِلِيشِي. مؤهّلي جامعي وأحتاج وظيفة». تردّ عليه الموظفة باعتداد: «لدَيّ وظيفة مهمّة براتب كبير وجوار منزلك». يتعجّب صاحب الطلب: «هل تسخرين مني؟!». «بل أنت من يسخر.. أنت بهذه المواصفات وهذا الاسم والسيرة، وعلى ظروف كهذه، وتطلب وظيفة!».

هذه الحكاية، ستحضر مجدداً إن تأتي مناسبتها. على ماتيلد أن تتفهم مرارة الهامش في باريس، متى تسمعها منّي.

إن تسأل عن مصير كعك جوز الهند، سأُخبرها أنّه في اليوم التالي على انكشاف أمري أمام «بِتْشُوُن»، العم كميل يحمل لي علبة منه. يشكو «بِتْشُوُن» إلى بِن يزن بأنّ الأمر يُزعجه، لكنّه يهدأ بضمان حقّه. يتوقف عن النباح، ويُرابط عند الفرن حتّى ينضج الكعك ليأخذ نصيبه أولاً ويصمت. بِن يزن، أمام الجميع في المكتب، يقول لي: «هنيئاً أستاذ طلال كلّ هذا العطاء من بِتْشُوُن.. الفاضل من أكله يُرسله لك». العم كميل يبتسم ويُثني على تفهّم الكلب «بِتْشُوُن» لمكانتي لدَيْه ويقترح اللقاء بيننا قريباً.

***

بعد إعلانه ألّا يخرج معي؛ لأنّني أحمل بيدي كتاباً ـ رواية العطر

للألماني زوسكيند ـ في ليل يكون ولد السالم جوار سكنه في الدائرة (15). بمحاذاة رصيف «قُرُونيل» يخرج من شقته في البناية (57) ويتّخذ يساراً قدر مئتي متر ثمّ ينحدر يساراً أيضاً مخلفاً نهر السّينّ مع شارع «لينوا» متجهاً إلى «مترو شارل ميشيل». يتوقف أمام مركز التسوق «مُونُوبْرِي» ـ Monoprixـ دوماً ينطقه باللغة الفرنسية ويضحك. يتذكّر أنّه تجاوز أول مهوى ليل ـ نحبّ تسميته هكذا تمشّياً مع تراثنا ـ. ماتيلد إن تنظر إليّ فتلك إشارة لأختصر فيما أظنّ، وسأُكمل. يعود أدراجه عدّة خطوات. أجده هناك يقيس حدّة ماء تُقدّمه له فتاة يُطلق حصافته عنها حال أصِل: «هذه من يهود المغرب». «يا أحمق هل اليهود يعملون أيام السبت؟!». لن يهتمّ بسؤالي؟. يُمرر كذبة أنّها هي مَنْ تهتم بوجوده وتُخبره بامتداد أهلها.

«إذن رجلان عربيان سيُوقدان شمع جسد إحداهنّ». ماتيلد ستُطلق سخريتها، وستتأكّد أنّ المعادلة غير صائبة لو تعلم أنّ بعض الشموع محجوز اتّقادها مسبقاً.

بعد شهور قليلة يُعاود على مسمع الرفاق حكاية تلك الليلة، وأنّه يُقدّم استثناء كبيراً بمرافقتي. يُشير بأصبعه لمقرّ عمل تلك الفتاة وينتهى إلى قيام مشاريع جديدة.

لن تُعاتبني أنّني ليلتها أتعمّد رفقتها في المترو حتّى نزولها. لن أُكمل الطريق معها سيراً. سأستبدل بخط (10) قاصداً محطّة «شارل ميشيل». هناك ولد السالم ينتظرني بإحدى خيباتنا في ليل باريس. صباحاً بِن يزن يُعلّق: «نحن لا نعيش للوعد نحن نعيش للهدم..

إن أُعيد هذه الحكاية بهذه الثرثرة ستُقاطع ماتيلد بضحكة لأنّ «أبو بُريص» سيختار جيّداً أصدقاءه. يُفترض أن يكون تعليقها هكذا. لو تقول فستعني نادلي المطاعم والمقاهي.

أنا أصرّ على أنّها ألمانية، فاسمها «ناديج».. أسترسل في تعميق معرفتي بشكل الألمانيات. نظرة أُخرى على تلك الفتاة، وأقتنع أنّ هناك خطأ ما في النسل. تُفاجئني يد ولد السالم بإدارة رأسي لجلستهم وصراخه: «يا ملعون!.. توقف عن إلقاء شباكك فلا تحتمله حتّى بحار مما يلقاه الواحد من مسامير عينَيْك!». يتوقف عن سبابه لي فور يتحدّث عامر صُبيح عن ليل برلين وتصالحه مع أيّ حاجة. يُرينا صوراً لـ«مهوى» بمقام منتجع لليلة واحدة، وتحك مياه الرغبة أسفل الواحد منّا عندها. هذه لن تسمعها منّي ماتيلد، ولن تسمع بقيّة القصّة... على الأقلّ الآن، إن يُقَدّر لهذه (الآن) وجوداً.

***

عامر صُبيح ممَنْ يدعوك فور معرفته أنّه لا يُلوّح عند وداعك. مصافحة واحدة ينسّاها إثر مسح كفّه من راحة يدك. وفيّ بقدر الحاجة. لا يُقدِمُ على أيّ أذية مباشرة. هو على خلاص مستمر من عوالق الذاكرة والحنين. في منتصف الخمسين من عمر مزدحم. يحرص جدّاً ألّا ينام على السرير. يضطجع على الأريكة كي لا يُباغته الموت. الأريكة تجعله على انتباه دائم، أمّا السرير فيخطفه بنوم ربما يُخادعه إلى سكتة قلبية مثلاً فينطفئ عميقاً وللأبد دون علمه. هكذا يعتقد على الدوام لذا يتمسّك بكل احتياط محمود ويمنعه عن الموت. كأنّه يشبع من مخطوطات صديقة تغيب | الموت فكرة مرعبة.. وحده الخوف نحاربه طويلاً |. إنّه ابن الضواحي وعليه أن يكون في اتّقاد نحو الفرص. يتعرّف عليك فيُحوّطك بامتحان. يُسمّي لك الأمكنة ويهمس في أذنك «لا تُخبر أحداً بهذا المكان...»، حتّى المخبز جوار بيتك يأخذك إليه بطلب ألّا يستدلّ إلى طريقه أحد غيرك!. يجعل من هذا مَنّاً يُلازمك طيلة بقائك على معرفة به. يقودك إلى البقالة المجاورة يملكها رجل بملامح عربية ـ يشي به، فرنسي مغاربي النظرات ـ وعليك

أن تتبعه إلى صفّ مكائن الغسيل تحت منزلك ليُريك كيفيّة ومواقيت عملها. يُقدّمك إلى بائع الخضروات.. كلّ هذا من قبيل الخدمات ولها ثمن واحد هو ألّا تُخبر بها أيّ شخص. إنّه عرفان كبير منك لعامر صُبيح ألّا تكون دليلاً لأحد، كما يفعل معك. الجانب الأهمّ فيه شكواه المستمرة من ولد السالم. ما أتجنّبه، أمام ماتيلد، من قبح ولد السالم أنّه يستعر عند كلّ ما يراه بين يدَيْك أو يتنبأ به في قلبك. لن تتجاوز شكوى عامر صُبيح رحلة معه إلى مدينة «برُوج» البلجيكية. «في ليلة عادلة بالرفيقات»، كما يبدأ تذمّره منه، يتفاجئ برسالة تصل هاتف رفيقته من ولد السالم. يعرض عليها أنّ فؤاده عامر بالصحبة، وأنّه جاهز لأيّ نزهة تقترح مكانها هي!. «الجائع يأكل مما يجده». يردّ على تعليقي عامر صُبيح: «هذا صحيح بالنسبة لجائع، أمّا هذا الخبيث، حتّى لو أنّ بين يدَيْه مائدة موسى، فلن يتوقف عن اغتصاب لقمتك من فمك...». يدفع ولد السالم حجّته بأنّ الفتاة تنام في السرير وحيدة، وهو يُهدر الوقت على الكنبة مخافة أن يُداهمه الموت في الفراش. بِن يزن يصفعنا بعبارة: «الموت لا يأتيك وأنت بين ذراعَيّ امرأة!». ينظر ولد السالم إلى بعيد. وجهه يُنذر بنزق أشنع لو ينطق عامر صُبيح بكلمة. قد لا ينسى أن يُتمتم مستعيذاً بالله من مجاديف بِن يزن في جنب المقدّس، كما يظنّ طيلة الوقت.

لو أزيد في سيرة عامر صُبيح يظهر أنّنا نعتمد عليه لإنجاز أيّ خدمة، فبِن يزن يُهمل حاجتنا لمساعدته بإعمال تسويفه البغيض. يعيش في ضواحي تثور قريباً لتحسين أوضاعها. احتجاجات متوالية تكون خير استقبال لرئيس منتخَب حديثاً عن حزب اليمين. أذكر قبل هذا، وقبل اكتوائي بالوحدة الزاخرة خلف باب نُزلي أنّ رجلاً، تتعرّف عليه جارتي الفرنسية، ينوب زوجته لانتخاب الرئيس. صباح يوم سابق على كلّ شيء، الجارة تقول لي: «امرأة تُوكل زوجها ليُدلي بصوتها في جهة اليسار.. ضدّ ساركوزي ويمينه الغليظة». تزيد الجارة وأيامها تمضي ببطء مبالغ فيه. أنا أتساءل داخلي:

«لماذا امرأة فرنسية تُنيب زوجها على صوتها في الانتخابات الفرنسية؟»، طبعاً ليس لطارئ صحّي، أو أنّها لا تملك بطاقة مدنية، أو أنّ نار القبيلة بالمرصاد، ليس لأيّ سبب يُقابل افتراضي الناجز، فقط لكون هذه السيدة تعمل، ولا تملك وقتاً للانتخاب. ستزيد جارتي: «هذا الرجل يساري الدم مثل زوجته.. لن يضعوا صوتهم لجانب اليمين أبداً».

لو يعلم بهذه السيدة، سيُعيد إيقرِك موقفها لشيء بسيط جدّاً ـ بحسب تعبيره المباشر ـ وهو أنّ فرنسا برمّتها تربط دستورها منذ الثورة بتقليد لا يُمكن أن تهِن أو تتراخى فيه. هذا ما يُميزها عن بلدان تُدير تنصيب رؤسائها وفق معادلات اقتصادية وما صوت الشعب لدَيْها سوى من المحصّلات. سأُورد له رفض الفرنسيين للدستور الأُوروبي مثالاً مناسباً على ما يقول. على ماتيلد أن تُومئ برأسها فتُوافقني. سأشعر بمتعة لمشاركتي الصائبة؛ ليُؤيّد مثالي.

***

ماذا يعني لو يقف على البار المخضرم ذاته رجل يعتمر رأسه الشاب «الكاسكيت» ذاته، من ماركة «هيرميس»، وتحبّها ولاحقاً تكتنز خزانتك منها ثلاثاً وتزيد فيما بعد؟.. وماذا يعني أن يتذوق الرجل شَرَابك من «سانتيمِلْيُون»[1] ومثلك له الحرص ذاته على كأس من نتاج العام المطير

(1) ـ **مما لا يُفوّت الحديث عنه، عامر صُبيح:** (Saint–Émilion) تلّ بمساحة إقليم في «بُورْدُو»، تنتمي إليه مزارع العنب الشهيرة بمحصول سنوي فائق وينعكس على منتجات كثيرة أهمّها النبيذ. تنتقل طريقة إنتاجه إلى كاليفورنيا الأميركية وأستراليا. عندّما ينتهي إلى مديح هذه الجنّة ـ بحسب تعبيره ـ يطلب من المتلقّي ألّا يُخبر أحداً عن نوع هذا المشروب تحديداً. ينسى أن تحت هذا التلّ تأتي أنواع كثيرة بأسماء تبدأ بكلمة شاتو (قصر).. بيوت، عوائل لا تُحصى من هذا النبيذ. **لا بدّ أن تكون هذه الإضافة من كميل ويُلزِمُ طلال أن يكتب اسم هذا المشروب كما ينطقه بخلاف كتابة كلمة (Saint سان) في كلمات أُخرى كثيرة.**

عام 2005م؟!.. يُخبروننا، في إحدى الدورات التأهيلية قبل الالتحاق بالعمل الدبلوماسي، أن نحذر من زُوّار يختارون جوارنا في المطاعم والمقاهي ووسائل المواصلات. إنّهم يُشبهوننا إلى حدّ بعيد في الذائقة. لن أقول أنّهم ينحدرون في الذوق لهذه الدرجة. أقول إنّهم ينقضّون على أقرب فرصة لإثارة اهتمامك بما يلبسون أو يأكلون أو يشربون.. يُبادرك الزائر الغريب بتعليق خفيف مشيراً إلى كأسك: «هذا فاخر..»، ويُثني على جودة محصول الموسم من العنب وعلى شمسه واتساق تَلّ الحقول تحتها. يترتّب على هذا تحفيز الفضول لدَيْك، وإذا لم تُعره اهتماماً يستدلّ على اكتشافك لأمره. تتواطئ وفضولك لتردّ عليه ويُصدّق أنّه أوقعك لتمدّ حبل حديث ومن هناك يتمّ تقييمك كموظف عادي لا ملفّات يملكها، أو أنّك من ذوي الأجنّدة المحذورة في بلاده المضيفة لمقرّ عملك.

في هذا ما سيدعو ماتيلد للاهتمام ـ سأعتقد ـ إن أشرح تجربتي بحديث محفّز ولا يدّعي أيّ بطولة. في أقلّ تقدير لا أتشبّه بأبي سُمير.

عن زُوّار عابرين..

ذات مرّة يتخلّص طلال من شخص فرنسي نظيف السمت بمناقشة يترجم معظمها مارك (من أصل لبناني واسمه كريم). في بداية الأمر يتحفّز الفرنسي لأيّ مناسبة حديث في مطعم يُديره جزائري (قبائلي أو كبَايْلِي) إلى جهة Pont de Sèvres (جسر سيفر). طلال يقرأ لنفسه شيئاً عن هذا الزائر: الشكّ هو باب النجاة المحفوف بكلّ الاحتمالات.

وبعدها يُبادله عبارات من شأنها أن تنتهي بنتيجة واحدة (اختصر حصارك).

. هذا بالنسبة لطلال أمّا زائره فيضرب معه موعداً لنقاش أوسع. من الغد يتحدّثون عن بلدان لا خرائط لها. نقاش

مستفيض، ويتحمّس طلال ليجمع بين حادثة سجن أبو غريب (العراق)، وبين سقوط الأندلس، واعتماد أميركا على عناصر في جيشها لا أهل يعودون إليهم.

يذهب في تمحيص ماهية الأرض، فإهانة السجين العربي لا تتمّ بطرق عادية؛ بل بضرب في صميم هويته ومرجعها الأرض. في سجن (أبو غريب) يتمّ تصويره عارياً وفي ملامحه كلّ الهلع. أمّا خروج العرب من الأندلس، فيعني مقتلاً واحداً وهو أنّ الأرض ترفضهم وتعود لأول أهل لن يرحموا آخذيها. كما أنّ الأرض الغريبة تتقبّل موت مَنْ لا تنتظره أرض ولا يبكيه أهل، هذا بالنسبة لمقاتلين عبر القارات باسم أميركا.

لا يزيد طلال في إيضاح فكرته، ويرى إيفرِك، لو يسمع منه قصّة تلك المناقشة، أنّه على حق في شأن هويّة الأرض. قد يضحك طلال مُحدّقاً نظره في عينَيْه ليقرأ فيهما أسباب الضحكة.. إنّها أرض الجزائر.

***

قد أُخبرها بالشهور الأُولى لي كموظف بالمكتب الثقافي، وعلى ماتيلد أن تُعلّق: «إذن تعيش بدايتك مع باريس هكذا، في انتظار أيّ متحدّث أو أيّ طرفة عين تنالك».

هذا إن تستمع منّي إلى حديث لن يُبجّل المواقف. سترى أنّني أُبالغ كثيراً في التنقل بين مساكن مختلفة من الدائرة (15) إلى جهتَيْن مختلفتَيْن من بوابة «سان كُلُود».. في إحداهما أتعرّض لعمليّة احتيال من مترجم ـ طالب دراسات عُليا من السعودية يُمارس عملاً أمنياً له صفة الدولية ـ بحسب افتراضي أنّها ستُلازمني، وسأجعل من هذه الحادثة ذريعة كي لا تتركني عند إتمام شأن ما. جرياً بهذا الافتراض سأُكمل أنّ ماتيلد لن تتوقف عن توبيخي مع أيّ إجراء أُنجزه دون رفقتها. ستذكّرني بالمحتال

يُترجم لي مع مالك الشقة أنّه يلزمني تحرير شيك بقيمة (1600 يورو) دون كتابة اسم المستفيد كضمان أستردّه عند نهاية الإيجار. قد تُوضّح لي ماتيلد أنّ القانون الفرنسي لا يُقرّ هذا الضمان.

بعد فترة عليها أن تتفهم استسلامي وعدم مطالبتي بإرجاع حقّي. طبيعة عملي تتطلّب ألّا أدخل في وحل شكاوى حتماً تصل إلى المرجع المختص في بلادي. عندها، دون شكّ، يتقرر إرجاع طرفَيّ القضية للبلاد. عوضاً عن تصعيد الأمر، أكتفي بتقزم شخص المحتال أمام السيد خطّاب ـ رئيس عملي والمشرف على المبتعثين للدراسة ـ شرط أخلاقي، في تلك اللحظة، أن أشعر بالسيد خطّاب يرصّ القلب بفضيلة الأَنَاة. على هذه الصورة الحميدة لرئيس عمل حليم لا بدّ أنّه صباحاً وهو يطمئن لانضباط ربطة عنقه.. وهو يُمسك مزلاج باب البيت متوجّهاً للمكتب، يُتمتم: «يا ربّ، لا تجعلني أردّ سائلاً...»، ثمّ يدعو الصباح إلى طريقه.

عن الأَنَاة تحديداً، ستذهب ماتيلد لأبعد منها، إلى خصلة الشكيمة، ولن يكون أمامها مثال غير القائد «شارل ديغول» في التزامه الصمت تجاه (حركة مايو 1968م). يشتغل جيّداً على ضبط النفس حتّى يعود لباريس النبض بعد شهر من العبَث.

عندما يأتي على موعد، بعد كثرة اتصالاتي، لن يُبدي الأستاذ توفيق سلّومي أسفاً تجاه عدم الردّ في فترة تمضي. لو يسمع أنّني أتعاطى حديثاً، مع ماتيلد، حول الحيّ اللّاتيني سينتشي. يتذكّر إيمان الطلبة بالقوّة للتغيير. أسأله عن جدوى الصدام. يتكِئ خدّه على يده اليسرى. يستجمع عقود الانتظار وتفرُّ من فمه ابتسامة. يمتدّ نظره خارج «مقهى أماديو» ـ Amadeus Café ـ ويعود عن العابرين في شارع «مُوزارت»، حيث نلتقي. حتّى اللحظة لا أعرف كيف تنزف روحه اعترافاً قاسياً. يرى أنّ

«الخراب البشري، عبر التاريخ، مشهد مستقلّ تماماً عن طموحات يأملها البشر ذاتهم». الطلبة يُحطّمون الممتلكات، ويُخرّبون في الجامعات، لأنّهم يطمحون بالعودة إلى باريس البكر. نقلاً من العم كميل أُخبر الأستاذ توفيق، أنّ «مُنا» يومها، يُناصر توجّهات العودة إلى بيت الطبيعة الأول، كما يظنّ بما يحدث. طيلة أيام الاحتجاجات لا يُغادر الحيّ اللّاتيني، في رفقة شبيبة لهم صرخة واحدة «لا»، وهم ذاهبون إلى التغيير دون تراجع. يُطارد كلّ كلمة منهم تُفصح عن صحيح رسالته. هو ينشط في جمع مواد صحيفته «الأخوة مُنا» ـ Le Mouna Frères ـ، وتحريرها وإخراجها لوحده، ثمّ يتطوف باريس لتوزيعها على دراجته الهوائية. عند تلك اللفتة من عمر باريس تروج بضاعته الثابتة في الموقف. إنّه حادّ الذهاب إلى طفولة الحياة، ولكن هل يتساءل: «كيف يستعيدون هذه المدينة إلى النقاء بالتشويه؟». حتماً هذا التساؤل من طبيعة قراءتي المحضة لتلك الحادثة. وما يصلني في المحصّلة أنّ لا علاقة لحركة التغيير هذه باستحداث مفهوم «الفوضى الخَلّاقَة» في بلاد العُرب. الفكرة مناسبة ليُصحح لي الأستاذ توفيق ما يشتغل عليه المفكّر محمد أركون. ابن الثقافتَيْن «عربإسلام»، ويضطلع بعمل مُخلص لتحدّيات تختبر مدى استجابة جذره الثقافي لها. ما إن أسأله عن شاهد كلامه حول القوّة تحديداً؛ يُوضّح: «أركون لم ينتقد جمود التفكير لدى المسلمين فقط؛ بل وقرأ كثيراً تطرّفات الحداثة الغربية ونازع منظّريها». من تلك التطرفات ما تتقبّله باريس على أيادي التغيير والحقوق الفائضة. بينما شكل القوّة، بالمعنى الحافّ، وعلى قرن ونصف القرن من الزمن، تتكاثر في جغرافيا العرب بمصطلحات مطّاطة «وصاية، انتداب، رعاية مصالح، تسويات، إعادة شرعية، تجفيف منابع، نزع سلاح، الشرق الأوسط الجديد،...»، ثمّ ليل يطول.

وفي معرض الاستسلام..

يأتي أنّ السيد خطّاب وفريقه يُنظّمون نشاطاً ثقافياً هاماً على ضفتَيْ نهر السّينّ في مدينة رُوان[1]. يقول طلال لماتيلدْ: تُنازعنا أنفس صغيرة على سمعة مُشَرّفَة فيما نُقدّمه لبلادنا على أرض فرنسا. يسهو مراسل وكالة الأنباء عن تقليد لازم يضع (جهة التمثيل) في بداية أيّ خبر، ويحصر تنفيذ النشاط على جهود المكتب الثقافي فقط.

إثر هذا، تصل رسالة إلى رئيس المكتب مفادها أنّه يجب إعادة طلال إلى المملكة وعاجلاً تتمّ الكتابة عنه بما يعتقدونه. يربت السيد خطّاب على كتف طلال: لا عليك. الرسالة تعنيني أنا لا أنت.

يعرف أنّ الرسالة من (جهة التمثيل) في فرنسا. يُصدَم من واقع العمل في الخارج وكيف يسير عبر حلقات من شخصيات فارغة من أيّ معنى لتمثيل بلدهم. يكشف لأبي سُمير عن دوائر ضئيلة ومشوَّهة تتقدّم المشهد باسم البلاد.

لا يستنزف الأرق منه كما يفعل ليلتها. يكره التزامه الصمت. يلعن على مسمع أبو سُمير جميع تجاربهم الهزيلة. يُذكره أنّ Institut Du Monde Arabe (معهد العالم العربي) في سنوات بعيدة يُفتّش عن أيّ مرجع ثقافي في بلدهم لتنظيم فعاليات باسمها في باريس ولا يجد. حال يُقدّمون تجربة لافتة، يُواجهون أشخاصاً لا ترتبط بهم الثقافة ولو بمعنى تمثيل بلدهم.

طلال (الحالم جدّاً) لا يُجيد الحروب، ولا يتعرّف على أدوات

---

(1) ـ لا بدّ أن نذكر: ما إن تحضر مدينة (Rouen) في سيرة الفخر لا يغفل المتحدثون عن مدينة (لُوُ هآفر) فلها امتياز مصافحة المحيط وفتح الصدر للرصاص والانزال النورمندي المنذر بدحر الألمان من فرنسا.. يبتهج ابنها البار ممادو بمديح طلال لها.
ـ ممادو: طالب دراسات عُليا في السُوربون. أفريقي العرق، ـ في القاهرة يتعلّم اللغة العربية والقرآن في عام واحد ـ. نعود للعرق للتمكّن من إحالته إلى تاريخ طويل من السواد النقي والمبهر بتجارب رجال البارود القادمين من الشمال.. يُقدّم مشروع تخرجه عبر مركز ثقافي في باريس، وتحديداً في مقرّ عمل طلال ويَحْبُك عليه بِن يزن حكايات لا غضاضة من وجودها هنا.

القذارة إلّا عبر أشخاصها في بضع سنوات يقضيها موظفاً في باريس. يزيد من ولعه بالتهكّم عليهم: إنّهم سوقة المرحلة. وتطول رائحتهم حتّى مشارف البلاد.

هنا بالتحديد يصمت طويلاً قبل أن يُلمّح لأبي سُمير لما يتناقلونه عن رائحة كريهة وتروج في (جهة التمثيل). هناك صغار يشيعون الإهانة للعمل الخارجي. يتوقف عن حديث رخيص؛ بل يقطعه أبو سُمير بحصافة المطّلع على خفايا الملفّات!.

لا تهتم ماتيلد بهذه الأقاويل. لا شأن لها سوى حاجة فارغ الصبر للحديث. لا يكون مرجع هذا النقل غضب عابر؛ بل هي تراكمات يصعب دفنها في استديو تضيق مساحته بالأشياء وبهكذا هموم؛ فضلاً عن تهديده بكتابة تقرير عنه؛ لأنّه لم يُمجّد (جهة التمثيل) من عرق أشخاص هو أحدهم.

هل يعود إلى داخله، داخله العميق ولا يمسّه أحد؟.. إلى دائرة خالصة لسرّه ولا يقربها أيّ كائن. سيسمع من تلك الدائرة باستمرار: مهما يبلغ تاريخ الأشياء فإنّ أُلفتها تنتهي إلى بقايا. مهما يُسوّل لك الهروب نسيان حزنك، فهو يسكنك، ستعود إلى البيت مكسواً به، يملأ قميصك.

لا يرحم أن يقترب من هذا العرش أحد. إن تحسّر بتذكّر صديقة تغيب، هي الأقرب، سيحمل سكّين الكتابة. يتوقف لأنّه يخشى كلماتها | يا صديقي.. كلّ كلمة تستلّها من غمد صمتك، تطعن وحدتي |.

***

لو أتدبّر معها لقاء برسالة هاتف، وقد تصلها في مساء من خضرة أيام، فسيُحدد موعده عند التاسعة والنصف صباحاً في «الشانزلزيه»[1]، أو

---

(1) ـ **(Avenue des Champs-Élysées, 75008 Paris)**: يحرص السيد خطّاب على ترجمة (الأُخوة اللبنانيين) لاستشعار روح الفكاهة عندهم وريادتهم في الفرانكفونية بالنسبة للبنان وبلاد الشام؛ عوضاً عن بيروت (باريس الشرق)، فكيفما يهوى القلب يحق لهم أن يترجموا، كما يحق لكلّ مَنْ يعشق هذه المدينة أن يحتفل بها كيف يُريد.

«جادّة رياض الصالحين»، بترجمة اللبنانيين ونقل السيد خطّاب. سيكون وصولها بعد التاسعة بقليل؛ لزيارة معرض «Bartoux»[1] للفنون فقط. مقصدها والتوقيت كلاهما سيُعفياني من سلوكيات أغلب الخليجيين في هذه الجادّة الهائلة. صور التباهي الممجوجة يتسابقون بها هنا من «قوس النصر» مروراً بمقهى «الفُوكيْت» وحتّى ميدان «الكونكورد». تفاخرهم يبدأ مساء، لذا ماتيلد ستدرج مواعيد زيارتها لهذا المعرض على ساعات قبل الظهيرة. سيكون «مترو فرانكلين رُوُزفلت» المحطّة الأنسب لكلينا. سنتحاشى بموقعها استعراض فئة الثراء بالتفاخر الرخيص. فئة من وجهاء الذهب لا أكثر. بعيدون عن قيمة التأمّل من مقاهي ساحة «الباستييل»، أو عن خلوة أمام ميدان «الجمهورية». يحجزون معظم مقاهي تلك الجادّة. «إنّها باريس الكثيرة خياراتها» لا تعنيهم. فقط ينظرون بتفحّص في وجوه العابرين أو في ملامح أيّ جالس بالجوار. يتبادلون النيات الخفيّة، هكذا حتّى ينحدر الليل بهم إلى مواعيد لإتمام رغباتهم في علب لها أشكال أسرارهم وفيها شدّة تحفّظهم على مبالغة باريس في الوضوح.

باريس الكثيرة..

تدعو اليونسكو في إحدى لفتاتها الغنية الفنّان مارسيل خليفة. يشهق طلال أنّ الأمسية تبدأ عند السابعة مساء. يحمل إليه الدعوة وبجود يده السيد خطّاب. لا يمضي على خدمته في باريس كموظف أكثر من شهرين ليحضر مثل هذا الحدث لصوت قادم من حمولة كبيرة. شرقية وغربية. صوت هذا اليسار الثابت في الطين والدم يكون في اليونسكو، أو (سيدة

(1)ـ تهمّنا الإضافة هنا لمعرفة اتجاههما القادم، وبعد زيارة المعرض: يدخلان البناية رقم 26 من امتداد الجادّة، ولا يعودان أدراجهما؛ فقد تأخذه ماتيلد إلى شوارع خلفيّة تُفضي إلى متسع من الخيارات والحياة الكثيرة في الجهة الأُخرى من أطراف الدائرة (8).

الأعلام) بحسب تسميته لهذه المنظمة الدولية في معترك أيامه القادمة. طلال في تلك الليلة لا يُفكّر في أنّه بعد سنوات وإثر فجيعة في باريس، سيتساءل هل يظلّ عَلَم بلده في ساحة المنظمة مرفوعاً، فهو لا يتأسّى بالتنكيس كباقي الأعلام.

يُشاهد حشد الجَمال في جماعات من المفكّرين والفنانين يحرصون على أخذ أماكنهم قبل انتظام الفرقة الموسيقية أمامهم على المسرح القدير. يدخل عبقري الجرح العربي (يُلقّبه طلال) تحت عاصف من التحايا؛ ليذهب مع آلات موسيقية تعلو وإلى جواره قرينة الحِدَاء أُميمة خليل. يدخل طلال في امتنان أبديّ لكثرة باريس وما تُعطيه.

في صفّ غير بعيد لا بدّ أن يرى توفق سلّومي. بحضوره يستعيد بيروت و(بلاد العرب أوطاني)، وأيام صحافة يتركها للمَدّ الناصري ومعادلات التصفية في (حرب لبنان).

قبل التاسعة مساء، مارسيل وصفّ الفردوس المرافق يُنهون أُمسية (عرسهم النازف) بتلويحة محِبّ. عندها يخترق طلال وخز الخجل. كلّ هذا المساء العذب لا يعرفه سادة التباهي في الشانزليزيه. يزيد من غصّته أنّهم في صيفهم يتقاطرون في مجاميع أكثر من الخليج. فنّانهم الأثير يُحيي سهرة حُبلى بالرغبات. لا يبدأ وصلاته، في أحد فنادق إقامتهم، قبل الثانية ليلاً وينتهي في صباح اليوم التالي. تروج كاسات من تحت الطاولات في ليلهم بأثمان مضاعفة. الفنان الكبير يرفض شرب الكحول في حفلاته، لكن لأنّها باريس فهي قادرة على التواطؤ مع مباهجهم. باريس تمنحهم طرق التخفّي وحتّى التمويه بأبريق الشاي لاحتواء نبيذ بُورْدُو حَذَراً من عيون القيَم والقبيلة!.

تنتهي الأمسية ببهجة المصادفة حين يتعمّد طلال قطع الطريق أمام توفيق: أستاذ.. هذه الليلة للقائك طعم الموسيقى وزهو الزمن. كرم الله يتكاثر.

يضحك توفيق، ولن يستعيد بيروت وحسب؛ بل ويشجب وجع الحنين إلى عَدَن (اليمن) وفتيان اليسار من (العربية السعودية) يلتقيهم هناك. ويتركهم هناك يعيشون للتلفّت والتلصّص على الحياة المقبلة. منذ ثلاثين عاماً لا يعرف عنهم شيئاً. يتذكّر مصداقية السلاح وصلاحية الحماسة يومها لكلّ ظرف.

***

ليكن أنّ الصباح يحضر كما أرغب، واللقاء يتمّ، فسأتصوّر البداية من محطّة «فرانكلين رُوُزفلت».

بالتأكيد من هناك سيكون قدومي قبلها. وصولي لن يكون التزاماً بالوقت بل لأنّ الموعد يحتاج تذليل الكلمات قبل لقائها. المكان صباحاً يُبشّر بفخامة نهار سأبدأه بشجاعة.

أشجار السنديان وغيرها بكثرتها، على جانبَيْ الجادّة، صامتة. الخريف يقول كلمته الصارمة. قبل ساعة سأجلس في مقهى «لُوُ مادريقال» ـ Le Madrigal ـ وليس بعيداً عن مدخل المعرض في بناية تُطلّ برقم (26) على الطريق الضخم والخاوي صباحاً. المحلات التجارية ما تزال في أُهبة تنسيق سلعها قبل أن تشرعَ الأبواب. ستكون على موعدها الدقيق كأنف إيقرِك. ستشكر لي اختيار هذا التوقيت. ستعني خلوّ الجادّة من بشاعات متحركة لا تعرف النّهار إلّا بحلول السادسة بعد الظهر. سيبدأ دخولنا بممر سيُضفي إلى مقصدنا. تسبق المعرض محلّات أحدها ستُشير إليه لأقرأ «زِيلي»، وهذه ماركة يحبّها إيقرِك. بتقدّمنا ستظهر ساحة صغيرة. سيأتي المعرض يساراً، وسيضم أعمالاً من مدارس حديثة. هناك أعمال نابهة تدعوني إلى تحسّس صدري. من النحاس يتشكّل شخص يحمل حقيبة ولن تخلو ملامحه من نكَد الحياة. تجاعيد الفشل ونصل

التحدّي في خلط محكَم. يترك الفنان فراغاً مُؤلماً في جسد شخصياته. الصدر نزولاً بمَيَلان مفرط في النهب وحتّى الخصر. رجل يحمل أرزاء الحياة في حقيبة.. له وجه مهدود ويهمّ بذهاب بعيد. قدر ما يأخذه من العمل والدنيا يكون مسلوباً من جسده. يتمّ عرض أكثر من عمل بأحجام مختلفة. بينما مبدع آخر ينحت من البُرونز جلوس شخصيات حالمة في التواءات ملساء تنبض بعطف وحوار حميم. تنبت على أفواه بعضها حمامة لتأصيل فكرة ما وحكاية ثريّة البياض على شفاه حادّة.[1]

فنون أُخرى..

ينفرون من اهتمام طلال بالكتب والفن. في أول مرّة ولد السالم يكره مرافقته إلى الحيّ اللّاتيني وبيده كتاب. إن يتمّ لقاء بينه وبين ماتيلد فيحدث أمام Pompidou Centre (مركز بومبيدو)[1] للفن المعاصر. تراه في عزلة من يرفض أيّ شيء. كأنّه مجبول على كُره الناس. هذا ما يُفكّر به طلال وهو يبحث عن أسباب نزقه. يعترف ولد السالم أنّه لم يتصوّر يوماً أن يكون لهذا المبنى علاقة بالفن. يجلس ظهيرة يوم السبت في مقهى يُقابله. يرى الناس يدخلونه. لا يسأل مرّة عن المكان بقدر ما يتعجّب من أعداد كبيرة ترتاده. لا يهمّه السبب. يُلازم التذمر ويُؤكّد أنّ شأنهم لا يعنيه إطلاقاً. بينما صديق مشترك لو يطلب أن يلتقيه في مدينة بُزُنسون من فوره يخرج إليه؛ ففي تلبية طلبه وعد بلقاء فتاة، أو سفر إلى امرأة من مدينة عنّابة (الجزائر) تُدبّر له قراءة أسرار الخفاء. إذن يلزمه، لأمر ملحّ،

(1) ـ في تتبع دقيق لما يُكمل تفاصيل يوم اللقاء المرجو: قد يمتدّ سيرهما من محطّة شاتليه (Châtelet) ـ تحديداً في الدائرة (4) من باريس ـ ويصلان إلى مركز يحتضن الثقافات والفنون الحديثة والانقلاب الجمالي بمدارس جديدة تشهدها آخر السنوات المتفجرة بتحولات الشكل وحتّى المعنى في الفنون والموضة. إن يتكرّم في زحام أعذاره، يُقرّب بِن يزن تلك السنوات بالأرقام (1900 ـ 1970م).

زيارتها في موطنها. لا يُفوّت توثيق سفريته السرية بصورة مع نبيّة آماله والصديق المشترك يأخذ منه سيجارة مُبْهِرَة. يتذكّر طلال تلك الصورة بدقة، كما لو أنّها لفرقة (بوب مارلي). تظهر سحابة (حشيش) تعلو جلوسه مع المرأة والصديق على أرضية تبدو لمطبخ!. في الصورة ما يدعم انتماءه للفنون بشكل أو بآخر. الحق أنّه يحفظ البعض من (راي الجزائر) لكنّ هذا الدليل، بالنسبة للجميع، ليس سوى منحى آخر يطول شرحه، ويُقلل من فرص المصالحة مع ذائقته الفنية. يلعن لحظة ينزل عند رغبة طلال في الدخول معه لمبنى معجون بمئات الأطنان من الحديد الصلب. لا يحبّ أيّ شكل من أشكال الفنون فكيف له أن يُواصل صعود عدّة طوابق لمشاهدة (مشغولات عميان). هذا وصفه للأعمال المعروضة. لا يَحتمل ما يراه ويُكرّر لعنه. يُعيد إلى ذهن طلال حروباً مضادّة لحركة التجريب تبدأ منذ مئة عام ويزيد في أُوروبا. لا يستطيع الاقتناع برأي المفكّر الفرنسي ليوتار عن هذه المدارس والاستجابات الواسعة لها في مجالات مختلفة كالعمارة والتخطيط والهندسة، حين يُبرر الناقد نشازها عن الفنون المعتادة بقوله: كُلّه ماشي.

يُردف ولد السالم بتعليقه: يعني بمفهومنا (كُلّه عند العرب صابون!).

على هذا النحو من التسخيف يكون ختام أيّ مجادلة معه.

***

من خلف المعرض، ستخترق بي إلى شارع صغير ينتهي بتقاطعه مع شارع «سان هنري»، الذريع حتّى يُحاذي ساحة «Place Colette». عن تسمية هذه الساحة ستُخبرني أنّ «كُوليتّ» هي أول كاتبة تحظى بجنازة رسمية من الدولة نكاية بالكنيسة.

بداية سيأخذنا الطريق إلى جانب «البِريسْتُول». أنا من سيقف لأتذكّر

رجلاً برتبة «مواطن». إنّه غازي القصيبي. ألتقيه في هذا الفندق في يوم يذهب للأبد.

سأبتسم وبريق في عينَيّ يفضح نصال الفقد. على ماتيلد أن تستفسر عن توقفي وسأُطلعها أنّني هنا أُقابل شخصاً من طراز الكبار؛ بل استثناءً إلهياً لصون البلاد ويرحل. سأزيد عن القصيبي: «يحكي لي عن حادثة القبض على شخص في منطقة عسير، جنوب غرب السعودية، يحمل على حماره تبغاً، فيعدمونه». هذا قبل ثمانين عاماً تقريباً. هي ستُعلّق: «... إذن هناك مَنْ يُموه بإبريق الشاي لشرب النبيذ!». أحدنا سيضحك ونُكمل صباحاً مشرقاً حتّى «كنيسة مادلين» وغير بعيد من واجهتها تظهر ساحة «الكونكورد». حيث يسقط رأس الملكة «ماري انطوانيت»، وتشرئب من هناك المِسَلّة المصرية متعامدة مع ميدان «النجمة، قوس النصر». إن أطلبها مبتسماً أن يردّوا إرث مصر إلى ترابه الأول، ستقول لي بحدّة مفتعَلة: «... إنّها هديّة المصريين للقائد نابليون وهو يحمل إليهم المطبعة والنور». «أمّا أميركا تُهدونها ماركة العصر.. تمثال الحرية!» سأُفكّر في هذه العبارة فقط، ويُقابلها في القلب حديث صديقة تغيب | الحرية تكتب الشعر وتُهديه إلى السماء. تتدلّى من سُلَّمِ النجاة وتُحيي للضحايا جنّةً باتّساع العصور |. كم في بلاد العُرب من حرية تصرخ «إذا الشعب يوماً أراد الحياة.. فلا بدّ أن يستجيب القدر»، ولم يلتفت القدر إلّا لحاجة أن نكون الضحايا؟!.

في مستقبل المسافة إلى وجهتنا، سأُقيم محاكمة ـ صامتة وعجلة ـ للاستيلاء على تراث البشر نظير حفنة من التنوير. كأنّهم لم يدخلوا القاهرة بالمدفع وحده بل تجرّه آلات الطباعة ومِدَاد المعرفة. ستعود لقطع المحاكمة بقولها: «كليبر يُجيب على أسئلتك»، ولكنّ هذا الجنرال، وإن يخلف إمبراطوره في قيادة الحملة على مصر، سيرتطم طموحه بحجم ظروف تقهره على الانسحاب. يعود ليُخَلّد اسمه بشارع يبدأ من ميدان

«النجمة» إلى ميدان «تروكاديرو». ستُوقفني فيما لو أزيد من تهكّمي: «يا لها من انتصارات.. غرس إرث الفراعنة على أرض فرنسا!».

لن نُكمل شارع «سان هنري» فمتى يظهر ميدان «فاندوم» سننعطف إلى ساحته البيضاويّة. على جانبها الأيمن ماركات لها شهرة عريقة، ولا شأن لنا بها.

كلّما نتقدّم تتقلّص المسافة من ميدان الأُوبِرا ـ Opéra ـ وشارعها الواسع. إلى اليسار سننشد «مقهى السلام»ـ Café de la Paix ـ بعد أن نقطع شارعاً له الاسم ذاته. هل ستقول شيئاً عن المغنية «ماريا ماليبران» (1808 ـ 1836م) فائقة الصوت والتاريخ؟. سأعتقد تَعذُّر حديثها لأنّني سأُعلّق بأنّها إسبانية الأصل. سنضحك على هذا الالتفاف لمجرد التقليل من خصوبة فرنسا في غناء الأُوبِرا. هذا دون أيّ مديح في شجاعة الصوت العصري للمغنية «إيما كالف» وينطفئ في كانون الثاني من عام (1942م). هذه أيضاً ليست فرنسية.. أصلها يوناني، ويتعمّد العم كميل بهذه الإضافة. ما لم أكن واهماً ستتحدّث فقط عن إنشاء هذا المبنى ليكون قريباً من قصر اللُّوُفَر بأمر «نابليون الثالث» بعد محاولة اغتياله وهو في طريقه إلى مبنى الأُوبرا السابق. هنا سأتذكّر حكاية عابرة عن اختفاء المغربي «مهدي بن بركة» تقول أنّه يُشَاهَد آخر مرّة خلف هذا المقهى ويلتصق به فندق «باريس انتركونتننتال». ماتيلد ستُصحح لي أنّه يُقتاد من مكان آخر، وأعتقد أنّها ستُسمّيه «لِيب» في طريق «سان جيرمان» وليس بعيداً عن مقهى «لُو دُو ماقو»[1]. ستذكر هذا لو يصحّ سمعي لحظتها. إنّ

---

(1) ـ يندفع كميل دون تمييز: من السخف أن يأتي هؤلاء الطارئون على الجمال وذاكرة باريس، ولهم معلومات ناقصة عن الأمكنة، وفي مقهى (Les Deux Magots) يتسابقون في الجلوس على طاولات يتمّ إبرازها بأسماء وصور مشاهير يُشعلون سنوات المجد بحوارات ولقاءات؛ فيتركون هناك علامتهم الخالدة في الفن والفلسفة.

الفزع من باريس لم أتوقعه إلى هذه الدرجة. ملتزم دون تحفّظ أن أهتم كثيراً بخيارات الجمال. العم كميل في مستقبل أيام قريبة جدّاً، يحكي لي عن نهر السّينّ يلطم تحت باريس سدوداً لسراديب ومقابر لا حصر لعظام أهلها. ينام أسفله هناك ثُوّار جزائريون من داخل فرنسا. أرى، فيما يأتي من الأيام، صور تلك الثورة في فيلم «خارج القانون»[1]. سأُدقق في أشخاص يتمّ غمرهم إلى حتفهم في نهر السّينّ بحسب الفيلم وأُفتّش عنه مترجَماً إلى العربية ولا أجده حتّى اليوم.

سأحفظ للاستديو والليل كلمات.. كلّها باريس، رمز هائل في المخيّلة، وواسع في الحلم. ما إن أكون في خريطة مكانها وأمام نزهة زمانها حتّى أستعدّ لتشييد داخلي، وتبديلِ فارق التكوين والوقت وحتّى الملابس الداخلية. أستبدل الجهات، وأُعيد تشكيل حركة أطرافي وآلية إشاراتها. أَزِنُ قياسات السير والانتظار. أستحدث بدايةً تليق بالصباحات الجديدة، لأكون على مجموعها النشط بسعرات الحياة وأولى المفاجآت. أبقى مشدوهاً بباب شقة أسكنها لأنّها فقط في باريس. ما زلتُ أنظر إلى حكمة الاختلاف كيف تَمثُلُ لي كما لو أنّني لأول مرّة في حياتي أُشاهد باباً!. أنظر للحكمة ذاتها كيف تتّسع حين أرقب جميع القادمين كأنّ الناس في باريس مقبلون وأنا الوحيد في انتظارهم. أُوَزّع عليهم أماكنهم بنيات زهية يأتي حبكها سريعاً وفق ملامح أيّ وجه مقبل. هنا في باريس لدَيّ القدرة

---

(1) ـ على بِن يزن أن ينقل انطباعه لأنّه يحضر العرض الأول للفيلم: Hors La Loi يتحدّث عن إجهاض حركة الثُوّار الجزائريين من داخل فرنسا. يستعرض في بدايته مذابح في الجزائر. الناجون يُقررون الانتقام على أرض باريس، ولكنّهم ينتهون إلى قعر نهر السّين. يعود بِن يزن إلى محاكاة أحد المشاهد لموقف في فيلم The Godfather (العرّاب). المشهد يتعلّق بقتل أحد الخونة ـ حَرْكي ـ لمناصرته المستعمر الفرنسي على أبناء البلد. يرى أنّ صورة قتل الخائن هي ذاتها في الجزء الثاني من العرّاب.

على تفحّص الوجوه ورغباتها. هذا لم يكن باستطاعتي فعله من قبل بعيداً عن هذه الزهرة وينام ساقيها، نهر السّينّ، إلى جوار الجثث!.

سنتوقف لأنّ ماتيلد ستحتاج الجلوس قليلاً أمام الأُوبِرَا، وستختار، قبالة هذا الـمَعْلَم الكبير، مقعدَيْن في «مقهى السلام». لم يحِنْ موعد إيقرِك بعد. سأقول لها: «هنا المقاهي بيوت عاجلة»، وستسألني: «هل ستترك فيها ذاكرة؟». عليّ أن أنظر لعينَيْها لتعرف أنّ كلّ هذا الوطن فيهما سيكون البقاء. لن أُجيبها. ستعلم أنّه تكفي رفقتها في مقهى ليصير «كلّ العائلة». وفي المقاهي معارك صغيرة للرفاق سأشرحها لها مع فنجالَيْ قهوة يطول وقتهما بأمل صغير إن يتحقق.

باريس الناس..

على Rue de la Pompe (شارع المضخة) يقف طلال. ينتظر صباحاً باص 52، في الدائرة السادسة عشر، دقائق ويصل هذا الحافل بموظفات، وحتماً تستقلّه تلك اليهودية. يجلس أمامها، ويُمارس سرقاته الصباحية. لها وجه مختلف. يعجز عن وصفها لولد السالم وهو يسبقه لمقهى كرستينا، ويسأله: ماذا تنتظر؟. لماذا لا تتحدّث معها؟.

يُكرر بحماسة شيخ قبيلة (لا تنفعك إلّا يمينك)، في محاولة منه ليدفعه أن يكون أكثر إقداماً. لا ينسى أن يُعدّد هزائمه في هذا المضمار، من باب التهوين وندب حظّ الاثنَيْن. ولد السالم يتذكّر فتاة أوروبية يُقابلها على متن سفينة تُسافر به سائحاً عبر الأبيض المتوسط. لا شيء يحدث سوى وخز لهفة يجرحه وتلك الفتاة عليها السلام!. من باب السخرية ترى ماتيلد أنّ طلال ينتمي لذوي الإمكانيات المحدودة. هذا في معرض ضحكهما على أكاذيب الإقدام عند ولد السالم، بحسب ما نُورد هنا.

يستغلّ مواقف انحسارهم عن (فكرة الإقدام)، ويُردّد ألّا يُراهنوا على علاقة دائمة. يفيض من ادّعائه: في هذه البلدان

الفتيات لا يحببن الحصار. نحن نعيش على الفرص، ومن طبيعة الفرص عدم العيش طويلاً.

يُفكّر طلال أن يضعه مثالاً مع فتاة السفينة، فلماذا لم يقبض على حظّه!. لأنّ الفرص ليست مواتية إطلاقاً؛ فعليهم اقتفاء المحاولات البائسة. يُمَنّون جوعهم بعلاقات تدوم، وعامر صُبيح يدعوهم للشبع السريع وحسب.

عوداً لولد السالم.. كرستينا برتغالية وخلاسية حين تستقبله. هكذا يدّعي عاشقها أو يظنّ. يرى أنّها تقف وتميل برأسها لجهة ما بابتسامة فرحة تخصّه بها، وتهطل عليه بقبلة الصباح. هي على هذا التصرف حتّى مع طلال وإن في نفسه يتعجّب: هل حقاً تجمعهما علاقة؟!.

لا تُوجد لغة بينهما، وهو، ولد السالم، إن يسألونه عن لغة طلال الفرنسية يسخر: لا يعرف حتّى كتابة اسمه!.

ربما تتعمّد الذاكرة إهماله لامتداد تاريخ الحجاز مع المقاهي أو (المركاز). يتمنّى أن ينتصر ولو بهذه المعلومة لو يتنازل أبو سُمير ويتلقفها من كميل عند حديثه عن أثر العثمانيين في جزيرة العرب. يحبس ضيماً لأجل شَمَال أهله وكلّ بلده إن يتذكّر الدولة العثمانية.

ما يهمّ هنا، هو ولد السالم، فبعد أيام يعترف لطلال بأنّ البرتغال خريطة صغيرة في قبضته، عليه من الآن أن يتجنّب النظر في عينَيّ كرستينا.

المسائل تختلف بعد تمكّنه منها. على الرفاق أن يُكيّفوا جميع الأمور لصالحه. حتّى ميلان رأسها وابتسامتها لم تعد عفويّة كالسابق؛ بل ستُجيّر الأفراح له وحده. عليهم أن يتهيّأوا لدخول محميّة خاصّة جدّاً كلّ صباح. رغم هذا لا يتخلّصون من لسانه القذر أحياناً حين يكون منقلب الحال والمزاج. يعتادون على قسوة غريبة لا يعرفون لها سبباً، عدا عندما ترحل كرستينا دون إنذار.

في جميع المنغصّات لا يتكدّر مزاج الرفاق كما يفعل ولد السالم بهم. كلّما تعنّ مدينة لفكرة التجربة يتشبّث بها حتّى يمجّها عند أتفه الأسباب. تحلّ كرستينا وتُشرق في جدولة سفرياته عاصمة بلدها لشبونة. البقيّة أكثر طمأنينة إلى مدن يعرفون سلامة نواياها في استقبالهم؛ أمّا لشبونة فلم يعرفوا اتجاهاتها بعد. أبو سُمير يُعزز ترددهم لأنّه يجهل توفّر الفرص هناك. تنبت هذه المخاوف نتيجة شغف ولد السالم الجارف، وحتماً سيجفّ بلعنات كثيرة لا تتوقف عند أحد منهم؛ حال يُصاب بانكسار حتميّ ويمحو جهة لشبونة من قوائمهم المتّقدة.

***

ستسمع حكاية البحث عن كرستينا..

عند الثامنة من مساء باريس تكون موائد العشاء في خضمّها. ولد السالم ينظر إليّ لأُوافقه شحذَ الروح في نزال لا بدّ منه. الحسم حصيلة معارك خاسرة وهذه ليلته. البرتغالية، بعد انتقالها من الجوار، تعمل في مطعم على ناصية طريق «الطليان» وعند التقائه مع طريق المحافظ «هُوسمان». امتداد كهذا يؤكّد أنّ المحافظ فعلاً يُلغى كلّ الشوارع الملتوية لتتمكن المدافع من قمع أيّ ثورة ضدّ «نابليون الثالث»، وليس فقط حمايته من الزوايا الضيّقة ومما فيها من تربص الأعداء. هذه تفاصيل لا يهتمّ بها أبو سُمير كلّما أتينا على إخبارهم بالحكاية. هذا الامتداد نقطعه بالسيارة، لكنّه يُكبّدنا طعنة لا خلاص منها. ولد السالم يُريد أن يراها من بعيد دون امتيازات أخرى. هكذا يُحدّثني منذ أسبوع، فلا يرغب دخول المطعم، وينتهي.

لو يبلغها موقفه سترى ماتيلد أنّه «يتجنّب لقاءها مُباشرة كي لا يُوسّع محفل النار بينهما». يصلنا ذات يوم عن كرستينا أنّها لم تتحدّث لأحد

عن أيّ شرارة تجاهه. تترك عملها السابق ـ لصق بناية مقرّ عملنا ـ بعد أن تضع إعلاناً بحاجتها لبيع أثاث سكنها. الإعلان رخيص الكُلفة ولا يُمكن أن يشير إلى بادرة لهفة منها وتخصّه. أنا أُقرر أنّه لن يجد نفسه وحيداً في ظلمة المحاولة مجدداً، وهو يُقرر أنّ النّهار يكمن في لحظة ويحمل شعلتها... لا بدّ أن يُحاول. يعمد إلى الضربة الأخيرة، كما يفعل طيلة مآسيه السفليّة.

يلزمني أن أتحاشى دور الإطفاء المقيت عند تلك اللحظة؛ لذا عليّ أن أمدّ عنقي من فرجة السيارة. أتلصّص على شخصها في صفّ موظفي المطعم وهم يَخِفّون في خدمة موائد متّقدة عند الثامنة من مساء باريس. نتذاكر تلك الليلة ونستحضر لعبة التردد. ننزل للمواجهة، نعود أدراجنا، نصمد للحسم، نُواصل التهدئة، نتريث في الفكرة... ولا يحدث أيّ تقدّم.

بحلول سماحة الوقت وأتمنّى، سأُخبر ماتيلد.. السيارة تُعجّل بدقائق استطلاعنا، ولن نتحدّث أبداً، ولا في أيّ يوم من الأيام، عن مشاهدة كرستينا حقاً أم لم نستطع. يُخبرني في يوم سابق، أنّه يقرأ قُصاصة في مكتبي، عن صديقة تغيب | **الحسم لا يعني أن تُطلق الرصاصة، بل أن تقودها إلى المصير** |. ليلتها لم نعد بخيبة تصويب الرصاصة وحسب؛ بل ونعود دون بندقيّة، ولا نعرف مصيرها أبداً. على هذا الحجم من الخذلان نتيجة ما تقدح فيه عبارة واحدة كلّ هذه الحماسة ويخسر، فإنّه في المرة القادمة، مع افتراض أنّه يرى قُصاصة أشدّ تحفيزاً للصديقة ذاتها | **الرصاصة قاتلة وإن تُخطئ الهدف** |، سيضطّر إلى تعليق حبل النهاية؛ مؤمناً بأنّ النصر له ولو في الموت، كما يدّعي.

في جانب آخر يتعلّق بروح ادّعاء النصر، نُؤكّد أنّها ـ فتاة ولد السالم مجازاً ـ هناك وأنّه لو يعود ليجدها تُلوّح له، فيبيت طريق «الطليان» شُعْلَة «الأُولمبّ».

صاحبي لن يصله تعليق ماتيلد على هذه الحادثة، إن تعتقد: «البرتغالية ستنتظر أكثر». هكذا تعليق إن يكن ويصله سيردّ به اعتبار توقه، أو توقهما وفق مُناه. لن أمنحه اعتزازاً بهذا الحجم، وإلّا قد يُكمل الاشتعال حتّى الرمَق الأخير للأمل.

سنُغادر إلى ميدان «كُوليتّ».. كاتبة يرفض سادة الكهنوت جنازتها لتُبجّلها الدولة بجنازة وطنيّة عُليا. هناك ستُشير إلى مبنى غير بعيد. إنّه «الكوميديا الفرنسية»، أو المسرح الوطني. العم كميل لا يُفوّت في سنوات بعيدة عروضه، فهو يتمسّك بتقديره لفن البشر الأول، المسرح. هذا المكان يلتزم الكلاسيكيّة منذ قيامه بنهاية القرن السابع عشر. جميع الفنون لا تتفهم معنى الوفاء عدا هذا السرح يُمجّد لغة «مُوليير» الخالدة. تطول صفوف بشرية أمام ذائقة باريس الكثيرة. إن نتقدّم قليلاً ستأخذني ماتيلد إلى المتحف الجبّار، اللّوفر. وفيه علينا أن نُفتّش عن لوحة «سُوْمَريّة» تعرض نحتاً لآلة «السيتار» الموسيقية. ستنظر إليّ لتُخبرني أنّ هذه الآلة ستكون امتداداً لآلة القانون أو «دستور الموسيقى العربية». بينما أنا سأترك أثراً أمام اللوحة على العراق أن ينتقم من روحي إذا لم يشرخها إرثه المنهوب. شعار «الفوضى الخَلّاقة» وهو من نِتاج «أميركا المرحلة»، يُقدّم خدمات فريدة لمتاحف كُبرى. لنقل أنّ أُولى اجتهاداته ستعمل على محو بغداد ورافدَيْها. هنا عليّ أن أشكر للشعار الأميركي حميد فعله فهو لم يُخيّب ابن «جيكور» السيّاب في نبوءته: «مَا مَرَّ عامٌ والعراقُ ليس فيهِ جُوعْ». فيما يلحق من وقت، العم كميل يُعدد متاحف أوروبية تُطالب بأن يُسجّل لها الفضل في استعادة بعض تاريخ العراق المسروق؛ وهي اليوم تعرض قِطعاً مهولة من آثاره بغرض حمايتها. لن يسأل أحد كيف يصل هذا الإرث المهيب إلى حضانة تلك المتاحف العالمية!.

في اللّوفر ستُوجد من كلّ أمّة وحضارتها إشارة بالغة إلى عصر

مهذّب. الجمال هو المحرّض الوحيد لغيرة مدن العالم من باريس. ستحفظ لكلّ مدينة محظوظة حقّها من المكان والوقت. من مدينة عصر النهضة «فلورانسا» وحتّى «عَدَن رامبو»؛ بل «عَدَنُنَا» في بلاد العرب البعيدة. باريس هي فاترينة الزمن الزاهي.. تحضن أثر الجغرافيا قبل مداخلات التاريخ.

من ميدان «كُوليتّ» سأفهم منها إن نستقلّ المترو ـ خطّ 1 ـ سأصل تحت معية سمائها قبل سيارة أجرة قد نُفكّر معاً أن تأخذنا إلى محطّة «سان بُول». المترو سيقطع المسافة بتأخر أقلّ ووجوه أكثر. سنقرأ من الركاب مواضيع سنحكيها حال نصل أو أثناء إكمال وجهتنا سيراً على أقدام منها قدمَيّ ماتيلد ولهما رشاقة صباح من خريف يُغادر.

سنعود إلى زيارة ساحة «دي فوج» في الدائرة (4). سنغفل هناك عن قراءة لوحة تُشير إلى فندق «جناح الملكة» يستقبلك مدخله بعريشة من نبات اللّبلاب. على شرفاته زهر يهتف ويُوحي أنّك تدخل إلى مواجهة ضمير تُحفة تتمسّك ببطرها. الفندق يقع غربي محيط الساحة وتتّخذ اسمها من جبال «فوج» المتاخمة لسويسرا. إن أستفسر عن المكان، هكذا ستشرح ماتيلد. ستُضيف: «يسقط الثلج ويتّضح سبب التسمية»[1].

هذا قد يحدث، وأتمنّاه فيما يسبق من يومَيْن أو أكثر. أعني الزيارة وتعريفي إلى مكان كما لو أنّه شخص جدير بهذه الألفة منها. لن تستحلي لوالدها هديّة. ستأخذ شَالاً، سترفض بحدّة أن أدفع قيمته. له لون العناد ـ سأُمازحها في حدّتها ـ وستردّ: «بل تعنيني».

---

(1) ـ كميل يُصوّب لها: إنّ مقاطعة «دي فوج» هي أول مقاطعة تدفع ضريبة للثورة وتُرسل جنوداً لإنجاحها في البلاد، فتُكَرَم بإطلاق اسمها على هذه الساحة. في جميع الأحوال تلك المقاطعة تقع في الجبال ولها ذات الطابع من البناء، وللدقة فإنّ جميع الساحات وغيرها من الأماكن العامّة المنسوبة إلى (عهد العرش الملكي) تتبدّل مسمّياتها بعد الثوة عدا ما هو خاصّ كفندق يُجاور تلك الساحة.

الحقيقة أنّ توقع ماتيلد ـ انتظار البرتغالية ـ محض افتراض سيُمجّده صاحبي حدّ اليقين. إنّها، في واقع المرارة، لو تذهب فستذهب للسخرية برَجُلَيّ طريق «الطليان»، وهي تنقر على طاولة مقهى تحبّه هناك، بينما سأتخلّص من زخم البهجة بتلك الحكاية. ما يصحّ، لحظتها، هو نقر سبابتها مثل نضد المطر في الساحة. يتّسعْ المكان بممرات أربعة وضخمة تُسوّر الساحة. عشرات الأقواس الحجرية تُضفي إلى معارض تزخر بمدارس النحت والتشكيل. الممرات تتتابع كقناطر ويضمّ أحد أركانها منزل «فيكتور هيقو». لا تقع عيناي على منزل كاتب «البؤساء» لأنّي أتذكّر كلمة «بائس»، ففي جميع الأحوال أحدنا لم يعد بخيبة من طريق حكايتنا، أنا وولد السالم. هذا إن تزيد ماتيلد على فعلتنا بمقولة عمّها: «الشجعان يذهبون وحيدين». أمامها سأُجابه إيقرِك، في غيابه؛ إذ سأُثني على عبارته موضّحاً لها: «ولكنّ بعض الشجعان لا يحبّون الانتصار وحيدين، لذا هم أحياناً لا يذهبون فُرادى». لأنّ فرصة مهارتها في المشاغبة ستكون مُواتية، عليها أن تنقضّ بردّها: «إنّهم يصطحبون الصغار ليتعلّموا فقط».

ستمنع عنّي موقفاً ساذجاً سأقع فيه إن نأتي قبل هذه المرّة. بتدبيرها علينا أولاً قراءة الطريق الأسلم، فلا نتوقف في «مترو سان بُول»، بل سنتجاوزه إلى «مترو الباستييل» ثمّ سننتقل إلى «مترو شُومان فير»، عبر الخطّ (8)؛ لنصل إلى تلك الساحة. سنضطّر إلى هذا التبديل كي لا يتذمّر بسببنا أحد، بالقرب من تلك المحطّة، ونحن نطلب فنجالَيْ قهوة سيصلان بطعم النزَق. سأفهم أنّني «رجل يصطحب فتاة في مملكة المثليين». إنّها ناحية عامرة بحركةٍ ما كأيّ مكان في باريس. هناك يصعب ملاحظة اختلاف أو إشارات عدا ما يتمّ لمسه مباشرة من نظرات أو ما يُلاحظ من مظاهر جسدية. عليّ أن أمتثل لقيم العلمانية «التفهّم، التعايش، القبول بالآخر». لن أضحك.. سأعتذر: «لن أُكررها». قد لا

يسمع اعتذاري غيرها وهي لن تنسى موقفنا إن ينتهي هكذا، ولن نتوقف مجدداً في محطّة «سان بُول» تحديداً.

إن يخطر لي سأستعيد عن تلك الفئة أنّها تتّخذ من ألوان الطيف شعاراً لها. في شارع «بلدية المدينة» وأكون في حافلة تُقلّنا باتجاه «المدينة العالمية للفنون» لحضور معرض لناجي العلي، أو «حنظلة» بلاد العُرب. تصطحبني مترجمة، طالبة سعودية. الباص يتوقف لمدّة عشرين دقيقة كحدّ أقلّ في تصوّري. هناك مظاهرة لذوي ألوان الطيف. سيكون إلى جوار وقوفي مثقف عربي مقيم يُرافقنا من حيث أُواعده قبل محطّتين. الجو خانق جدّاً، وكأنّ نهر السّينّ، برطوبة من جانبه، يتنفس صراخ الجثث وأزيز السراديب. القرف يتصبّب من على جبيني في قطرات عرق تغوص إلى عين واحدة بمرارة. المثقف يُلحّ عليّ لأُعرّفه بالطالبة. مسامات الأجسام تزفر رائحة حادّة. رائحة البشر تصطك في أنفي. لا شيء محدد للقرف أكثر من هذا. المثقف العربي يهزّني من ذراعي لأُحدّثه عن طالبة محجّبة تكره كلّ دقيقة من هذا الباص وحمله. ما يُبشّر بصبر مقبول أنّها تجد لنفسها كرسياً. حركة «المثليين» في مسيرة تنظّم انسيابها البطيء قوات الشرطة. يُنادون بمطالب تُجهض باليمين المتشدد، ولاحقاً حكومة اليسار تُقرّ الموافقة على مطالبهم بداعي علمانية التحضّر والوعي بالحقوق. لن أقول هذا كلّه لماتيلد. هي قد لا تغفل عن إكمال حديثها: «ثمّ سيُوقفون لاحقاً، وبصمت، العمل بهذا القانون في البلديات!».. فقط يدفعون بأيّ شيء لتحسين صورة فرنسا العلمانية وأنّها واجهة المطالبات وتحقيقها. سأصمت. سأتذكّر فقط يوماً خانقاً ويد مثقف تشدّ كتفي لأُخفّف تلهّفه بإجابة مُرضية. أيّ صبر يتملّكني. الصبر خُرافة شخصيّة.

لن نتأخر عن موعد القهوة مع إيقرِك قبل الواحدة ظهراً. سيتخلّف عنّا العم كميل لارتباطه بموعد فحص «بِتْشُون» عند الطبيب المختصّ. مارتين، خلال أيام سابقة على الموعد، ستُقلقه بتذكير مستمر لا داعي له.

هو أحرص منها على أدق التفاصيل. هو أحرص على سداد الفواتير والتودد لحارس البناية ومعرفة أحواله، ويُواصل تمريني على نطق محطّة «مترو لامُوُيْت» ـ خطّ 9 ـ برصانة إن تتمّ في لساني ستنمّ عن امتدادي في باريس.

***

إيقرِك في مُنتهى الصراحة، سيُحذّرنا من ندماء لا يُجيدون تسوية أحزانهم ومراجعة أوجاعهم إلّا في وقت الكأس. سيُدوّن بصوته، قبل أن نُغادر طاولته في «لُوُ مُوريس»: «حذار، فرغم الاحتياطات من ليل عابر بالمياه، إلّا أنّ أحدهم سيفعلها، لا بدّ ويبكي؛ لتكون قصّته أعمق جرحاً من مأساة الآخرين». هذا إذا ما نهمّ بطريقنا واختراق ميدان اللُّوُفّر. سنقطع رصيف «أُوغسطين العظيم» باتجاه مطعم «لابيغُوز»[1] ـ Laperouse ـ وسأنطق اسمه بصوت «أُوفيرني».

---

(1) ـ من المنتظر أن يكون التعريف بهذا المكان من كميل ويكشف عنه لطلال: على رصيف (أُوغسطين العظيم) عنوان هذا المطعم لا يخفى على الضليعين بهذه المدينة:

51 Quai Des Grands Augustin 75006 Paris

وقبل عقود من الزمن يُعدّ ملتقى الكبار بعشيقاتهم.

ـ إن يقترح إيقرِك المطعم عَلى طلال عليه أن يدسّ في يده اسمه وعنوانه كما يظهر هنا. وقد يدسّ في أذن ماتيلد أنّ هناك حجزاً باسمَيْهما في مكان يعرفه جيّداً سائقه وحافظ ذاكرته. متى الأمر يتعلّق بترتيبات يُديرها السائق ـ لِيمان ـ فهذا يعني الثرثرة بحكايات إيقرِك مع الليل.. أقلّها عن فتاة عربية ـ تعتاد على ليالي السادية لأنّ عائدها كبير ـ. يلتقيها في نهاية الثمانينيات.. ذات مرّة يطلب منه سيده معالجتها بعد أن تُنهي لشيخ خليجي ـ في الطعم ذاته ـ كلّ وطره بخمسين ألف فرانك وبكدمات في وجهها لا تُعالج بأقلّ من مئة ألف فرانك ـ رشوة لكلّ من يلتقونه في تلك الليلة البعيدة، سواء نادل أو حارسِ أمن أو طبيب ـ.. ولا بدّ أن يُقسم لِيمان لهما أنّ إيقرِك لم يلمسها؛ والغريب بعد أسبوع تطلب منه تلك الفتاة مرافقة الشخص نفسه طالما قد يُعطيها مبلغاً مماثلاً!.

لن يُحالفه الحظّ في إرباك حاجتي إلى رفقتها؛ إذ سيُعلّق: «العاشقات يعرفن الليل جيّداً...». لن تمنع ممازحته ذهابنا متخفّفَيْن من ولع للتجربة، وستمضي أيام قليلة على حجز ركن كريم في هذا المطعم المعروف بلقاء العُشّاق في حجر محددة يسيل منها ليل شهي. ستُوصلنا سيارته الخاصّة. هذا يعني رفقة السائق «Leman». قد نُفوّت أنّه سيحكي لنا حكاية أُخرى من دفتر إيقرِك المجيد.. هذا السائق؛ تيمناً باسمه المأخوذ من السواحل، سيحرص على أن نلمس فيه سهولة الرمل وامتداده المتصالح مع البحر والجميع. لكنّه سيظلّ الحدّ الفاصل بين الغرق والنجاة. من المستساغ في تصوّري، أن تقول ماتيلد: «كلّ حكاياته على الضفاف ولن يذهب بنا عميقاً»، فتمسّكه بحدود إيقرِك لن يفتر.

سيأخذنا من أمام «لُوُ مُوريس»، فليل السبت ينهض بنقر الأحذية متى ترحم المسافات الأقدام الصغيرة؛ وماتيلد لن تستطيع المشي حتّى المطعم بحذاء عالي، من «كرستيان لابوتين». المدخل سيتألّق بنور يدفعه للعين خشب «التيك» الهندي وتحفُّه مشغولات مذهَّبة يأتي طلاؤه من عصر الزهو تحت التاج الملكي. سندخل إلى الاستقبال ولا أحد. البار سيكون خالياً ومقاعده الحمراء ستُوفّر فرص النشوة وفضح أجنحة عطرها حولي. في انتظار الترحيب اللازم سأُدقّق في شعر رهيف على ما توفّر من ذراعها الأقرب.. ينسحب من تحت سترة «البُونْشُو» الكشميرية حيث يبدأ الخصر ببنطال أسود من «اللّيكرا» ويتهدّل مثل ليل حتّى نجمات فضّية تُزيّن حذاء لها شكل «ليتا»[1]. لست ملمّاً بكثرة تفاصيل هذه الفتنة والزينة. ماتيلد ستظنّ أنّها إن تُسمّي لي جميع الأشياء اللازم معرفتي بها، فأنا سأتقرّب من باريس أكثر.

---

(1) ـ هذا شكل الحذاء «open toe»، عالي وبفتحة صغيرة في المقدمة. طلال يتحقق في روعته حال تنزل ماتيلد من ركنها الخاصّ في جناح عمّها. الفردة الواحدة تُظهر أصبعَيْن من القدم.

رهافة ستتوقف عن شغل الريح، إن يسنح لي النظر لساعدَيْها أثناء خطوتَيْن سنقطعهما لدخول المطعم. لا بدّ أن حقيبتها «كِلَتش»، من «لانسيل»، سينزع بريقُها شيئاً من ليل البنطال. داخل السيارة سأجتهد في تأليف أيّ كلمة تستدر ردوداً وتستدعي تحريك ذراعيها أو تشعيب أصابعها لتنفر لهفةٌ بي.

إن ندخل سنُهاتفهم لينزل أحدهم من شغلهم في الطابق العلوي ومن غرف صغيرة تصطّف على ممر يتّسع لشخصَيْن فقط. سيجد حجزنا لحجرة كثيرة الاحتفاء، من اسمها «أُوتيرو الجميلة» ـ La Belle Otero ـ. ستكون كبيرة النوايا، فهي عطش إلى زمن الترف لو تُخبرني أنّ الاسم يعود للراقصة «كارُولينا أُوتيرو». الجمال يتشبث بذاكرته، وهذا الاسم يجعله العم كميل دلالة ناصعة على سنوات الرخاء. يُحدد لي حقبة الرغد ببطر هذه الراقصة. مرّة أُخرى مع اللَّبْس الفاتن في اللغة الفرنسية. اسم يقودك إلى سنوات الألق لكلّ الحياة السابقة على الخراب الأول لعالم متقدّم[1]. ترجع هذه الحجرة بالشخص إلى زمن الذهب. أُفسّره أنا بداية بـ«الزمن الجميل». لن يروق لي تعبير كهذا؛ لتكراره في «عقل لغتي»[2] العربية.

---

(1) ـ يُعيد طلال على الأذهان الشرح ذاته: إنّه قتال أُوروبي محض (الحرب العالمية الأُولى يوليو 1914 ـ نوفمبر 1918). وفي هذه الفترة، والحديث عن راقصات، يُمرّر كميل كثير أسماء لراقصات يعملن حينها في الجاسوسيّة ضدّ فرنسا. في حساب ماتيلد أن تُدافع أنّهنّ جميعاً (لسن فرنسيات)، وكميل يُراجعها بأنّ (أغلبهنّ لسن فرنسيات)، وإيفرِكْ قد يضحك.

(2) ـ بِن يزن يُبارك لطلال أن يقولَ (عقل لغتي): لم تعد الكلمة (عقل) حِكراً على دراسة الفكر العربي، أو الفكر الإسلامي.

ـ ما إن يشمّ كميل رائحة التهكّم باشتغالات المفكّرَين (محمد أركون، محمد عابد الجابري)؛ حتى يُوقف هذا التسطيح بغضب صادق ينال بِن يزن ورفاقه المتواطئين والمدينين دائماً أمامه باعتذار عملي.

«حقبة الازدهار» مسمّى أدق أمانة، فذاكرة الزمن البعيد، قبل حروب العالم، تلتصق بـ«أُوتيرو»، راقصة من أصل إسباني. إذن هي حجرة تمتدّ إلى مرحلة البذخ، إلى عهد أخضر من عمر أُوروبا كافّة.

حائط يكتسي اللّين من شجر الصنوبر. هناك لوحتان زاخرتان بجودة فنية رغم العمر المتقدّم. مقعد منجَّد بصوف أحمر يستطيل ليسع شخصَيْن، كما لو أنّه مُعَدّ لبيانو بعازفَيْن. سأتحاشى أن أقول ملتصقَيْن، رغم أنّ هذا من مجرى المعتاد في المكان. إلى جوار المقعد طاولة مستديرة بكرسيَّيْن، أحدهما لي ومن خلفي سيحمل عنها ساند الظهر الـ«بُونشُو» متى تجد أنّ الغرفة ستُبالغ في دفئها. مجسّ نحرها الحيّ بحُمرة، سيظهر من ياقة مزركشة. سأتمنّى لمسه من فرجة ناعمة تُحاول إخفاءها بدبّوس تستقرّ عليه فراشة «لافندرية». لن تُحرجني أمام إيقرِك عندما تكتشف أنّني ألبس قميصاً بزرقة «أَلِيس» تحت «البُولُو» الكحلي. سأعرف أنّ الكنزات الخفيفة وحدها تردف القمصان. عليها أن تبتسم قبل أن تقول: «يظهر أنّ المُبالغة في التدفئة ليست في هذا المكان فقط». ستطلبني خلع «البُولُو» وبهدوء ستطويه في جوارها على مقعد ـ سيسع شخصَيْن ملتصِقَيْن ـ، وحتماً سينال من مسك يُخالطه زهر «الميموزا». سيبعث سلطة أُنثى لا تُبدّل عطرها «كُوكُو شانيل». أمّا الجاكيت المعلّق في شمّاعة قرب الباب بلون «الكاميل» ستحبّه لتُوافق انشراحه مع بنطالي الواشي بالكلاسيكيّة، وهي حقبة تأسرني ولا أدّعي الانتماء لها.

لو أكون إلى جوارها؛ تخليداً للقاءات الحميمة، سيعشب بي زمن أجرد. ستُعلن كواكب كثيرة ولاءها لي إن تلمسني بلوزتها المصطفاة من «ساتان كريب». أمّا لو تلتصق بي!.

الرجل الصمغ..

طيلة الحكايات ولد السالم يفتخر بقدراته. الحقيقة أنّ هذه الجدارة ليس بمقدوره أن يُفاجئ بها أحداً أو يُقدّمها كعرض فريد ومحكَم. هذا إن يعرف هو أولاً أنّه كائن التصاق ويتجاوز أحوال الشرانق من بداية تكوينها وحتّى خروجها للضوء، ولا يُمكن لأيّ شرنقة أن تأتي بتجربة تُماثله في الالتصاق.

يُؤكّد بمحض عقله أنّه يُغادر فتنة الركض خلف الصبايا ويُوقف مشاريع تمتدّ عشرين عاماً، وأنّ هذا بفضل الضمير، بحسب ما يُردّدا. وحين تأكيده تماماً يتوثب إلى تجربة أُخرى ومُعبّد الروح لأيّ ليل قادم بعروض أوسع وأصدق، لكن لا نقول أنبل؛ لأنّ بِن يزن لا يرى أهميّة للنبل في اقتحامات الجسد.

وعن حكاية التصاقات ولد السالم، يتذكّر الجميع أنّ ليلة يكون سقفها عالياً معه. يستطيع مرافقة فتاة عربية، لها سمات أبنوسية وعيون اسكندنافية كما يجتهد زوراً في وصفها لبِن يزن. يدّعي أنّ لها أمّ من زيُورخ وأبّ من جُزُر القمر. يصدف الوقت أنّ طلال ينام عنده في صالة الجلوس. حجرة نومه في متناول السمع وأوضح من زفير النفس، إلّا أنّ طلال يقضي ليله متصنتاً عليه ولا يسمع حتّى سحب لحاف أو تقلّبات جسدَيْن في شغلهما. يكون مع الفتاة في سكون لا تعرفه أعماق البحار، مع أنه مدجج بشأن عامر لرغبة وشهيق. لاحقاً يُقسم للرفاق أنّ الالتحام يحدث فعلاً ويُعالجان أشياء جسدَيْن في صمت مطبق!.

***

في «لابيرُوز» ـ سأنطق الـ(R) بلسان من إقليم الباسك المحتدّ للخلاص ـ ستفصلنا طاولة، وستمنع عن نظري أصابع قدميها الظاهرة من الحذاء. هذا لن يكون أقلّ الخسارات إذا ما أُدقق في زخّات الزمن وغراميات باريس.

«كارُولينا أُوتيرو» غانية سنوات النعيم. لمنزلها، في الدائرة (8)، صقل جادّ من حجر «أُونيكس» الجزائري ويشهد على لياليها البعيدة مع ملوك كبار. العم كميل: «إنّها مجيدة في الهوى وتطول تلك السنوات في القلب.. سنوات تُمحى من العيش وتبقى في الصور والطوب». لا أعتقد أنّه سيُضيف: «في معظم القرن التاسع عشر لم تعرف أُوروبا الحديثة حروباً؛ لأنّ كارُولينا تُدير العلاقات الدبلوماسية.. سريرها يصنع السلام للجميع». لكنّه يُصحح أنّ المنزل يعود إلى الراقصة الثريّة «ليان دي بوجيه» وتكون بطلة في أعمال الكاتبة الأميركية «نتالي كِليفورد بارني»، بل عشيقتها، ولا تستطيع الكاتبة أن تُنظفها من خصال المموس.

لن أُفكّر بماضي المكان، بحجم تساؤلي: «كيف تستطيع هذه المدينة أن تحتفظ لنفسها بكلّ هذا الوجود العارم دون تَبدّل؟!». ستقطع ماتيلد تفكيري لو تهمس: «إذن هو زِريَاب...». ستقصد ترتيب الطاولة ومحتوياتها أمامنا. على يمينها ستُوجد ملعقة مع سكّينَيْن بحجمَيْن مختلفَيْن تنتظم إلى طبق يعلوه آخر للشُورَبة وفق اعتقادي، وكلاهما بنقوش تخصّ «ملك الشمس»[1]. إلى يسارها شوكتان الأقرب للطبقَيْن أطول من الأخرى، وفي المقدّمة ملعقة صغيرة وشوكة بالحجم ذاته. في اتجاه طبقي ستمدّ ذراعيها لينحسر عنهما كُمَّيْ البلوزة المشرقة. ستقوم بمناقلة بين مواضع السكاكين والشوك. سأضحك إن تُوضّح أنّ زِريَاب سيُوافق على هذا التعديل. ستمنحني استثناءً لأنّي سآكل بيُمناي. هذا ستفعله والنّادل سيطرق الباب. سيدخل لأخذ الطلب وأنا أُهمل قائمة

(1) ـ **ما إن يسأل طلال كميل حتى يُجيبه:** إنّه (لويس الرابع عشر) ملك فرنسا. يُنسب للشمس لاهتمامه بالأدب.

ـ هذا الملك يُشيّد قصر فرساي، ويزوره طلال تحقيقاً لأمنية تُلازمه منذ يُدرّسه القانون أستاذ سوري في جامعة الملك سعود، في الرياض، ويتحدّث أنّ هذا القصر يشهد توقيع معاهدة (عُصبة الأمم).

الطعام الموضوعة أمامي منذ جلوسنا. سيُعرّف بشخصه: «أنا ماركوس نادلكم الخاصّ لهذه الليلة». اسمه روماني يُطابق الصواب لو تَصْدُق الرواية أنّه ترجمة لاسم الشاعر «امرؤ القيس»[1]. المكان يستنهض تراثاً يفوق عمره، فيجنح بي إلى هذا «الملك الضَليل»، لكنّني أُعارضه في شعره عندما يُطالب بجلاء الليل إلى صبح لن يكون أمثلَ منه، فعلى الوقت الخاصّ بي أن يكون كلّ الليالي وينزف النجوم بين يدَيّ ماتيلد، إلى أن تخسر السماء كنوز فضّتها.

لن يحين موعد وضع منديل العشاء على حجري، وسأضعه. في المتناول سلّة خبز وإلى جوارها زبدة مع طبقَيْن صغيرَيْن يعلو الواحد منهما سكّين صغيرة بلا نَصْل. بعد أخذي قطعة خبز هذه المرّة لن أُخطئ وأُعيدها إلى السلّة.

سأبدأ بسؤالها وفق التقليد المحكَم عمّا ستتناوله في البداية. النّادل سيُصحح لي ما إذا سنشرب شيئاً كفاتحة مائدة تتّسع بحضورها وتضيق بنذير الوقت.

سنختار كأسَيْن من شمبانيا «بيير مونكوي» ـ Pierre Moncuit ـ، بتوصية إيقرِك. سيغيب النّادل لأُوضح لها أنّها بالخيار في اللحوم، فمارك ليس معنا، وسنضحك. أتهذّب وأستوعب وضوحَ باريس لدرجة أنّني سأسألها تناول ما تحبّ على العشاء. أقصد أن تطلب ما ترغب ولا تحدّها مرجعيتي، بينما هي لا تأكل اللحوم في المساء. ستتعجّب من سؤالي. إنّهم لا يتحرَّجون من أيّ رغبة عاقلة. سأُلَمّح إلى لحم الخنزير. بِن يزن كلّما نعبر بمطعم، وواجهته الزجاجية تعرض شواء هذا اللحم،

---

(1) ـ كميل لا يترك الصورة على غبشها، فيقول: اسم ماركوس يعرفه الرومان من قبل العهد الجاهلي للعرب، وقبل المسيحية. لن يقبل من طلال أيّ حجج للتشابه ولو حتّى في نقطة الصفر حيث يلتقي الرجال في أبيهم (آدم).

يلفت نظر أحدنا إليه ويقول: «لحم أخيك ميتاً..»[1]. يفر الجميع إلى استغفار وسخط. يخشون الله أن يأخذهم بتجديف بِن يزن في معاني آياته عند كثير مواقف.

ستبتسم لموقف «مارك» من أكل اللحوم، وستأسف عليّ برغبة احتضاني لو أُخبرها أنّني في الأسبوعَيْن الأولَيْن، من وصولي إلى باريس، سأبتاع في خفيّة من الجميع، حتّى الفرنسيين، قنينة النبيذ وأحشرها في أكياس متزاحمة؛ حذراً من العين. أُخبئها خلف البرّاد، داخل أول سكن أنزل فيه لشهر واحد فقط. يتلبسني ارتباك مضاعف ما إن يطرق بابي أحد.

عليها أن تنظر إليّ بدهشة لن أراها في عينَيْها أبداً في وقت لاحق، مهما أشرح لها خشيتي من حديث الناس. في يوم وعن هذه القصّة، ستقول لي: «حتى الساعة البيولوجية لن تدخل في هكذا حساب مضطرب وإن يختلف توقيت المكان!».

في باريس «كما أنت»..

بمرور الوقت، يرى طلال طبيعة تعاطي الناس مع نهارهم، تماماً مثل ليلهم، لا ينزلقون لتبديل أو تغيير. يسير في الشارع بكامل وضوحه. يرى مشترياتهم وما يحملونه إلى بيوتهم، وما يأكلون هذا المساء أو في صباح الغد. كلّ مطالب العيش

---

(1) ـ **لو يضحك طلال عندّ الطلب، سيُوضّح لماتيلد**: بِن يزن على الدوام يأخذنا على غِرّة، ويذكر أنّ الخنزير أخ أحدنا فيُجدف في المعنى المجازي لآية القرآن (أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً...).

ـ**بِن يزن يتذكّر**: في سفرهم بالطائرة إلى برلين ذات مرّة، تُقدّم لهم وجبات سريعة، ويتخوّف الجميع من تناولها، عدا ولد السالم يُخبرهم لاحقاً أنّه من شدّة الجوع يأكل الساندويتش بمغلّفه الشفاف، دون أن يسأل كما يفعل الرفاق.

ـ **يضحك بِن يزن**: الوجبة من لحم الخنزير؛ إذن أخيراً تلتهم لحم أخيك ميتاً!. ويستغفرون من عظيم ذنبه في القول حين يُسقط النصّ إلى منزلة معنى يُريده.

البسيط واليومي منشورة في أحاديثهم ومشاويرهم. يلمسها في خطواتهم على الأرصفة وقبل أن يدخلوا المنازل. يحدث أن يحمل مستلزمات البيت في مكاشفة طبيعية على مرأى مَنْ يشاء أن يرى. جارته العجوز تُحذّره دوماً أنّهم يغشّون بإضافة سُكّر لمربّى يختاره من ماركة St Dalfour (سان دالفور). ترى جميع أشيائه دون خفاء.

يُلاحظ حرص الوقت على حياتهم وعلى تراتبية حاجاتهم دون ملل. تنتظم الحياة في حركة واحدة. يرضى أن يكون على ما يملكه من حدود التقليد المقدّس لمكان يُنتج سلوكه أولاً، من بلده البعيد.

في باريس، مع طلال وغيره من بلده، أن يطلب ما يُريد يُعَدّ من باب الحرَج القاسم؛ لذا يصقل رغباته فيما يأكل، وبالأخصّ فيما يشرب. لا تتعجّب ماتيلد إن تعرف سببه في ألّا يشرب مثلاً أمام السيد خطّاب وإن يطلبه رئيسه ذات مرّة: كن كما أنت يا طلال...

يجتاز ما يسمع بعدم الفهم؛ فقط ليُبقي لشخص رئيسه احتراماً يُفضّله على نحو يراه مجدياً. ويُقرر أنّ هذا سبب وجيه. جميع رفاقه يُؤمنون بهكذا تصرف أمام السيد خطّاب تحديداً.

***

سيعتذر النّادل عن عدم تقديم المطعم لوجبتي المفضّلة «سُوغِي دا نِيُو»، وهي قطعة من لحم الغنم. لن أعتمد على قائمة الوجبات، وماتيلد ستتكفّل بالاختيار؛ طالما كعادتي سأُهمل القائمة لأُواجه اعتذاراً متوقعاً. يلزمني أن أتعرّف على قائمة المطعم قبل مباشرة دخوله كما أراهم يفعلون. سأكتفي بما يُقدَّم مع الشمبانيا، من قطع الخبز تعلوها شرائح «سَلَمُون» بلذعة لن أطيقها وأُكمل ما أبدأه. هي ستختار شُورَبة البصل الفرنسية. ثمّ ستستحلي لنا نوعَيْن من السمك «سُول مونيير» و«بار».

يتطلّب هذا أن يستبدل النّادل شوك الطبق الرئيس. سيكون شراب العشاء نبيذاً أبيض من «شَبْلِي» ـ Chablis ـ.

لو أنّ للهاث الروح صوتاً ستكون الحجرة حشد أُوركسترا. لو أنّ لشجر الصمت حفيفاً سيكون المكان معمل جنّة. ستجلس أمامي بصدر له نضوج الأمل في قلبي. حتّى للسكّين والشوكة في طبقها نغم سلس.. لا تأتي بنشاز فيهما لانضباط حركة تناولها للوجبة والمناوبة الصحيحة بين أدوات الأكل. لو أنّ لكلماتي الحبيسة صوت أدوات أكلي لتصرخ من الحجرة بسر عاشق يُخَلّد.

بانتهائنا من الوجبة، قد تنصح بتشكيلة أجبان من «رُوكفور، سان نيكتير، بو فور».. هذا الأخير لن أجتهد في ترجمة اسمه؛ لأنّه عَلَم، والعَلَم لا يُعرَّف في لغتي الأمّ، مثل الحبّ في تصوّر ماتيلد إن أسألها. المؤكّد أنّ في اسم هذا الجبن دلالة على الأميز. سأقترح أن نأخذ الطلب على طاولة الاستقبال الخالي في الأسفل. ستصمت دون اعتراض واضح. في القريب من الوقت، بحسب التوقع، وعن مقترحي هذا تحديداً سأفهم حماقة ما أرتكب، وعلى العم كميل أن يصرخ في وجهي: «يا حمار!».

من إطلالة زجاجية للمطعم على رصيف «أُغسطين العظيم» سيسير ليل مع شابّات ورفاقهنّ أمامنا.. فراشات المساء بأحذيتهنّ ينقرن الأرصفة في ساعة متقدّمة.. الفتيات المبثوثات لندف من كلمات الهوى تأخذهنّ على محمل الليل وحتّى شمس السرير.

حاطب الهوى..

أبو سُمير؛ بل (أبو بُريص) كُنية تفرضها الحال بعد أن يتخفف من وطأة شَمَال بلده، وحدّة عاداته، ويعتدّ بشارب الفتوّة. بعد أن يثلم سيف الشجعان، من أهله، ويحفّ شارب الفارس تماماً. يلقونه يجتهد لينضج الليل على يدَيْه. في المقاهي

يترصّد بحنكة ذئب متمرّس، ويتجمّل في الكلام إلى ما يخفّ من فتيات. يفرك من الوقت كلّ دقيقة. يتماسك مع مقترحات الليل وكأس رصين دون كلل.

هذا الاجتهاد له فوائده المحَقّقة للعيان بين الصغيرات.. النّادلة، البائعة، المسوّقة. جميعهنّ يتحوّلن إلى رفقة عاجلة بجدولة خاصّة يفرضها على البقيّة كيفما يقع نرد الذئب. في جميع المحاولات يُساعده تواطؤ الرفاق مع رغبته. أحياناً قد ينتهي بفتاة من بقايا سطوة الشيوعيين في شرق أُوروبا، أو لها دم سافر من القتلة في صقليّة، أو سليلة جزيرة العرب. لا يُمانع عامر صُبيح إن هذه الفتاة تأمل تصحيح إقامتها بتزوير أوراق رسميّة. بطبيعة الحال مع تصحيح جهات القلب وهي الأهمّ. يتعهد ويتكفّل بأنّه قادر على اختراق مؤسسات لتحصل على نظاميّة عيشها في باريس. ينتظر لقاء هذه المساعدة قيمة حميمة بأشياء يُتّفق عليها فيما يسنح من الوقت، أمّا (أبو بُريص) فله سبق المعرفة بطرق تقليديّة دون تغيير.. ولا يختلفون على أنّه، بلا منازع، حاطب الليل عند طريدات الهوى.

***

من مطل مغبوش بسلوك نهر السّينّ ومزاج تشرين.. وإن يتحقق هذا المشهد، أنا وهي من خلف الزجاج سنلحظ زخّات الألوان في بزّات السهر. في سيل الليل وبريق الوقت بين عابرات وعابرين. سأظنّ أنّني ألمح في ملابس الصبايا والشباب أكثر من عيد للّون الغافي. كأنّني أحضر قبل شهور مع ماتيلد عَرْضاً من السحر الباريسي. قلبها سيلمع بخفقة إثر لِبسٍ أو قَصَّة لإحداهنّ تعبر خلف الزجاج. تحت سلطة المشهد عليها أن تهمس باسم المصممة الفرنسية «سونيا ريكيال»، في عرض ربيع العام 2007م. ستكون ألوان الشتاء ذات سيطرة واضحة فيما يُقدّمه صفّ العارضات. هذا لو أُدرك الربيع مع ماتيلد حينها. البيج يفخر بقيادة

المجموعة، ومن بعده الرمادي يتّقد بحميمية معدّلاتها ترتفع شتاء. هكذا تتدرج التشكيلات حتّى يتسيّد الأَسود. قطع تأتي من حاجة المصممة لاستقلال صريح وتُؤمن به ماتيلد؛ لما تشحنه من ابتكارات لا تنتمي لسواها. هذا يتّضح في حِشمَة مبلغها الاختلاف دون تحيّز لأيّ تحديث أو فئة عمرية. تحت ضوء صاخب سنرى تمايل العارضات في فساتين منسدلة رقيقة ترسم معالم القوام. تمر مختارات صوفيّة وكنزات لا تخلو من نعيم الريش. نعومة تظهر في ياقات عالية، وتلفّها معاطف من قماش «الكريب». السيدة «ريكيال» تتعمّد حدّة التصميم في معظم السترات وبناطيل جلدية تضيق. قطع نافعة للوقت البهيج، بينما الملمح الرجولي الخاطف فيها يكشف أُنثى صارمة. سأنتشي بهكذا تفاصيل فيما لو يمر ربيع العام 2007م. من جانب، يخصّني أنا وحدي، أتقصّى زوال موانعه، أتمنّى على ماتيلد، أن تأتي قبل كلّ الوقت. أفترض وجودها في الأيام معي؛ لتصطحبني إلى عرض أزياء ناصع في كلّ شيء. هناك ستزيد في وصف المصممة، وستتّفق معها في الجرأة.

سأبدأ لها حديثاً عن كائنات تلمع بألق في ليالي باريس، وعلى وجه عارٍ باللهفة، سأقصد الصبايا.

جميعنا يرفع راية التخلّي عنهنّ؛ لكون اللهاث خلفهنّ يتطلّب منّا الكثير، أقلّه وسامة خاطفة نتخفف منها بفعل حكمة من بلادنا. حكمة نُؤمن بها جدّاً خارج الحدود، وتقول «الرجل لا يُعيبه شيء». تمسّكاً بالحرص على الدعم قد تُضيف ماتيلد: «لستم أمام مشكلة اهتمام فتيات أُوروبا بهذه الحكمة الواعدة.. فهنّ لا ينظرن للشكل». إن يتمّ هذا التعزيز سيُكرّس إصرارنا على منال يليق، أو أحدنا سيقبض بهجة ما. مع تمام اعتزازنا بإيماننا الثابت أنّ الفرص قادمة، ولا تأتي.

في جميع الأحوال يهمّنا أنّنا ببزّات الروح وحدها وخالية من زيف

الشكل. عند انتهاء الليالي خالين لن نغفل، فنختار أخفَّ الضررَيْن، ضرر اللهاث مجدداً أو ضرر الخيبة. في بداية أيّ محاولة يبدأ أولنا أبو سُمير بالتعفّف، فهو شيخ الطريقة. نتخفف من الطموحات الباهظة، ونرضى بالنزول إلى ما يسهل.. ذات مرّة قد أحكي لماتيلد عن فتاة من بلادي تأتي بشفاعة لدى عامر صُبيح وتسأله عن الإقامة في فرنسا. يتحقق له سبق المعرفة، وفق اتفاقنا في معارك الهوى؛ فلن يتجمّل بحديث إلى حضرة جنابها أحدٌ سواه. لن تكون أكثر من باحثة عمّن يحملها في ليل باريس الشاهق. بعد يومَيْن تزور ولد السالم في منزله. أجلس إلى جواره على أريكة ضيّقة. هي لوحدها تجلس ولها بلوزة من حرير. فتحة النحر تدلع حتّى منتصف الصدر بأزرار مهمَلة ومتاحة للتلصّص وخالية من «سوتيان» بغيض. كلّما تنهض لشيء على طاولة أمامها تنحني فتتدلّى ثمار صدرها من دلعة البلوزة. لحظتها نرفع النظر إلى سقف الصالون تجنّباً لمزاحمة صاحبنا في سبقه.

«مجموعة من الجوعى الأغبياء». هذا أقلّ وصف قد أسمعه من ماتيلد إن تعرف حكاية واحدة عنّا، نحن غُزاة الهوى!.

ستقف في حيرة. سينبت منغّص من لا شيء. سأعتقد هذا لو تقف تنظر إليّ كأنّها ستُنكر ملامحي. ستتلاشى أيّ خطوة ستُشيد خريطة باريس معها. ماذا ستعني إن تقول لي: «أظنّ أنّنا بعد العشاء...». ستزفر فراشات صدرها، لكنّها في حدّة واضحة لن تستطيع إطلاق كلمة من رمح فمها!. لن أفهم شيئاً إن يحصل هذا وستزيد من موقفها بسحب «البُونشُو» من يدي لترتديه. سأُفضّل أن تأخذها سيارة إيقرِك متى تُطلّ الثانية عشر ليلاً، وعندها أتحسّس جرحاً ما، فأشعر أنّ موعد ذهابها خنجر في النحر. ستقف في تعجّب مملوء بنار. لن أفهم لماذا؟!. كلّ ليل سينقص مقدار نجوم مهولة إثر مغادرتها إن تتمّ على هذا الحشد من الاستغراب. تزيد

من انهيار اللحظة صديقة تغيب | أيّها العاشقون الموحدون، لا تتركوا للوحش أن يلتهم الوقت، قبل أن تُغنّوا لعشيقاتكم أُغنياتكم... |. يلزمني أن أضحك من شرّ البليّة، فأنا بلا أغاني.

سأُتابع ما تبقّى من بهجة.. ناقص الروح، وأُشاهد. فتيات، في ما يتعثر من وقت الليل الأخير، يمشين حافيات، ربما لتأخرهنّ عن المواصلات. يتمكّن فيهنّ تعب من أحذية عالية. عليّ متابعة مَنْ تحمل حذاءها بيدها، ومَنْ بصواب الحبّ يحمله عنها صاحب. يسرن بخفّة السّينّ، فلا يُثير مسرى موكبهنّ حفيف سرعة. تنعم أقدامهنّ العارية بملمس شفيف على أرصفة لها صمت كثير. لم يعد للأحذية، عند تلك اللحظة، نهب اللحاق بموعد أو بوميض ملهى. ترتاح الأرصفة لراحات أقدام من غمام ولها سَيْر رهيف.

***

العم كميل، إن تأتي ليلة «لابيرُوز» بتلك التفاصيل وتمضي، سيصرخ في وجهي: «يا حمار!». سأفهم منه أنّ الفتاة، وأنت الأقرب داخلها، إن تأخذك في ليل وأناقة، فعليك أن تُنهي الأمسية تحت سقف أمين لرغبات نهِمَة. لن أعي هذا حتّى في مستقبل الأيام. يعود مشدّداً وصاياه: «المرأة دوماً تحبّ في الرجل أن يُحقق لها ما تجهله هي». أُعيد الفكرة عليّ بتعجّب: «أن أعرف لها ما تُريده ولا تعلمه هي!».

بِن يزن باستطاعته أن يدفع بأيّ قصّة إلى غير شكلها. يُجرّد أولاً شخوصها من ملامحهم وروائحهم وهويّاتهم. يمر بكلّ شخصيّة ليهبها صفات جديدة. ينسج خدعات السُّكّر لتستوي الكعكة على شكل مختلف، إلى أن يضع أمام الجميع قصّة مغايرة. له حذاء فَطِن اللّمعة وخطوة حذقة. كلّما يحلّ حديث عن الحذاء يستعرض تاريخ اللقاء الأول به وبلون العسل من بلاد المغرب. لن نقف عند حذاء كما أفعل معه

هو كراكض في باريس. يحكي عن أول مجيء له من اليمن طالباً. يصعد المترو ويُواجه شحّاذاً يسأله من فضل الله. يُناوله خمس سنتات، شاكراً لنفسه كرَماً يرتدّ في وجهه عندما يرمي السائل قطعة الهبة بغضب: «إن تُعطِ فاعطِ باحترام!». إنّه التليد بلاده في الزمن وعليه أن يُعيد مفهومه عن العطاء. لكن مَنْ يقول لشحّاذ إنّ هذا القادم من بلاد الله، اليمن السعيد، والخالية من برامج التبرعات الخارجية، لم ينس الكرم لكن ليس لدَيْه ما يُعطيه لفرنسي متشرد.

ومن مماحكاته.. يأتي أنّ الطالب «ممادو» يتدرب في مقرّ عملنا، وفيما بعد يتدبّر له بِن يزن وقيعة؛ فيقول له: «يختارني السيد رئيس المكتب ليرتبط عملي به مباشرة، أمّا أنت فتكون تحت إشراف الأستاذ طلال»، عندها ينتفض «ممادو» برفض هذا التقسيم الظالم: «تا الله.. تلك إذن قسمة ضيزى![1]».

أمّا ما قد أُخبر ماتيلد به: «بعد إتمام مشروعه يُسِرُّ ممادو إلى بِن يزن بأنّ حال موافقة المكتب على تدريبه لم ينم ليلتها». يطوي جميع الوقت يُفكّر بقدسية «أرض الحرمَين» وكيف يعمل مع أهلها. يبيت يتحسّس جلالاً إلهياً يُحيط به في أيّ خطوة من فترة تدريبه. يُمنّي النفس، ويُجزل في الوصف. يقطع ليله يُجدول كلمات طاهرة تُقدّمه لذوي المكانة الطاهرة.

---

(1)ـ **في حديث بِن يزن عن ممادو:** هذا المتدرب لم يُلوث في قلبه حتى يلتقي بطلال. لسانه لا يتوقف عن لغة القرآن في حديثه اليومي معنا. دلالات اللغة لديه مرتبطة بما يتعلّمه في القاهرة (جامعة الأزهر). ممادو لا يظنّ أنّ هناك من يُكذّبه، وكل كلامه «تالله، وأيم الله، وباسم فالق البحر لموسى...».

ـ **يضيف بِن يزن للإطاحة بلطف طلال:** إنّ الأستاذ طلال قادم من بيئة لا يأمن أحد فيها للآخر، لذا فهو ينظر لممادو المنظار المتسخ ذاته لتلك البيئة البعيدة. ويتساءل بضحكة: أيّ وحل يُنتج هذه الأخلاق؟.

ستضحك ماتيلد من صفة الجلال، وأعتقد أنّها ستُوجّه تهكّمها لي: «لا أستبعد أنّ المتدرّب سيُضيف لتجربته معك الكثير من القدسية». سيُؤزّر سخريتها بي تعليق بِن يزن على سرّ «ممادو» لو تعرف، فما إن يتذكّر تدريب هذا الطالب لدَيْنا حتّى يضحك بجديّة مَنْ يختلط في داخله التعبير عن مُصابٍ غريب، ويُخبر الجميع: «الأستاذ طلال في أول أسبوع من التدريب يضرب على مؤخرة الطالب المتدرب، ويقتل طموحه في أيّ جلال ينتظره من مقرّ عملنا».

وعن ليلة «لابيرُوز»، إن يتوقف الجميع عن الحديث فيها، يعسف بِن يزن حكايتها للسخرية بي: «الأستاذ طلال يمضي سهرة مجيدة مع إحداهنّ تُهيئ له ليلاً كبيراً. تئنّ بحاجتها لرجل عساه يكون فيه!». يستصغرني ولد السالم: «تقول الرجل وليس طلال...». رغم الضحكات، يُكمل بِن يزن: «يقضي ساعات أمامها يشرح لها عن كتاب (اللّامنتمي).. عن بطل البير كامي في رواية (الغريب) ويُؤكّد لها أنّه شبيه لشخصيّة مصطفى سعيد في رواية (موسم الهجرة إلى الشمال). هي يأكلها الملل من بلادة الوقت معه. مثقف دعيّ كما تدسّ عنه في نفسها. معذرة أستاذ طلال هي تقول هذا. الليل يجرف العُشّاق إلى آخره. الأستاذ طلال ينتقل للحديث عن كتاب (الله في رحلة نجيب محفوظ) ويمتدح المؤلّف طرابيشي بغضّ النظر عن خلافه مع المفكّر المغربي الجابري. لا أذكر اسمه كاملاً الآن. يهمّكم معرفة آخر ليل الفتاة مع هذا المثقف. الأدهى أنّ الحديث يصل به إلى رواية محمد جبريل (النظر إلى أسفل) ليطفر في عينَيّ الفتاة أمل أنّه فهم أخيراً.. فهو يتحدّث عن الأسفل!». يضحك الجميع هنا مُطوّلاً. يُفكّر أبو سُمير: «الفرصة حاضرة يا طلال!. أنت والثقافة في الجحيم».

يُكمل الحكّاء بن يزن: «عليك النظر إلى أسفل. اترك الكتب واهتمّ بي. هذا لسان حالها وهي تكرهه في تلك اللحظة. تنفجر بسؤال واضح

وصريح الرغبة. تسأله دون خجل عساه يشعر.. هل تُريد شيئاً من تحت؟. وتأمل أن يتحرك أسفله. مباشرة يُفكّر بشكرها ويسألها بودّ.. لو تتكرّمين ساندويتش تونة وعلبة كوكاكولا!». ينفر الليل بضحكات لا تتوقف عليّ وعن محاصرتي.

***

«لم أعد أملكُ فضولاً يكفيني لمعرفة مستجدّات الجرح إنّما أملك تردّداً سيُعفيني من الحماسة لأيّ تجربة قادمة». هذا إيقرِك طالما ستسأله ماتيلد عن آخر المعارك. هو سيُعاقب فضولها بدافع المداعبة بهكذا ردّ غير متوقَّع من شخصه تحديداً. لو يُباشر تلطيف اللحظات على طريقته، حتماً سُيضيف: «لم أعد أملكُ تحدياً كافياً لمماحكة الأوجاع إنّما أملك خوفاً شهماً عليه أن يُخففَ من ادّعاء الحكمة». هنا عليها أن تستدرجه إلى شيء آخر خلاف هذا الوجع الخاطف. ستُذكّره بمتجر «بُول باركمان» ـ Pp[1] ـ. سيُرسلون أنّهم يتشرفون بزيارته هذه المرّة في لندن؛ لأنّ طلبيته جاهزة. عليه أن يُشرق بالتفاتة نحوها، وفي هدوء سيشكر لها تذكيره بهذا. كفّاه لن يرتفعا لاقتراح احتضان ما. سيقبضان على ذراعَيْ كنبة تفقد حماسته. سيُقدّر صعوبة سفره قريباً، رغم حرصه على زيارة لندن. سيتوجّب عليها أن تذهب عنه، وقد تختارني لصحبتها. هذا يفرضه تمام الصورة اللازم كمالها في تقديري، ولو بسفر متعجّل معها.

عندما نزور متجر الأحذية، سيرحّب بها كبير العاملين. سيمنحنا جولة في معمل مذهل. سيبدأ من حيث يأخذون قياسات الزبائن ورسم النموذج بحِرَفيّة فائقة وحتّى تغليف الحذاء. سيُدهشنا كثيراً بمعرفته لتاريخ النبلاء ووفائهم لهذا المتجر. ماتيلد ستُشير إلى أسماء على قطع ذهبيّة تُزيّن

---

(1) ـ لا يهمّ ماتيلد اختصار المتجر (Paul Parkman) بحرفَيْن، فمناهضتها لكلّ ماهو إنجليزي لا تتوقف.

أدراج خزانة كبيرة. إنّها أسماء رجال من عائلتها، وسأرى أُسمَيْ إيقرِك ووالدها البروف ماتِيُو. ستحتوي تلك الأدراج قوالب أحذيتهم دون تعديل في المقاسات بالطبع. قوالب لها سنوات طويلة تشي بعراقة هذا المكان ورُوّاده من عاشقي الطراز الإنجليزي. على تحفّظها المتشدد تجاه أيّ منتج انجليزي، ستُريني ضرورة توافق الحزام مع الحذاء باللون والنوع. هذا من أصول الامتثال لصرامة التأنّق. وهي تتحدّث عليها أن تغتصب لي ابتسامة نحيلة لتُواجه سؤالي عن درج بلا اسم جوار الدرج الخاصّ بوالدها، وتصمت.

هذا المتجر سيزوره ذات مرّة الأمير ماجد، نجل الملك بِن سعود. سيشتري، من فرع باريس، زوج حذاء واحد فقط. يعرض عليه البائع أن يأخذ عشرة أزواج من أحذيتهم مثلما فعل رجل أعمال كويتي. يردّ عليه الأمير: «لماذا يشتري عشرة أزواج؟!.. هل ينوي العودة إلى الكويت مشياً؟!». مجدداً ستغتصب ابتسامة إن تنصت لحكاية أمير في متجر أحذية وأنقلها بأمانة عن ابنته ذات الريادة في رعاية فنون عالمية.

أثناء عودتنا ستُخبرني عن الدرج الخالي من الاسم. سيحتوي رسومات لنماذج أحذية تُفضّل أمّها أن يلبسها البروف ماتِيُو في صحبتها. ستُعيد رأسها إلى ساند المقعد بميلان سترغبه تجاه النافذة، وعسى غصّة لا ألحظها. ستحك سبابتها زجاج النافذة، وعيناها في البعيد لا يحدّهما سوى بحر «المانش» وسيختفي بعد قليل. سأرى الكون يأوي في عينَيْها إن تقول: «في سنوات يحبّها.. يطلب من أمّي أن تختار له قَصّة ولون الحذاء». لن نتحدّث عن القطار وسلاسة اختفائه كاملاً في النفق، ولا عن مدن صغيرة يعبرها كريح ساكنة، دون توقف عندّ شطرَيّ البلدَيْن، بريطانيا وفرنسا. مقطورات، ضخمة وحثيثة على حذو الحديد، تفرض التلويح ولا تعرف معناه. عليّ ألّا أذهب في انتظار الدفء من قطار. كأنّني

سأراها.. تعضّ شفتها السفلى والزجاج يعتم عن البحر بظلمة النفق، وتعود إلى أمامها خافضة رأسها. متى يصير نور الخارج متاحاً سيحظى به نظرها الناهض ببريق خاصّ في تذكّر والدَيْن يفترقان ويجمعهما دُرجان في متجر أحذية. ستهرب إلى يابسة فرنسا، فهذا المدّ الملاصق للمحيط سيُذكّرها بمدينة «لُوُ هآفر» ووالدها هناك.. جنوباً. سألعن سؤالي عن الدرج. سيلزمها بعد دقائق ثقيلة جدّاً، أن تعود لانتشالي من انزعاج تعي سببه: «هل تعرف.. ما يزال يطلب منّي كلّ سنة أن أختار له زوج حذاء». سأعلم أنا أنّها ستختار الرسوم ذاتها من درج لعين، ولكن بتعديلات بسيطة تفرضها موضة الموسم. بالطبع موضة لن يعرف ولد السالم ميقات ميلادها السنوي. أبتهج برجاء سيسألها أن تتوقف: «في هذا القطار مقعد يُقابلني لن يعرف الحزن لأكثر من مرّة.. أرجوك». سيُبشّر وجهها قبل أن تسمع الرجاء بالبدايات المتألّقة، وسيدفعه للحياة أكثر شروقُ النوافذ بغروب هادئ. الشفق سينتشر في مقطورة نستقلّها، وعلى درجة لن تعرف الكدر بعد تلك اللحظة. القطار ينساب في مجراه وعلى سرعة مذهلة، دون ضجيج. يُسمّونه «الذئب» ـ Le Loup ـ، فبمقدّمة محدودبة لهذا القطار، ونفخ الريح من حوله، كأنّه ذئب في خبّ مثابر نحو طريدته، ودون صوت يفضح انقضاضه. إن نصل محطّة الشمال ـ Gare du Nord ـ سأرى أطفالاً يركضون قرب الساحة المحاذية للمقطورات الهائلة، وطفلاً يزمّ شفتَيْه، وأسمعه: « لُو لُو.. لُو لُو» ـ مرحباً بأحد الذئاب الحديدية.

لماذا إيڤرِك يكتئب، قبل سفرنا لنهار واحد؟!. سأسأل إن أرى العم كميل. سيعود من سوريا، بعد حضور جنازة شقيقته. سيكون متجهّماً. لن ألحظ دمعه. سأعتقد حزنه على المعتاد مع فجيعة الموت، ويُنفي أن تكون له أحزان من قبل. سيحمل معه هدايا من الشام، منها قطعة قماش من «البُرُوكار» الدمشقي الفاخر جدّاً.. لإيڤرِك، حتماً سيفرح بها وسيزيد

على امتنانه بقول يعنيه: «الحزانى لا يُقدّمون الهدايا!»، فيكون ردّه: «الموت لم يكن يوماً سبباً كافياً للحزن».

لن يبكي رحيل والدَيْه، قبل أربعين سنة، أو مَنْ يلحقهما من أُخوة وأهل. عند أيّ خبر وفاة يقول: «هذا يحصل». يبقى في باريس، والوجع ليس من طبيعته المكوث. الحزن ليس من عائلة باريس.. سأُزيد هذه من طرفي تحقيقاً للولع بسخاء هذه المدينة.

هو لا يرى أنّ الألم سيُقيم معي دائماً. بمرور سنوات كثيرة على عيشه في باريس يتناقصون أهله بعيداً. يُؤكّد أنّ الرحيل الأخير «من قبيل ما يحدث». ليس هناك أقرب ولا أبعد من هذا الموقف الواضح مع الموت. يحضر جنازة أخته ليُنهي أوراقاً لازمة للدفن وممتلكات لن تُرغمه على البقاء لمدّة أطول. سيستدرك أنّ باريس باقية هي أيضاً في كثير تحوّلاتها وعديد أشكالها. بينما أنا أنادي: «أيّها الحزن أؤثرك برعاية واهتمام منذ نعومة أول جرح، فشبّ عن كتفي، اِكبر كابن يستقلّ بعائلة وينسى ملامح الجدّ».

بادرة الوجع..

ماتيلد لا تجد لإيقرِك أسباباً مباشرة في حديثه الأخير. كلامه يحزّ في روحها مثل نَصْل.

الوحدة ناعمة لتتبنّاها في أول الأمر. عندما تسمن داخلك تبدأها بالتشكّي أو بالتنظير عن امتيازها!. هذا كميل من فرط تقدّم الحياة فيه يُحاصر الجميع بتؤدة تسليم لا رجعة عنه وبخشوع تمثال، كلّما يأتون على الحديث عن العزلة وتحلل الزمن من العائلة.

إيقرِك لن يكون أباً إطلاقاً. الأبوة وظيفة دائمة وشاقّة. منذ أربعين عاماً، بعد وفاة زوجته، يُقدّم استقالته من مهام

العائلة. يتخلّص من أيّ التزام عدا البحث العملي النابه. يُفتّش عن دوافع التحدّي فقط. هنا تُضيف ماتيلد تعجّبها من التزام طلال، ومَنْ ينحدر من بلده العربية، بالأبوّة حتّى قبل الزواج. تسمع أنّ الشخص منهم يُفضّل اختصار اسمه بكلمة (أبو). كمثال نُورد أبا سُمير هنا، لا (أبو بُريص).

من ماتيلد قد يبدأ الحصار على طلال: لماذا يُحمَّل الشخص وِزر الأبوة حتّى قبل زواجه، يُرغَم على فكرة الامتداد وجريرة ما تحمله الأبوة. القبيلة امتياز يجزّ الكاهل. كيف يتقرر هذا الوِزر الهائل قبل أن يُقدّر القدر فعلته؟!...

كميل يرى أنّه بلا رعاية جيّدة تُبرر له ومارتين أن يكون لهما ولداً ولو بالتبنّي.

طلال في الاستديو يتساءل ماذا يعني أن يكبر طفلك أمامك سوى أنّك تَعُدُّ له الأيام في مقابل نقصانها منك. لو يسمعه توفيق سلّومي. عليه أولاً البحث عنه ليعتذر من هذا التساؤل عن نمو الابن. لن يَقبل منه أكثر من أن يخرس. العائلة سقف العافية بالنسبة لتوفيق.

طلال يعود لحيرته ويُضيف: هكذا هم الأخوة، كالأولاد يأتون للأخذ فقط. إنّه إرث الأبّ، الإرث المقدّس. لا يتوقف قلقه على أُخوة يخذلونه في كلّ نافذة أمل يقتطعها من صحته ووقته وحتّى من ماء وجهه. إنّها العائلة ولا بدّ من أحدها المُتْعَب!... لا يكون أباً هو الآخر.

***

نَصْلُ الرغبة في حكايات الأيام يمضي عميقاً، وهكذا يشبع داخلي موت طموحات قبل إنجازها؛ ولكن عليّ أن أُكمل..

حتى في لحظة ضمور الكلمات، وانطفاء انتعاشه سيعود إيقرِك بعبارة ستُبقي ماتيلد على مورد الحياة منه. ستنزعها من السؤال عن تكدّره،

هذا وهي ستسمعه يقول للعم كميل: «ما يُرعبني في الموت أنّه يسلبني القدرة على أخذ الأمل معي، فخطط العودة هناك لن تتوقف لدَيّ». سيطول حديث العم كميل في الموت. سيُنهي الحديث عنه أيضاً دون عميق اهتمام منّي. سيصلِ منه موجهاً كلامه لإيقرِك: «من المستحيل أن يُوجد موت شهم»؛ ولن أُواصل متابعته لأنّه يُفزعني بفكرة المواجهة مع الثابت. يذهب إلى المطلق في داخلي. لن أهرب ولكن أبتعد قليلاً؛ فلي من الله ما أُحِبّه في العم كميل وكثير.

> الموت، دوماً يحدث كتوضيح قاطع، وكأنّنا طيلة الوقت لا نُجادل هذه الحياة بالمحاولات..
>
> جدير به أن يحدث كتجربة.

مستقبلين شارع «رِيْنّ» حتّى نهايته، سنتركهما في مقهى «لُو دُو مَاقو».. المقهى ستلتقي فيه ذات يوم شاباً عربياً. سيُقدّم أطروحة عن تاريخ الشرق في السوربون، بالشراكة مع جامعة ييل الأميركية. ستكون له مساعدة باحث سترىطها بماتيلد أمانة المكتبة وتعمل فيها يومَيْ الأربعاء والخميس. ستُزوّدهما دوماً بكتب عن تاريخ الارستقراطية وقيَم النبل. دون سؤالها عنه ستنتهي إلى قناعة خاصّة بأنّه من عائلة لها عِرقٌ مديد في المُلك. ستتذكّر أنّه يرفض الجلوس في المقهى على أيّ طاولة تحمل اسم أحد علامات الثقافة في مئة عام يبقى صيتها. سيرفض تسابق أبناء أرضه في تلك العادة. هنا سأخبرها عن مفكّر مصري يدخل المكان للجلوس ويقول له رفيقه بفرح: «طاولة سارتر شاغرة»؛ ليردّ عليه مستنكراً: «أنا عبدالرحمن بَدَوي أجلس على طاولة سارتر!». ماتيلد ستتفهم مكانة هذا المفكّر الكبير، والمنحدر من حقبة الباشوات في مصر الملَكية يوم تكون.

ستقول: «الأشياء لا تزيد من حجمك..». لن تُصيبني في إيماني

بالأشياء، فأنا لا مال كثير ولا فكر شاهق حتّى أتطاول بشخصي وفي أَنَفَة أرفض طاولة «سارتر» أو «ساراماغو» داخل مقهى «لُو دُو مَاقو». في الحقيقة لا يعنيني البتّة الجلوس على إحداها.

ولأنّ الخريطة دائماً ستَصَدُق معها، ولن تخذل حماستها، سنُكمل، في اتجاه، طريق «مونبارناس»[1] وسنجد على الركن الأيسر من تقاطعه مع طريق «سان ميشيل» «حقول اللّيلك»[2] ـ La Closerie Des Lilas ـ، مقهى ومطعم. إيقرِك سيُحدّثنا عن حياكة الثوّار فيه لمؤامرتهم على قيصر روسيا الأخير. من المناسب هنا أن يذكر، ودون تحفّظ يتطلّبه الحنين إلى اليسار، عن القائد «لِينين»: «إنّ المثقفين هم أقدر الناس على الخيانة، لكونهم أقدر الناس على تبريرها». من المجدي أن أبتسم هنا، وأتداخل بقول صديقة تغيب | **ربما أحياناً نضطرّ لخيانتنا وفاءً لمبدأ ما، لعائلة أو قبيلة ما،**

---

(1) ـ (مونبرناس) ميدان وبناية ضخمة تكاد تكون الوحيدة تنتمي للهندسة الحديثة وتقع في الدائرة (7) من باريس. جميع المباني الشبيهة لها تقع في الضواحي المحيطة بباريس كـ«لا ديفانس» و»بورت نيي». هناك أبراج سكنية تصطّف على رصيف قْرُوُنيل في الدائرة (15). يهرب طلال من السكن في تلك الدائرة لكثرة الخليجيين فيها من مُلّاك ومستأجرين.

ـ هذا عن كميل عن استمرار باريس على شيء من الحياة الأُولى والعمارة والناس، ويُؤيّد طلال فيما يفعل من هروب.

(2) ـ **يهمّنا أن نُضيف:** مقرّ هذا المطعم منذ (1847م)، يقع في ناحية تُعرف بحيّ الرسّامين والكتّاب، في مقتبل القرن العشرين، وأهمّهم من أميركا إِرنست هِمنغواي، ويسبقه الشاعران جرترود شتاين وعزرا باوند ونتالي كليفورد بارني.

ـ قد يذكر إيقرِك: العازف كلود ديبوسي يُبهر العالم برفع اسم الموسيقى الفرنسية عبر هذا المقهى المجيد.

ـ بينما كميل يقول: لا تنس معهد باريس الموسيقي: (Conservatoire de Paris) ودوره في إشراقات العالم من غناء ورقص. وجاك بريل يسلب صبايا فرنسا وهو (كومة البكاء) من بلجيكا.

وربما كثيراً نخوننا وفاءً لأصنام تسكننا !. العم كميل لا يرى مداخلتي أبعد من تنصّل مثقف صغير يسكنني، ويعرف أنه مستعار ومهمّته أن ينتحل حكمة الآخرين. ستضحك ماتيلد بحجم التهمة الناضجة. الموقف لا يتطلّب تمرير اسم «البير كامي» المولود في الجزائر، وأنّه يلزمه في تراثه أن نجد ما يشفع له كأديب وضوح موقفه من الجزائر؛ عملاً بمقولته «الحقائق الأولية هي آخر ما نكتشف». عليّ أن أُسجّل موقف الجزائري «كاتب ياسين» حين يقول: «أكتبُ بالفرنسية لأُخبر الفرنسيين أنّني لست فرنسياً». على إيقرِك أن يُدافع عن « كامي» لكونه موزّع بين هويّتَيْن، الأُولى فرنسية ـ إسبانية هجرة وأصلاً، وجزائريّ ميلاداً ونشأة؛ لذا فهو يقف دوماً من (الجزائر) موقف المصالحة ومبادرات التسوية. على هذا الوجه من التفصيل العم كميل ينحاز إلى قوّة «جان بول سارتر» الليبرالي إلى حدّ منازعة الحكومة الفرنسية ومواجهتها للاعتراف بما يحدث في مئة وثلاثين عاماً من احتلال الجزائر. يذهب إلى أبعد مدى عندما ينشر كتاب «عارنا في الجزائر». من خاتمة النقاش سأفهم أنّ «سارتر» لا يخشى شيئاً لأنّه فرنسي ولا تتنازعه أيّ هويّة أُخرى. من خارج النقاش أن أُشير إلى أنّ هذا الأخير يرفض جائزة نوبل لأنّ «كامي» يأخذها قبله.

إيقرِك سيتدارك غرامه بهتك السائد وهو يستعرض طوابير المقاتل مع البلاشفة، وأسيجة العزلة هناك، وقبل أن تصل حتّى نصف برلين. بوابة الشرق، سأُحِبّ لها هذا النعت، فهي مدينة تُشَقُّ بحائط ثمّ تنهض تالياً؛ لتقود أُوروبا وتفيض مدن أُخرى بالغيرة منها؛ «عدا إسطنبول ستعلو»، سأستثني دون اعتراض.

إيقرِك لم يكن في أيّ معسكر لكنّه سيعتدّ بعبارة والده، وهو أحد قادة المقاومة الوطنيّة إثر احتلال باريس، حين يُعلن لمجموعته: «لنمت

بشجاعة»[1]. سيُطلق مقولات الوالد دون تدخل المتمرد القابع داخله. سيُكمل عنه.. مثل لازمة مقدّسة سيُضيف لشخص سيُسدد الرصاصة نحوهم: «رائع ولكن تحتاج ثباتاً أكثر لتُصيب مقتلنا جيّداً». «عندها سيخجل العالم، لأنّنا لم نمت دون آخر عبارة للدهشة»، سيقولها إيقرِك عن أبيه وأنّه يُؤيّد عدم مقاومة قوات «هتلر» حفاظاً على باريس، على»مدينة العالم»، كما أُسمّيها أنا، وتُصان كالعار.

وسيُضيف أنّ اللواء المفوّض حينها «بريجنيف» الروسي ورفاقه الكبار سينقلون ما يحفظ قوّة البلاد إلى شرقها قبل سقوط مدنهم الغربية بيد الألمان. إيقرِك سيُوضّح: «كلٌّ يُحافظ على ما ينقصه مستقبلاً.. نقل المصانع من غرب البلاد إلى شرقها سينفع الاتحاد السوفيتي، وبعيداً عن يد الغزاة، كذا الفرنسيون سيتمسّكون بما سيُبقيهم في صدر العالم». العم كميل سيُسمّي إحدى مدن روسيا الصناعية بـ«مدينة العرائس»؛ فأغلبها نساء روسيات، وأمام زائر كبير للبلاد، سيمتدح كسب رزقهنّ رئيس دولتهم؛ مقارنة بنساء بلدان يمتهنّ عرض أجسادهنّ. سيتدارك العم كميل وجود ماتيلد: «لا تغضبي.. على الأقلّ مجاملة لِمَنْ ينسجنَ الكتّان لخياطة بنطالك هذا». تداركه سيعود إلى تهكّم الرئيس الروسي بنساء «دول الرأسمالية». «الجسد رأس مال ليس جباناً.. يكسب كثيراً». الضربة مواتية إن أذكر اسم «كارُولينا أُوتيرو» كمثال، والعم كميل سيُكمل بقول هذه الراقصة: «الثروة تتكاثر في السرير، ولكن عليكِ اختيار مَنْ تنامين

---

(1) ـ **تأكيداً لمصداقية المقاومة ومرحلتها:** لن يأتي أحدٌ ليُخبرنا أنّ والد إيقرِك هو أحد رجال المقاومة، عند بداية الاحتلال الألماني لفرنسا، ويتخذون مقرّاً لهم في بناية تحمل أحد الرقمَيْن (46 أو 48) من شارع دو فور (Rue de Four)، سان جيرمان. **كميل سيُثني على روح إيقرِك مما يلزم قطعاً اليقين بأنّ والده هو أحد رجال المقاومة، وهذا ما يطيب لطلال أن يتمسّك به.**

معه». سيضحك إيقرِك وسيرى أنّ كلام الراقصة لن يُبرر لبلشفي تعليقه المهين. فيما لو أقيس الزمن سيكون من المناسب وجود تلك الراقصة، فلسانها سيكون أشنع من لسان الرئيس الروسي. في زمنها يُقال إنّ فرنسا لا تحتاج وزارة للخارجية، فهي قادرة على صياغة أيّ معاهدة سلام من الفراش. يُفترض أن يقول العم كميل هذا بدلاً مني.

على ماتيلد أن تزفر ساخرة منّا، وأن تنفخ بشفتيها صوتاً مقززاً ـ يفعلها الفرنسيون مراراً ـ وستقول بتأفف: «الرجال.. الرجال!». سينظر العم كميل وكأنّه يبتسم من المزاج الفرنسي والمتذمر على الدوام. قد يكون مناسباً أن يُخبرنا عن الجحيم كما يتخيّلها «بيتر استينوف» فهي عبارة عن «دقة مواعيد إيطالية، وحسّ فكاهي ألماني، ونبيذ إنجليزي». العم كميل يزيد في وصف تلك الجحيم بأنّها أيضاً «فرنسي ذو بال واسع».

> الشرف خلف الجدار يكون راية عُليا، أمّا في المعركة
> فهو آخر عُهدة يُخشى عليها. يصحّ هذا في عذرية باريس..

سنُكمل السير.. سيكون الوقت مشفقاً بحاجتي. ستُقابلنا ساعتان من حصّة المرجو، ثمّ مساء يطول. سنصل إلى حقول اللّيلك. سأتّفق داخلي على هذه التسمية؛ إمعاناً في ترف الشعور ويهمس عنّي وعن حدسي مع اللغة. سأذهب في تكوين ذاكرة تخصّني دون إدراك مباشر، ربما. إن أختصر أسماء الأماكن فإبعاداً لمشقّة الدقة في ترجمتها لا لابتسار تاريخها.

ستُغرينا أستار الركن الخارجي من عريشة مهذّبة جدّاً ويجدّون في تبديلها كلّما تشيخ. لن تلتفت هي إلى المدخل. ستُشير بأصبعها لأتبعها والتعرّف على ردهة صغيرة للاستقبال. إلى اليمين ركن شاسع يُطلّ على طريق «سان ميشيل»، بينما عمق المكان سيُبهرني بما يبعثه من جلال

الزمن ويُعزّز حيطانه خشب الورد البرّي، إن يبدو لي. الطاولات تختلف أحجامها باختلاف عدد الجالسين، وساعتها ستكون شبه خالية. في المقدّمة، قبل صفوف الطاولات، يُوجد بيانو سيعود إلى عام (1836م) كأقلّ تقدير قبل قراءتي لتاريخ صنعه، لو أتمكّن. له رونق يتجاوز حداثة وقت سأعيشبه لحظتئذ. ونحن أمامه سيفصلنا عنه مقعد فخم بذاكرة قصر من فرط ما يتناوب عليه عازفون كبار مثل «ديبوسي» و»رافيل». ستقف ماتيلد بخشوع للأصالة. ستقبض على يدي إن أتحرك. الصالة الكبرى من المكان بمثابة قاعة، ويتركون في بدايتها مسافة خالية لا شك أنّها للرقص. لن أُفكّر بكثير مواصفاتها. ماتيلد قد تفي بشروحات أكثر عن تاريخ هذه الآلة وتراتب أطوارها عبر الزمن. من فارس وحتّى أُوروبا مروراً بالأناضول، بداية بآلة «السنّطور». ما لم يُثر فضولها شيء آخر ستذكر براعة إيقرِك في رقصّة «الفالس» هنا. قد تقول إنّ البيانو سيخضع لإعادة تأهيل في منتصف القرن الماضي، فتُجدَّد قوائمه وصفيحته العلويّة بشجر الأبنوس، بينما مفاتيحه تُستبدل بقطع صقيلة من العاج. لن أخشى أن أُمازحها: «أنتم الفرنسيون تتبنّون الإنسان والحيوان والنبات»، وستردّ: «الإنسان ليتقدّم، والحيوان ليُغنّي، والشجر ليُخَلّد». لن أتحدّث عن تجارة سوداء نشطة في العاج وكذا محو غابات بأكملها في أفريقيا، ولا عن شراء الأطفال للتبنّي. ستُخبرني بذاكرة مظلمة عن المعارض الاستعمارية، وكيف يسوّقون رجالاً ونساء بأطفالهم من بلاد بعيدة لعرضهم كآكلي بشر في حديقة النباتات الاستوائية.. قبل عقود طويلة. في المغرب تُفرض الحماية الفرنسية (1912م)، ولا بأس إثر الحماية الرحيمة في الرباط أن يشرب الكلب من حوض يسبح فيه الناس. ينتفض الشاب «المهدي المنجرة» محتجّاً ويُسجن. من هذه الغصّة سيلد لبلاد العرب مؤسس «علم المستقبليات». يكتب في «قيَم القيَم» ويشرح

«الإهانة...»[1]. لن أستطيع إكمال عنوانه الأخير. في محصلة المرارة سأفهم من العم كميل أنّ درجة الإهانة تعلو وتقلّ بمستوى تعامل سلطة العرب وشعوبها مع الآخر.

عينا ماتيلد ستتساءلان: «هل هذا ما تُريده؟!». وهل سأُجيب بأمثلة: «جماجم لثوّار جزائريين في متحف الإنسان...». ما يبقى من حديث عن ثُوّار عرب سيقودنا إلى تذكّر ساحة «تُروُكاديرو» ويعلوها قصر «شايو» وفيه «متحف الإنسان». الشاهد تلك التحيّة إلى المبشّر بالعالم الجديد «كولومبوس»؛ إذ يعرض «متحف البحرية»، في القصر ذاته، نموذجاً لسفينته «سانتا ماريا». أمّا ما يُبشّر به فكثير، ومنه «نيويورك»، مدينة الحلم الأميركي، وباسمها طريق يُقابل حدائق القصر. عليّ أن أعود لمشاغبتها. أميركا تأتي من دعوة «ستَرَوس» للفرنسيين أن «يَقبلوا بقليل من تأثيرات الخارج». إن أُعلّق بهذا، يقيناً بدعوته، فإنّه يتطلّب منّي مناهضة رأيه في أنّ «أساطير العالم واحدة». ماتيلد لا تنتمي لسواها، حسب تمسّك إيقرِك باختلافها عن جيلها. ستكون أُسطورة القلب على حدّ امتنانه لوجودها في الحياة الخاصّة به.

في جميع الأحوال يلزمها أن تضحك وأنا أقصد الاستجابة الكبيرة لكلّ ما هو أميركي في بلادها. ماتيلد لن تصمت عن إغفالي لدور بلادها في «ميثاق حقوق الإنسان». هل ستُحدّق في وجهي الناكر؟. إن تفعل، فليس بيدي سوى التسليم بأنّ هذا القصر يشهد ميلاد الميثاق (كانون أول

---

(1) ـ كميل لا يتوقف عندّ إدوارد سعيد، ولا عندّ مناضلي الحقيقة، يستحوذ بيوم كامل للحديث عن المهدي المنجرة (1933 ـ 2014): يكره المحتل حتى العظم، لكنّه يُحارب بعقل. يُناهض الفكر الفرنكفوني. يعترض على كلّ ما هو فرنسي. يذهب للدراسة في أميركا وإنجلترا. يكتشف أنّ الإمبرالية لم تعد مشروعاً فتّاكاً لقوّة ألمانيا وفرنسا وإسبانيا، فالقادم من العالم الجديد أشدّ. يستشهد بعنوان كتابه: (الإهانة في عهد الميغا إمبريالية).

1948م). وفي سبيل دقة تُوجبها اللغة السياسية «الإعلان العالمي لحقوق الإنسان». قد تقول ماتيلد: «إيضاحك هذا لا يعني اعتراف بلادك بهذا الإعلان حتّى اليوم». هنا سأعود للبيانو وأراه من فسحة الباب الواثق في نيات الترحاب الظاهرة عليه طيلة الوقت.

***

في حقول اللّيلك ستطلب ماتيلد «زهرة البابونج» وأنا سأُعيد انتباهي لملكوت البهجة بكأس من «سيز» ـ رقم 16 باللغة الفرنسية ويختصر اسم بيرة 1664 ـ.

سأذكر شيئاً عن آلة، ينحدر منها البيانو، حال أُمرّر عمداً معزوفة عربية فارهة ستنسلّ من هاتفي وأدسّه تحت طبق مشروبها. سأُقلّص الصوت لمسمعها الأمين. الصوت سيتفانى في تحطيم القيد، فلا الطاولة تُخفيه ولا دهشة عينَيْها تُخجله. سيبعث في المكان قبضة عصافير ويرفُّ أيّ جناح إلى إياب. يُطلق أرواحاً طيّبة تنبث في نشور مجيد وتعود إلى قبض خلود. من صنعته هذا اللحن أن يُخضع شواطئ مضطربة وأن يُطوّع يابسة عصيّة. جميع الآلات، من عود وكمان وناي... وغيرها، مجنّدة لترصّ مفخرة الانصياع لأداة وحدها تقود المنظومة. قيادة لها اقتدار لاعب الدُّمى المتمرّس. الآلات الأُخرى تسود بأمرها وتمنع بأمرها. الآلة الواحدة تشمخ في الزمن.. تُسافر في اللحظة قدر حنين كبير وتؤوب إليها. أيّ أداة محمولة في هذا اللحن تنسج غيمتها، تعلو، ترتفع، ثمّ تنضوي في خشوع إلى آلة فريدة تحكم اللحظة ومكانها.. إنّها آلة القانون.

سأتدفّق بجدّ عن هذا اللحن. وقبل أن أبدأ شرحي، إن تسنح الحياة بوقت صغير كهذا، سيضوع رجعُ اللحن. للدقة وصواب اللغة سيعلو ذهبه في المدخل،.وسيُصادف وصول فتاة يابانية، لها طالع إمبراطوري. لن أُبالغ إن تعلم ماتيلد أنّ المعزوفة تفرض بهاء فخماً على أيّ شيء..

من فورها تترك الفتاة رفيقها الفرنسي، وتقترب لتسمع مصدر هذا النداء الجليل من سماء ستتنزل عليها ببشرى. ملامحها تنفرد بفرح يتخَفّى. تبتسم لروحها أن تتلمّس ملاكاً ما. ستقترب خطوة، وسأخفض من محفزها مدّاً، وهكذا إلى أن يخبو من مسارها خيط الموسيقى. ماتيلد لن تُعلّق. الفتاة اليابانية ستدلف إلى الداخل ويداها تتحسّسان ما يبقى من صدى الذهب.. ستظنّ أنّه سيعود من هناك. «إذن ما إن نتوه نلوذ بالداخل». أعتقد أنّ ماتيلد ستقول هذا وستصمت، إن ترى وتُدقّق، ولها عينان تُورقان ببحر يُصيبني مدّه من جديد. من المؤكّد أنّها ستسأل: «لماذا تفعل هذا؟».

إنّها آلة القانون، عقل الموسيقى العربية، في معزوفة «أطلس»، ولها النسب الأول في ميلاد البيانو، وسأتشدد في هذا الرأي. ستُفاجأ لو تعرف أنّ مؤلّفها المغربي «عبدالقادر الراشدي» هو من يُذيع مجبَراً (صيف 1972م) الانقلاب على الملك «الحسن الثاني»، وإن نقترب من «سان جيرمان»، فلن نعود إلى ذكر المعارض «المهدي بن بركة» ولن نُسمّي مقهى ـ سيصعب عليّ استحضار اسمه ـ يُقتاد من أمامه إلى نصف قرن من الاختفاء!.

... إن تسألني: «لماذا لم تُخبر الفتاة بمصدر الموسيقى؟!»، سأُجيب: «إنّه الشغف.. فمتى تجد ضالّتها سينطفئ شغفها». هنا لا بدّ أن تبتسم بذهول؛ بل بإيمان لانهائيّ.. هذا الشغف القادر على مدّنا بوقود الحياة، وسأتمنّاه بيننا. ما سيبقى للفتاة اليابانية هو خلود تلك اللحظة العميقة وحتّى أبد.

من كرم الباب الواسع سأنظر إلى البيانو.. أتطلّع إلى غطاء أصابعه وأتساءل عن أسرارها. عمّن يقود بها الصخب من هذا الخشب المُعمّر في السنوات البعيدة. العم كميل يُخبرني أنّ «ديبوسي» يُؤلّف «ضوء

القمر» عن شاعر يكتب أهل «بيرغام» الإيطالية غير السعداء. في حفل الخلاص من الحزن يُخفون وجوههم خلف أقنعة كئيبة كضوء القمر. هذه المعزوفة لا تبُجّل القمر وهو المرتبط بخصال الجَمال في بلادنا. هنا الشمس لها بلاغة الفتنة. واضحة وصادقة الحياة. القمر لا يعنيهم في شيء. إنّه يرتبط ببؤس يتوارى في رقص تحت نور هميم ويدبّ في سمائه بالوحشة. هنا أيّ مديح للقمر عليّ أن أنساه أو يُقابلني العم كميل بالمثل الأُوروبي: «بهيم كالقمر»!. الواجب الأول إذن هو الانصياع لانقلاب المعاني بين الثقافتَيْن، لذا سيلزمني أن أُعيد نظري إلى مستوى الكواكب، إلى تلك الطاولة وعلى ماتيلد أن تجلس فيها ليتمّ المشهد وما سيزدان به من عطاء الله.

***

ماتيلد.. سيكون البرد في أصابعها. ستبقى من خلفي تتفحّص آثاره السليطة في طعني. سأكون أنا أمامها تماماً أقرأ في بهو فندق. ستُهديني فيه حجرة بمناسبة ذكرى ميلاد سأنساه. ستتذكّر هي برابط الضوء مع يوم ميلاد «سان ماتيلد» المتوقع في العاشر من تشرين الثاني. حجرة ستنتمي لزمن فرسان يمضون، ويعود بحضورها في فندق «جناح الملكة» اللصيق بميدان «دي فوج».

في مساء ميلادي ـ أتمنّى حرصها على دقائقه ـ، قد أُقرر تلبية دعوة إلى ليل كبير في شارع «رِيفُولي». المكان ليس بعيد عن بوابة متقدّمة لساحة متحف اللُّوُفّر وفي اتجاه مسلّة المصريين. لن أتذكّر الاسم فالأماكن تتمسّك بعناوينها وإن أتعمّد نسيان أسمائها.

ستُفضّل انتظاري، ثمّ ستُؤثر إلحاحي بمرافقتي. ستُوافق ودّاً؛ وستصحبها حديقة زينتها. «ديكولتيه» البلوزة ثغر أمام هواء تشرين

المثابر، كما لو يُرحب بشتاء الأخوَيْن كانون[1]. هذه الفتحة كشرفة عصفور على ثمرتَيْن تلتثمان متى تشدّ جاكيتاً إلى جذعها الحيّ وحتّى عنقها العاري عن «كُولييه» كأنّه من منجم قلبها. عليّ أن أُحددّ مصدر هذا العِقْد. لا بدّ أنّه هديّة من جدّتها المريضة، ولن أُعرض به في أحاديثنا إطلاقاً. سيكون لحجره «اليَشَبْ» بريقاً تراه الجدّة شاهداً على بطر الغجر في عصر يفوق الحضارة. هو عريق لأنّ ماتيلد تحبّه ويحصد الحظّ، لكن من جانبي حظّ كسير إن تُسافر صباحاً إلى هِلِسِنكي.

الوجوه الأُوروبية يليق بها برد باريس. ستُوقدهم أضواء الشارع؛ لتُرصّع جودة ملابسهم وهم يتقاطرون إلى مهوى الليل. أنا وتر لا رابط له من عنق الكمنجة.. وتر سيمتدّ من كفّها إلى بوابة الملهى الموصد بقوائم أسماء لها حجز مسبق. حرقة الحرج تأكل القلب. ستتذمر بسؤال لن أسمعه: «ما هذه الدعوة؟!»، فلن يخرج أحد ليتحدّث مع حُرّاس الليل ليدخل فاتح جديد وصديقته الفرنسية. سيكون فاجراً الموقف هناك. كثيراً سأجتهد ألّا تغفر لي لأنّني الخاذل؛ بل لأنّني سأحتاج يدها أكثر من أيّ ليل يغدر. ستعرف جغرافيا هذا العجز وأنا أعرف تاريخ هذا الجوع إن يثبت موقفي مع البكاء وحيداً ـ سأعود للاستديو، أقصد الحجرة الهديّة وسأرى ـ أن أمتنع عن البكاء أن أقرأ من دفتر صديقة تغيب | **البكاء صهيل الضعف... |**.

سأتوسّع في مراجعة أخطاء يكثر نفاذها إلى يوميّاتي دون قصد. «أنت لا تُجيد ليل باريس». هذه شرارة الجهل. عبارة تقولها غيثة إن تحضر الموقف؛ لكنّ ماتيلد ستصمت وفقط. ستُلاحظ منجل الخجل ينهال بي. سأُثبت نظري على شعرها وهو على زخٍّ شهي. سأرغب في لمسه؛

---

(1) ـ ديسمبر، يناير.

ومدين باعتذار كبير لن تردّه بأقلّ من سحب الثقة، كما سيقول خوفي. إذن لن أطلب دسّ أصابعي بين خصلات ستُناغي نسيم تشرين المُبالغ. سأتذكّر فتاة سعودية بغضب تقصّ شعرها «Boy».. ولماذا؟. تُجيبني: «الشَّعَر نعمة فائقة، لكن لا أستطيع الاستمتاع بهذه النعمة في بلادي؛ لذا أُنقذها من ضعفي بالقصّ»!. ليس الوقت صالحاً لتذكّر رأس أبو سُمير الحاسر من الشّعَر والأفكار على السواء. أيّ تغيير سيُحدثه في رأسه لا علاقة له بالمثل الفرنسي: «المرأة عندما تقصّ شعرها فهي مُقْدِمة على تغيير الحياة الخاصّة بها». ماتيلد لن تتقدّم إلى خطوة مماثلة إطلاقاً. هل يتطلّب منّي هذا أن أتعجّب؟!. شعرها ثابت دون اختلاف عدا نزوله عند رغبة الريح الخفيفة حينها.

دوماً أعرف أنّ النّيات البيض في حقيقتها هي المصادقة القصوى على سذاجة السلوك. أمامها سأجتهد للخلاص من مرارة هذا. لست مضطّراً لكشف قوائم الانكّسار. بالتأكيد ماتيلد ستملك قناعاتها الصارمة حيال اجتهاداتي. ستُدير شأنها معي دون حياد عن مسوّغات ما يجب عليها وما لا يجب. متى ستُقرر شيئاً تجاه التوق، إن نبدأ، فلن يُجابهها قلبها بكثير سؤال. لن تُسوّرني بواجبات أو بأشكال المفروض ونقيضه، لكنّها عندما تصمت ستسقّط قلعة منيعة في جانب ما، داخلي. المؤكّد هناك أنّني وحدي سأشعر بخسارة مُروّعة.

حتماً ستُجيد هي مماحكة مقطورة الشتاء وبصق رجاله، بينما أنا سأُجيد التبصّر بحرقة!. ستضع يدَيْها في يدَيّ لاحقاً. ستعرف أنّني أقع في شرك دعوة من أحد أفراد «جادّة رياض الصالحين» ـ بترجمة لبنانية وعلى ذمّة السيد خطّاب ـ فرد أدنى بكثير مما أعرفه عن تلك الفئة وتفد صيفاً من بلدان الخليج.

إن تدخل تلك اللحظة تحديداً حيّز ما قد يتم، عندها تحضر الفتاة غيثة، حال يتذكّرها طلال. تجتهد أن تجعل الحياة وفيرة قبل ماتيلد. تُوشك بِطَرْقِها المكرر لباب الاستديو أن تمحو متاخمته لملكة ماتيلد. تكاد أن تُبدد وحدته قبلها، ولا تتمكّن. حقاً اسمها غيثة، لكنّها، قد تظنّ ماتيلد، ليست مستوحاة من دعاء أو قبيله، رغم انحدارها من شَمَال أفريقيا الكبير؛ إلّا أنّها دون خطوة عميقة. تعرف ماتيلد أنّ الغيث يهمّ رجلاً عربياً، وإن يكن في فصل الشتاء، لكن ماذا لو أنّه، بحسب إيقرِك، يترك بابه رحباً لكلّ الفصول؟. واقع الحال يُؤكّد أنّ غيثة تُعفي طلال من مشقّة الانتظار في غير فصل الشتاء، وماتيلد لا يدفعها تحريض الغيرة لتُقلل من شأنها. الحق هي تأتي في الشتاء لأنّ طلال لا يمنعها عن رغيف من طبقة الأقلّ رفاهاً ولا من سرير تُزيّنه له بأغطية جديدة وابتكارات تتجاوز (كلاسيكيّة الأداء). هذا تعليق من عامر صُبيح على إجادة العابرات لأشكال الليل. تكون لها معظم أيام السنة تُسافر في طائرات بعيدة وفارهة. من روايتها لقصص ذوي الرفعة تدلق لطلال حكايات مثلما تسيل أموال كثيرة تراها خلف أقاصي البحار.. على طاولات ذهبية في لاس فيقاس صيفاً، وفي مُوناكُو خريفاً وربيعاً. غيثة تقول له في مساء بعيد أنّها قد تعجن لأحدهم ليله في شهقة واحدة على سريره نظير مبلغ كبير. وتتساءل.. هل يجود الرجل لها بساعات نوم في نزله؟!.. لا.

تقول، تعني طلال: أنت لن تطردني. تصطحبني صباحاً إلى Paul وتُفرحني بفنجان قهوة وكُرواسون...

في الصباح غيثة، ببساطة لعقها للنُوتيلا من سبابتها، تُوضّح طبيعة العلاقة به شتاء. إنّها مرتبطة بالمؤقت والآني. ماتيلد لا تُكثر من أسئلتها عنها. لا تتعمّد التعريض باسمها كما تفعل بمُنتُونْ وشمّاء تحديداً.

نقول هذا فيما يستحدثه طلال من شكل لعيش يُحاذي ما ينتظر حدوثه مع ماتيلد. البديل عزاء رخيص؛ لكنّه يُؤمّن الحياةَ الأُخرى؛ حرصاً على حيويّة ما وعدم التيبسّ. وإن تكن غيثة من نتاج تصوّره؛ فهو لن يبق فقير اليدَيْن من فتاة تُضرم داخله أسباب الشغف، ولو بالتخيّل.

نقول هذا مما نتوقعه ويتّفق مع إمعان طلال في المأمول، ونزيد أيضاً أنّه من مدينة مُنتُونْ قد يبدأ جسراً طويلاً وآمناً. يأخذه من غيثة المحدودة في باريس بليل واحد وأمكنة متشابهة وبالية الدهشة، إلى ماتيلد بباريس متعددة الحياة وكثيرة العيش. يُعارضها أن اسم الجسر شمّاء. يُعارضها بما يُحقق بينهما وفاضاً خالياً من حروب صغيرة وقابلة للزيادة. هذا بحسب إصراره على طيب خاطرها، وهي تُكمل بقليل غيرة:

الحاجة لها ضمير شاسع.

... وقد يضحكان.

***

حول ضمير الحاجة، سأتذكّر.. بحرص سأعتقد، أنّ إيفرِك سيُحدّثها عن شغف الحرب بعدم التوقف؛ فالجنود سيجدون وقتاً مثالياً فيما سيأتي من عمر التقاعد ليقضوه بشكل أمثل مع الضمير، بينما قادة الجيوش ستُغنيهم أنواط الشجاعة والنصر عن كُلفة تفاصيل تُخَلِّفُها عادة أيّ حرب. سأُرتّب هذا عن الضمير استعداداً لما سأقوله: «ولكنّ... حبّك باسل».. إن أقولها ستقودني عيناي إلى عينَيْها تماماً. سأنظر ليدَيْها تستردّان عافية من برد يفضح القادم على ليالي باريس من «الأخوَيْن كانون».

من نافذة الحجرة في طابق قد يفوق الثاني لفندق «جناح الملكة». سأرى النباتات المتسلّقة تُطوّق الشبّاك بالتفاف محكَم. زهور تتلوّى أغصانها في طَوْعٍ فاتن. تعقد ربطات أكاليلها وتُلازم بقيّة الشرفات بوفاء

يتحيّن الشمس. من خلل النافذة سيهمي رذاذ في تؤدة آسرة. هذا هو شأنه مطر باريس القديم. إنّه لا يكتسح السعادة به، يتساقط بوقار. له سكينة بالغة تُخفّف من حدّة ضوء خارجي. ليس للريح أثر. قَطْرٌ ينتظم وقعه في رغبة أن يحبل بحجم كفّ ويروي أطراف النافذة، ثمّ يخرّ بهدوء. سألمح أحجار الساحة ناصعة. يترقرق عليها ضوء من فرط ارتعاشات ماء ستتوقف عند فواصل تلك الأحجار. وقع المطر يستمر في انثيال شفيف. مأخوذ بتأليف موسيقاه الصامتة وتُحاكي ليل الوحيد.

سأتحرّى تمام الثانية عشر ليلاً بأنّ ماتيلد، سترغب أن تتركني، وأبقى تحت فجيعة سفرها صباحاً. سأرتبط بمواعيد عمل يستحيل معها أن يُعَتَق عنقي من المكتب قبل كانون الأول. سيصعب مرافقتها إلى الشاهق من الأرض، هِلِسِنكي. هناك النساء يتقدّمن بهدوء مع السنوات الكبيرة، لكنّ جدّتها ستجفّ فجأة. ستقول هذا وشوكة المضطّر تغوص في نحري. في هذا الظرف إن يحدث لا بدّ أن تُغادر. لن أشكّ أنّها ستُفكّر بالذهاب لأُكمل حفلي الخاصّ. حتماً ستضع أسطوانة لـ«إديث بياف» على كتاب «العطر»، ومن هذه الرواية ستجد نسخة بالفرنسية مع السائق. لتُغادر سأفتح لها الباب من سيارة إيفرِك بعد التردد في عناقها. عبر النافذة سألتقي أيضاً الندم.

الثانية عشر من ليل. ساعة وفيّة لضغائن الأحزان المؤجَّلة. عذراً لأنّني أُهملك يا حزني، وباريس تستحق الوقت، فلا يزال العمر فيّاضاً بسنوات كثيرة لأجلك. من مضاعفات الفرح هنا أن تختار وقتاً جيّداً لاقتفاء ما يفوتك من جراح وآلام. عن هذا اليوم من «الحياة الخاصّة لي» سأتذكّر أمّي وسادن نخيل العراق «السيّاب»؛ إذ يرحل في العمر ذاته، ثمانية وثلاثين عاماً. أهرب من العائلة. الوحيد في منتصف الغرق يُثمّن الخطوة الأخيرة على اليابسة. يتمنّى لو يُعالج الخطأ وهو لا يزال فكرة. أحمل الحقائب، وأُنجز أوراق الحدود، وأُهبة السفر في الجبين، بينما

قدرتي لا تعرف أيّ جهة غير الحنين. لن أكون أحد مثقفي الخمسينيات أو الستينيات، وطريد البلاد، فتصطادني باريس. أترك أمّي إلى الهروب، وتمنعهم عن وحدتي كي لا يُشغلونني بكثير سؤال واتصال. ما إن ينكمش قلبها في اتجاهي ترجو أُخوتي: «لا تتصلوا به، اكتبوا له رسالة فقط».

سأتحسّس ما يَعْلَق من عطرها الناعم في المكان. عبق يصمد واثقاً ويزيد من تعتقه قماش «الأوغندي» للجاكيت «البوردو». بعض الوثبات إلى الحنين ستُوجب اكتناز بقاياها الصاخبة. ستحتاج إطلالة صغيرة منها على الحجرة لتضع الأسطوانة وستطرق بأناملها على خشب المنضدة. لأنّني كثير الحظّ ستطرد بطرق الخشب الحسد عن الحجرة، في اعتقادها المسيحي. سيحيا العبق لكنّه لن يختلط برائحة الشمعة الوحيدة. لم أكن بحاجة إلى شمع يفي برزنامة العمر. في جميع الأحوال ليست لي أماني دقيقة ليرفعها دخان الشمع نحو السماء. في ذكرى الميلاد يظنّون اعتلاء ما يتمنّونه. سأُفكّر أن أقول للعم كميل شاحذاً اهتمامه: «هذا الإيمان برفع الأُمنية مع اشتعال الشمعة لا يدلّ على أبعد من رفع الله للنبيّ عيسى في سمائه ومن أثره يترك لنا الغمام». الشمعة تُنير، وعيسى المُخلّص. الدخان، الغمام. كلاهما يرتفعان لإنقاذ الإنسان. الصورة تكتمل لتمام التشابه. العم كميل لن يهتمّ بالفكرة. هي ستترك لي صمتاً مع أمنيات خانقة الحضور وغير عاقلة.

سأتدارك بقاياها.. فستان من «المُوسلين» أسود كلَيْل غابة. سيكون حميماً على جسدها. كأنّه يُذكرها بمسحة كفّ الجدّة الغجريّة على يدها. الفستان طيّع لأيّ تموّج إلّا عند ركبتيها سيفرّ أكثر. لها ساقان يشبعان من فتوّة تخصّها. ستكتمل الفتنة بحذاء ـ كعب من كيوبيد ـ وسيُغطّي مشطَيْ القدمَيْن تماماً.. سيكون طويلاً وسيعلو بقدر شهقة مخفيّة بي؛ كلّما تنقر خطوتها الليلَ على شارع «رِيفُولي».

ستبدأ المبدعة، يُسمّونها «الطفلة الصغيرة» ـ La Môme ـ. ما هذا الصوت؟!. يُباغتك بشهقة.. الله!. صوت ساطع من أنين حجر تتشظّى عليه طفولة قديمة. تفيض من أصالة صوتها بغرغرة تشدّ الـ«R» إلى جنينه الأول. فرنسية من قبل أن تُولد «بلاد الغال». هذا يقطع عنها أيّ شك في أُصولها. مجرّة في صلاة، كلّما تُنفي الندم عنها في أُغنية «لا.. لست نادمة على شيء» ـ Non je ne regrette rien ـ. إطلاقاً لن تهتم بوخزات الحياة. متى تُكرر «لا شيء» ـ rien ـ أحدهم يجثو لارتواء صوتها من حرف واحد. حرف الـ«R» عليه أن يُمجّد حنجرتها وتبعث بقيّة الحروف معه على هذا العذاب الكثيف.. على كلّ هذه الحياة النافرة من كلمات قليلة.

> مع "إديث بياف".. تدلف إلى بحار تشكو أنهاراً تتجمّد وما يعود من تدفّق. تسير أشجار ترتجف باسم الله في الليل ولا عصافير تزفّها إلى حفل الظلام. معها يأتي ليل لا مثيل له، وتُكمل عنه الشتاء على جلد المنفيين في سيبيريا.. ويا ويلتاه من أحقاد الشتاء في صوتها.

على هذا الوجع، على هذا العالم، الآن، أن يعرف أنّ جانبه الآخر ليس معنياً بويلاته الطاحنة، فلجانبه الآخر غناء.

سأسمح للذاكرة أن تُمرّر عبرها في تلك الساعة غيثة. إن تعلم ماتيلد ستُخفف من رغبتها في التحيّن ومعرفة المزيد عن فتاة عربية سيُضلل اسمها مَنْ يُفتّش عن ارتواء حقيقي. سيتملّكني إحباط من أنّها تغفر سانحة ستُقرّب غيثة. إن يصلها تذكّري ستتخلّص من كدرها إلى حديقة صمت ترفض أن أعرف مسالكها. وسأذكر أنّ ولد السالم يُحذّرني من وهلة كهذه تحديداً أمام الصبايا. دعيّ وسيُكثر من معرفته بهنّ؛ فيتحصّن من الانكّسار. لكنّه لن يحضر بيننا قنينة لامعة من «بُورْدُو»، وعشاء على أخطاء صغيرة، وضحك حدّ الدمع على سرير سأخذله بالتردد ووفرة

التأجيل. لن يعرف كلّ الحياة من هذا؛ ليخسر جميع وصاياه أمام ماتيلد.

يا الله.. إنّني أتردد على النهر ولكنّه أكبر من عطشي، كما لو أنا الخالد بعد زوالي!. إن أتمسّك بمسك الروم في عطرها مع هدوء الياسمين ـ من نِيكُولاي ـ سيقودني إلى صفاء يُفرط في الطمأنة. «غُرْنوي» بطل رواية «العطر» يُولد في أكثر الأماكن اتساخاً ووضوحاً حيث الرائحة تكون إشارته المطلقة.. فيما هو عديمها ومفترسها في آن. يبدأ حسم الهويّة. يتجنّب صوت المدينة. يكره احتفاء أهلها بالحياة. يقتحم فضاء لن يملكه سواه. يستعمر ظلمة مدَّخَرة له من روح أزل الإنسان. لكن لماذا يصطفي الفتيات فقط لهذا الفصل الحادّ بين البشر وأثرهم؟. يجمع رائحة أجسادهنّ بعد قتلهنّ.

ماذا سيترك لي عطرها إن يفيض في ليل ممدود على شوارع باريس المطيرة؟!. أيّ وجود سيجمعنا ويُنكرني؟. «غُرْنوي» يذهب في تكريس سرّه، وأذهب في دائرتي الضيّقة والقصيّة. هذه الحواس حذقة جدّاً، ولكن لن أملك لها ما يُحقّق فعاليتها. لن ألمس في ماتيلد إلّا ما قد تتركه في الأشياء من بصمة. لن أشمّ فيها إلّا ما قد يضوع من تصوّر عبقها، ولن أسمعها كما تشتهي مسامات جلدي، ولن أراها كما يصرخ عقلي.. سيُحاصرني بطل هذه الرواية وهو صارم في عزلته ليُحيط بزمن منبتّ عن وقت البشر. من قبل يجمع رائحة عُليا من أجسادٍ بِكْر... سبع سنوات يقضيها في كهف لا ينتمي للعالم. لم يكن هروباً بل يختفي عبر مجرّة وصول تنتخبه لنبوّة فريدة. عَودٌ يختاره لجوهر أبديّ عندما يكتشف أنّه بلا رائحة. بينما أنا هنا، في حجرة فائقة الحياة، وأُفكّر في ضراوة الإنسان حين يُهلعه عدمه. ينتفض كما لو أنّ رعب العالم يسكنه فجأة. «غُرْنوي» في نهاية الزمن يعرف أنّ لا رائحة لجسده. عندها يُدرك معنىً من الملكوت. من حصيلة أجساد بضّة يتمكّن من السرّ الأبديّ، كأنّه

يقبض على نجاة الخلود. عندما يرى بشاعة البشر، يُقرر صلاح الفناء. يُوقن بحاجة الإنسان للعودة الأخيرة. عندها يهبّ من صنيعته عطر أقدس كأنّما طلعه نبتة الله. لم يكن من قشور السمك حيث يُولد. لم يكن نطفة العَلَق. إنّه جذر لم يتدنّس بتفاحة، فيكون فكرة الخلق الفذّة، ويصعد إلى الموت.. كيف أستطيع أن أفعل كلّ هذا البحث؟!.

يُشقيني هذا الرحيل في التحرّي عن المكنون. عليّ أن أعرف لعبة المجرّة.. أن أُجيد فتنة التدوير. أيّ تجربة أعيشها وعبرها أتقدّم في الحياة لأعرف أنّ نقطة الابتداء هي أبعد نقطة في العمر وهي أقرب من نحري؟!. أتلفّت إلى صوت أمّي، والسماء، وأدوات الملاذ الأخير. أستمع إلى صديقة تغيب | **سنعتمد على الله دائماً.. حين نموت سنُخبره أنّنا معذبون بما فيه الكفاية على الأرض، ونُريد أن نستريح إلى الأبد تحت شجرته** |.

«حين تُوَفّي يدُك في طيني هناك أنضج ميتاً.. هناك أُخَلّد بصفة تخصّني: جثّة تتنفس». سيُسوّف بِن يزن في ترجمتها إلى الفرنسية لأُرسلها لها. باستمرار يرفض ولد السالم مثل هذه الرسائل، بداية لأنّه لا يهتمّ بها، وثانياً عليّ ألّا أنجرف إلى وجدٍ مُشق. لِمَنْ يسأل سأشرح قصدي من الرسالة.. كيف لك أن تشعر بوقوفك على بساط المجد وأنت ميت.. كيف لك أن تتطاول بنيشان الفارق والمختلف في عينَيّ المهزوم.. الثورية «جان دارك» تُكَرّم بإعادة محاكمتها بعد إعدامها حرقاً، وتنال نوط «القدّيسة»، وشاعر السويد «كارلفت» يُمنح «نوبل» بعد ترجّله من الحياة!.. لدَيّ القدرة على استعراض هذا أمام ماتيلد المصنّفة من الأبطال في قلب إيقرِك والمتوَّجة منه بلقب «عذراء أُورليان». بينما هي ستتجاوز الأوسمة وستفوق التفاتات التكريم ويحتاجها البشر. هي لن تكسرني فأنا «جثّة تتنفس»... جثمان يتحلّى بشجاعة الانسحاب. سأقول هذا وأنا أستعيد خبراً تنشره «لُو فيقارو» صباحاً عن مؤسسة «غاليمار»

ـ دار نشر شهيرة ـ يُفيد أنّه تقرر طباعة جميع أعمال الروائي «ميلان كُونديرا»، وهو بقيد العيش، في «سلسلة الخالدين».

شجاعة متأخرة..

ولد السالم، المستثنى من صيغ الطول، يحترز مسبقاً مما يسوءه من الفتيات. يُجدول مع طلال معارك رخيصة وعاجلة جوار فندق النوفوتيل، في الدائرة الخامسة عشر. يحتاط من أيّ انكّسار يُسببنه له. من صريح عباراته أنّه يتعهد بمحض (إرادته وقواه التناسلية) أن يكون للأصدقاء نصيب من تحيّة فتاة برتغالية، تختفي منذ شهور. يبقى في ضلاله الجميل وعلى عهده ووعده مع الأمل. ينوي جادّاً أن تكتب لهم واحداً واحداً مذكّراتها الشاسعة عن ليلة يتيمة معه.

لا يغفل أحدٌ من الصحبة عن إخفائه لنجمات بيض تستطيل في شعره؛ كي لا يُظنَّ في عمره. في تقدم السنّ، عليه أن يُجيب (أنا أصغر بكثيرٍ مِمنْ يكبرونني)، كما يُرددها طلال دوماً.

الحقيقة أنّه يدسّ شعراتٍ بعينها تَبْيَضّ، حتّى لا تتمنّع كرستينا، إن تعود، من يده حال تندّس في نهرها وهي تدفعها عن رمّان صدرها: توقف.. توقف!.

لثغتها تذهب في روحه تغنّجاً حلواً. لذا لا بدّ أن ينطق للرفاق تمنعها من يده بالفرنسية: آغّيت.. آغّيت. (Arrête).

سيضحك لنباهة لكنته، ويسخف به عامر صُبيح: متى تتمكّن منها اضحك.. يا أخرق!.

يستردّ صوتها لدى الأصدقاء. تفضحه تقاسيم غضبه أنّه متعب ويُريد أن يكون وحيداً في أحلك حاجته لآخرين؛ لدرجة مغادرته باريس لشهور في إجازة يُقدّرها له السيد خطّاب وِدّاً. يضع في جيب بذلته الداخلي لبّاسة الجزمة باستمرار. يجد نفسه قابلاً لخيارات، هو مَنْ يُقررها ويُنفذها، وفي أيّ وقت وإلّا

يعود أدراجه لبيته وإن يكن السبب عدم توفّر موقف سيارة!. يقتعد طاولة على حافة الرجاء في مقهى يعجّ بالناس والتاريخ أمام (مركز بومبيدو). قد يلتقيانه ماتيلد وطلال هناك. يجلس باستمرار قبالة المركز وينظر إليه كما لو أنّه سوق خُردوات في جنوب مدينة الرياض، بحسب مقارنته. لا يرى رُوّاد المكان سوى قوّادي جنون.. هذا وصفه. يقضي ساعات وبين يدَيْه ماء يُوقد به أحقاده التافهة على العابرين. يلعن طاولات بمرايا تتركها كرستينا في مقهى يهجر صباحاته. يُخطط بأقصى الكلام البذيء وفي حسابات الدفوع أو الهجوم سيان. لا يجد أحداً لقائمته البهيّة من الشتائم إلّا طلال صباح يوم الاثنَيْن. طلال يسكت. ليس لأنّ لدَيْه ما يخسره؛ بل ليرى خسفاً مناسباً يستحقّه الرجل. فيما بعد يأتي ليعتذر وهناك يضحك طلال، رغم عدم تدخل سيد المصالحات، بين الرجال، أبو سُمير. الحقيقة أنّهما مختلفان ويصعب وفاقهما أكثر من يومَيْن. طلال يستطيع أن يقول في الحبّ كلمات حالمة، بينما ولد السالم ينتبه لفكرة العيب. العشق قرين الضعف، وهذا ليس للرجال. يذهب مباشرة لجوع الجسد. يصدق فيه، كما يرى طلال، موقف صديقة تغيب | يُعلموننا حرمة العشق، وتكبر بنا الغواية! |.

أقصى ما يستطيعه من شجاعة بعد رحيل كرستينا هو زيارة نبيّة مستقبله في مدينة عنّابة (الجزائر)؛ إيماناً منه بهالة التنجيم وكائنات الفعل الخفيّ في عيون تتسقّط له توقعات من الماوراء.

***

تتقلّب الحجرة على أوجّه تُحاكي الأشياء. سألحظ كعكة تتعمّد ماتيلد نزع غرسها من الشمع. طالما اليأس سيد هذا الميلاد ولن يصعد إلى السماء. فضلاً أنّني شخص بلا أمنيات طيّبة معي، باريس تنحني لسماء مغمضة بمطر هميم.

من هذا المسرح الليلي، تقف في الحنجرة كلمات صديقة تغيب. يحين إذن وقت البكاء. لها سكّين ماضية في المزق مثل مقطورة تحمل أسماء تهرب ولا يُمكن أنساها. أراها من غبش الروح هذه اللحظة أمام زجاج يلفّ أبوَيْن عاشقَيْن داخل أجلّ حجرة في العالم. أمّ في الضماد وأبّ يحرس آخر رجاء أمام الله. مشهد ينضح فيه جلال غفير. يُطلّ مثل شهب تقود الكون على مشهد المرض بسمت خالد. الصديقة، ترعاهما بعينَيْن مفقودتَيْن على حدود السرير الفاخر بالإيمان. الأبّ أمام حبيبته وهي على حمّى الرغبة في الترك. يُورقان في قلبها كلّ ليلة. وتُحارب معه وحشاً من الزّهرِ في جسد الأمّ. تقول إنّ هذا الوحش ضليع في وظيفة الفقد القديمة. في ذهابهما لا يُغادران عينيْها ولا هما على التخوم. رجل مقدود من دمها يعضّ على شهوة المرض في زوجته. على وسامته أن تُخفف من هذا العذاب. الآن أهجس بمكمن العطر في كلامها عنهما. عن كنف الأغطية البِيض، تشيخ المكابدة تحتها. بشاشة الوجه المنذور لضحكة أزليّة تصدّ الحرقة. العاشق بتردد المكابر يقف على الخوف مرّة ولا يكسره الآن. يقف على معنى أن ينتخبه الله لأقصى حجرة في الأرض، وامرأة هي قنديله الوحيد. يذرع ليل الكون، وتاريخ المرض، يُحصّن تعب مملكته. يخلع القلب ويضع ذهبه عند سدرة وسادتها للصلاة الأخيرة. له وحده امتياز الحزن في حجرة تحيد عن الأرض قيد غيمات.

الصديقة، في سيرة والدَيْن، تُعيد لي صياغة الأمكنة وشكل الحكاية. رجل، هكذا كلّ ليلة، في حجرة، في حقل لا يتّسع لأكثر من سنبلتَيْن. يَعِدُها: «قلب يُحِبّك ويُحِبّ أُخوتك لن يتوقف». عليها أن تثق، وأنا أعرف أنّها تُقرر: «عليّ ألا أفعل». هو يجتاز سمو العاشق وكتف الأخ. يتخلّص من دمعه كأبّ، من رباطة الزوج، ويُلازم جوهرة أيامه. يَشُقّ المرضُ الطريقَ، لكنّه يقتعد على الطريق ليرتقه، علّ قليل أيام تزيد، وتبقى. يُسيّج السرير بطمأنة لها عمر قصير. الصديقة تعرف أنّ الثبات على الوعود

مرهون بقلب لا يخذل. سنين ست على انطفاء الجنّة الأُولى، على موت الأمّ، لم تكن إلّا تفصيلاً عابراً في الكمد الكبير. يتساءل إثرها عمّا يُشبهه في المكان حين يغدو «ذكرى لا تشيب». بهذا تُؤمن أنّ وعد القلب يفي به الأبّ عند حبيبته الراحلة، ويلحق بمعراجها. وتقف بقيّة العمر تتمنّى قلباً لا يتوقف أبداً. لا بدّ أن تُؤدّي وعداً لشعبٍ صغيرٍ من أُخوة.

هل يغفر لي العم كميل انتحابي بين يدَيْه على آخر عاشق في الأرض وهو يفقد زوجته في حجرة مملوءة بقصاصاتها مع الله؟! هل يغفر لكلَيْنا العم كميل وهو يتحسّر على العاشق الفذّ عندما يتشبث بثوب زوجته، سنين ست، ويموت إليها؟!. من قبل لم أجد جرحاً بالغاً يمسّه، كما يفعل أمامي، وله عين تُضيء يُتمه الخاصّ والبعيد جدّاً. لا أعتقد أنّه سيُرخص قلبي الفارغ بماتيلد، أمام تجربة عشق في الموت.

لماتيلد والدَيْن يفترقان في الجغرافيا، ولصديقة تغيب والدَيْن يخوضان معاً درب المُنتهى؛ بل يتكاتفان إلى سُلَّمِ الله.

> وداعاً لوقتٍ لم يكن بيننا. وداعاً لكدماتٍ لم تُصبنا عنهما ونهرع: ليتها فينا.
>
> وقد تأكّد عنوانهما ـ إنّه الأخير ـ وداعاً لفرحِ مفتاحهما في الباب. وداعاً لهمهماتٍ تُربّي الفزع، ولحيرتهما عند عزلة الصديقة. وداعاً لفاجعة الزجاج يصقلُ الرعايةَ شهراً، سنة، عمراً، لامتيازِ العناية الفائقة، لاتزانِ الأطباء في وضح الحقيقةِ، ووداعاً لنصف دهرٍ يهزّون السماء.
>
> وداعاً لمعنى البيت...

***

في الحجرة أيضاً، تعود لي فتاة «باربيس».. عذاب في العظم. يحين إذن فاصل المرارة. بِن يزن، وولد السالم، لا يرغبان في تذكّرها. يومها نبحث عن شُوربَة حريرة في مطعم عربي. بعد خروجنا من فوج باعة

يتصيّدون الخارجين من محطّة «مترو باربيس»، نراها. الرفيقان يتقدّمان ولنا خطوات أثقل من جبل. الآن لا أتذكّر أنّ جدلاً يحدث بيننا حول أصل «شُوربَة الحريرة» مغربية أم جزائرية.

الفتاة تُقبِلُ ولعينَيْها مرارة ضياع. لتلفّتها جوع أعرفه. قلق يعنيني ويلسع أرواحنا. لا شك أنّ قمح ملامحها لن يعرف أرضاً غير دمنا.. لن يعرف منبتاً غير تراب عربي. أشعر بتيار لهيب يَشُقُّ اتجاهنا. تكون عكس سيرنا وتُبطئ خطوتها في علامة ترحاب تضطرّ إليها بلعنة الحاجة. عينان يأكلهما تذرّع غير رحيم.. تتوسّلان نظرة. نحيلة ولها سُمرة الشقاء ببنطال رخيص. لن نُوليها اهتماماً. بِن يزن مثلنا يُطعن عميقاً. إنّه سيد المماحكات إلّا عند هذا الجرف. لن تكون على بادرة ترحيب. إنّها تبحث عن لفتة ثمّ أشياء. يغمرها أمل أن نلتفت. نُوشك أن نقطع خطّ التماس. على بعد كلّ هذه الحاجة واليأس ترجو قطرة من جفاء عابرين،.. منّا. لحظتها تُرغمنا على آخر سلاح: «Bonsoir». دون ردّ نذهب، وأتكبّد ألماً لن يسمح رفيقاي بسماعه لاحقاً. «أيّ خير في مساء كهذا؟!».

«ما هكذا يا طلال!» ستقول ماتيلد هذا إن تسمع حكاية الفتاة. على زرقة عينَيْها أن تهمّ بشفيف ماء وسيروريني. سأراهما تُوشكان على إعفائي من منجل يجزّني. بكاء على فتاة عربية في باريس تجوع حتّى إلى ردّ تحيّة المساء.. أمام عيني!.

ماتيلد، إن تُهوّن من فجيعتي سأنتفض لإكمال تذكّر فتاة «باربيس». ملاذ في نافذة يمسحها رذاذ يهمي: «يا الله.. ما العدل في الهامش.. لماذا علينا أن نقول إنّ في عذابنا حكمتك؟!».

كي لا أُبخص الليل مأساة واحدة، أستعيد أحلك لقاءاتي بمَنْ هو في منزلة أعزّ ما أحميه في القلب. مجدّداً يظهر الأستاذ توفيق سلّومي، وهو برتبة مواطن لكلّ الحدود. لم يعد للمهجر معنى أمام تجاعيد يدَيْه.

يدعوني إلى مطعم فرنسي تقليدي، في الدائرة (4). تكثر أمثال هذا المطعم القديم، داخل جزيرة يُكبّلها نهر السّينّ جوار «كاتدرائية نُوتردام». بقدر تلك الدعوة العزيزة على القلب سيزيد الحزن مع الأستاذ توفيق. لا يتحدّث في آخر لقاء، عن ثلاثين عاماً من غياب تونس عنه. ليس غيابه، وهو ابنها الخارج إلى مدن عربية، ومن بيروت إلى باريس. يرحل في النباهة الشجاعة وصحافة تهرب خلف البحر. يُحصي الأسماء الفارة من الحرب كما لو يُنجز محبّة صغيرة. عند هذه الضفّة يتكلم بصوت الآمل في صباح جديد لتلك النخبة. وحده لا يتحدّث بما يكتب، لكنّه يقول الكلمة الأخيرة. «غِرَامشي»[1] لا يترك الطاولة متى تتعالى صورة المثقف الثابت. لا يرجوك للترحم على أحلام هرب بها، منذ عمر وحنين، واليوم تتخلّص منه. عيناه تفيان بكامل الانكّسار، وتُخبران بأنّ «الأمل لم يعد كافياً». لن أؤكّد هذا فأندفع إلى شعوري بوداعه.

ثمّ لأول مرّة ينفضُ ما في الصدر من سنوات. بمرارة التغرّب يتذكّر نهاية السبعينيات والزهو يسود حُمّى الاكتشاف. في أوج وصول كثيرهم من شَمَال أفريقيا وبلاد الشام إلى فرنسا يجلسون في مقهى «لُو فلور» ـ Café de Flore ـ لا يزالون على رائحة تراب أوطانهم، ويتقدّم إليهم رجل يفوق أعمار شبابهم حينها. يعرفونه من خطوات التردد. يُقلّب فيهم

(1) ـ كميل لا يكتفي بحديث واحد عن إدوارد سعيد، وعن محمد أركون، وعن المهدي المنجرة. لا يتوقف عن أحد من سادة التقدّم، بل يُواصل إلى الإيطالي أنطونيو غِرَامشي (1891ـ 1937) الحاضر في يقين طلال أنّه لم يمت، ويسكن في روح صاحبه توفيق سلّومي: غرامشي ينخرط في الاشتراكية، فلا تُوقفه إرادة عن الانقلاب على أكاذيب القادة في الأممية. يلتزم بالإنسان وحاجته للتغيير في مظلة القيم الأُولى. يُناهض الساسة، ويتحيّز إلى الثقافة بصفتها المحرك الجوهري للقيادة المطلقة. يموت في السجن لأجل الكلمة.

ـ يقفز طلال أمام كميل: هذا هو الأستاذ توفيق سلّومي.. والله هذا هو.

دفاتر الشرف؛ فهم على حداثة مجيئهم من بلدانهم. لا يزالون قريبي عهد بوقفة الرجال. ينال من دمهم العربي. بسيف الحياء يصمتون إلى حديثه عن العراء على أرض تعلو بحر المتوسط. يرجوهم، فله بنات ويخاف عليهنّ. يتدفّق وجهه بالدمع. يطلب منهم الزواج منهنّ، فيكونون آخر حائط للاتكاء في هذا التغرّب. الأستاذ توفيق ورفاقه لم يهتمّوا له. يحكي لي بجراح تنهشه، فهو اليوم، وبعد ثلاثين عاماً على رفاق المقهى، والرجل ينظر إلى حاله. تنضج الأفكار ويضمحل الحلم في ثورة. لن يكون هذا الجرح أنصع من خراب البيت. في عينَيْه تلمع نصال الأسى: «ابنتي الآن لا أستطيع رؤيتها...». وأبكي معه. ليل الحزن يسيل صوبنا ويتبع منحدر الأوجاع السحيق فينا. أمدّ يدي إلى كتفه وهتكٌ بحجم السنوات يشرخ الرجل. ترتعش يدي وندم يطول في كلامه. أسمع اسم ابنته وتأخذها أمّها الفرنسية بعد انفصالهما. لا يعرف عنها شيئاً.

الأستاذ توفيق ينقلب إلى «لوركا». أسبقه إلى قوله إنّه من عرقنا العربي الصديق للشمس وجامع كلّ الأشياء ومُضيّعها. الأستاذ توفيق يتصالح في الاستماع وإن أُجدّف في تيار لم يبدأه لنهر أمسيتنا. بعيداً عن التحسّر، لن يقف مُطوَّلاً لتجنّب تُهمَة الضياع. يصمت حتّى أنتهي من مجرى فكرتي. يقول عن الشاعر الإسباني ما يقوله عنه صديقه «نيرودا» «مبذّر كبير في السعادة» ويرثيه. للأستاذ توفيق قلب قادر على الشقاء والاحتفاظ ببعض قصيدة الرثاء:

«لو أستطيع أن أبكي من الرعب في منزل منعزل،

...

أُريد أن أُتوّجك أيها الفتى المرح كالفراشة،...

كبرق أسود طليق إلى الأبد

هكذا الحياة يا فيدريكو،

وهذا ما تستطيع أن تُقَدّمه لك صداقتي».

بعد هذه الليلة، أكتب إلى بِن يزن، أنّني أفتقد الطريق إليه: «هذه المرّة لا تُفارق عنك تونس يا أستاذ توفيق، بل أنت تُفارق عنها، ولا أعرف لك طريقاً، وليس بيدي إلّا هذا السؤال المرّ». في المنحى ذاته للأصدقاء، الحنين هو جودة الحياة اللّائقة بنا معهم في الغياب. هنا تعنّ صديقة تغيب، وعلى بِن يزن أن يتوقف عن مماحكتي عندما يسألني: «الآن.. هل أنقل ما أقرأه بمرارة أن نفقد كلّ الأصدقاء؟!. أهزّ له برأسي، أُوافقه الطعنة الصائبة من رفاق يصمتون.. يقصد ترجمة عبارة أُودعها في لوحة إلى جانب مكتبي: «يا صديقتي، أُحِبّك لأخطاء وجيهة في شكل الحياة، وأُغضبك بعيوب عَرَضِيّة للغة.. أنا دوماً هناك لأسبابك المُشَرّفَة مَمَاتاً أو بَقَاء».

> الصداقة ما يستحيل معه الخوف من كلّ الأشياء المعتمة.

***

قبل هذا، وخروجها إلى سفر بعيد، على ماتيلد أن تدسّ في نسخة كتاب عمّها ورقة صغيرة. سأعدّها أول مرّة تنبيهاً صغيراً منها للاهتمام بإهداء المؤلّف سيُذيّله إيقرِك لي بعبارة: «ماتيلد تُزهر أكثر». ستحمل ورقتها حفلة روح: «الله يكمن في الآن، أيْ في اللحظة، وتحديداً عند لفتة الاعتراف، وبشكل أدقّ.. في الضعف حين أتذكّرك!».

سأقترح ردّاً يُقابل ما قد تنقله ورقتها: «لم تكن كلماتك اعترافاً؛ بل يد الله على كتفي كي لا أحتاطك».

إن تصلها هذه الرسالة، ستضحك وتتشعب أصابع يُمناها كريش لا يقوى على قبض شيء. ربما الكلمات ستهرب ويدها دافع للحفاظ على ما تبقّى من ردّ. على شفتيها أن تُلَمِّحان لما يحتمل كلّ الكيل العادل منّي. ستُقابلني هي بحملة قلب تشنّ عليّ الحياة المولَع بها، أنا. هكذا ولو

بحركة صغيرة، كلّ مرّة، سوف تزيد عنّي بفجر من الوضوح والصراحة.

من طرفي، لا بدّ أن يكون التقدير للأحداث بهذا المنوال، حتّى في أبسط التفاصيل؛ ولتتمّ الصورة على مجرى الأيام المرغوبة.

أن تغيب..

إن يحدث وماتيلد تُسافر إلى الشمال، طلال يزور الأمكنة جميعها. في المطاعم يمنعهم من حمل ما يخصّ طبق الشخص المقابل على الطاولة. كلّ الأوقات يعدّها معها.. يدفع الوقت في ساعة جيبه ليتقدّم عشر دقائق. علّها تصل قبل الحين. علّ الأمل يسبق الميعاد. لا تكون هناك، ولكن باستمرار يفي صدره بزفير شخصَيْن، أولهما هي والآخر هو، ويتّسع لشهيقها فقط.

وإن يُقدّم في الوقت فالأيام لا تخطو إلى الأمام، فيما لو نذهب، مع طلال، في معنى غيابها.. ماتيلد تتأخر عن موعد الغداء وتتأخر عن المترو والباص، وتتأخر عن مواعيد إيقرِك وعن كميل. يطول انتظار الحكايات. يشدّ قلبه إلى كتابة صديقة تغيب | **ثمّة موت في الغياب** |.

يعود، يتحسّس مفتاح الاستديو أمام جارته الفرنسية. عن ذكرى وفاة الراحل الجارة تُخبره عن زيارة سريعة من حفيدتها. وأنّها تُفضّل طبخها، لكنّ حفيدتها تكبر على ما تحبّه منها؛ لذا تختصر الزيارة بساعتَيْن عَجِلَتَيْن. تقول وتُؤكّد شكّها بربما. تُردد أنّ الجميع في عجلة، حتّى طلال لم يعد يسمعها كالسابق. هو يرى أنّ الجميع يركض بهلع دون توقف؛ عدا غياب ماتيلد يأخذ جميع وقته من المرارة على قلبه ولا ينتهي.

عليه أن يُواجه نفسه: أنت سيد هذه المملكة، وبانيها من آمالك. صاحب الملك يرى قلاعه تتهاوى. يا آخر ملوك الأندلس انتحب على صنيعة الوهم...

ويكتب رسائل مُذيّلة باسم (طاهر هشام). يستعير من

الأسماء بقدر ما تستعير منه الحياة أشكالاً يُحبّذها ولا تكون.

كميل يقول لِبن يزن: طاهر هشام (ابن ساعي البريد).

يضحك الجميع، فهو مستعار ولا علاقة له بطلال، لذا يُعيده كميل إلى نسب مشاع، كما يُطلق الفرنسيون على المولود غير الشرعي، فينسبونه لساعي البريد؛ لكونه القادر على دخول البيوت نهاراً في غياب الأزواج. طلال لا يحكي هذه النادرة من كميل. يغفر له أيّ شيء، ويجلس معه وفي حضرة كلماته الساخنة مع السماء وفيما وراءها من مطلق.

(... ابن زنا يا عم كميل!).

يُعاتبه طلال، ويضحك كميل: أعرفك أنت، وأيّ اسم يتخفّى خلفك بكتابة لا يهمّني.

يجب أن يتشدد في أنّ غيره لا يعنيه إطلاقاً، بينما طلال ينجو بهذا الفضل الصغير. وقد يرغب طلال أن يردّ له مثال «مُنا»، فهو يشيع في فرنسا كلّها بغير اسمه الحقيقي. كميل يُقلل من تجربته مقارنة بجلد صديقه القديم. ينزعه إلى حقيقة اللغة والهمّ والمرحلة والقضايا. يخسر طلال لو يدفع بهذا المثال. ثمّ إنّ طلال لو يتعذر بأنّه موظف، ويطلبهم أن يُفرّقوا بين الكاتب والموظف، فكميل يمنعه لأنّ (المثقف الملتزم) يجب أن يكون ما يُؤمن به تحت أيّ ظرف وفي أيّ وقت، مثل غِرَامشي، ولا يتوارى خلف (الاستعارات).

طلال لا ينفكّ من أسر الغياب. الجارة الفرنسية تُوائم بين إكسسوارات لاتينية في معصمها وبين عقد يهرم مثلها، وتتعجّب من عدم استماعه لها جيّداً كما ترغب. لم يسألها عن الحفيدة وهل هي باقية على حبّ ما تطبخه لها أم لا؟.

ويُفكّر أن يكتب إلى كميل: الحياة المستعارَة هي فردوس الوحيد.

يتوقف...

***

إخلاصاً لغيابها سأعترف بالجسر. قد أهمس باسم شمّاء جاسم، وباسم وطنها ـ البحرين ـ. ما يبقى في الخريطة من خليج تبقى بلادها على استحقاق أن تكون شريكة السماء في الحضارة والأَثر.

عند كلّ عبور في مدينة تظنّ الفتاة، أيّ فتاة تلتحق بمهجة التجربة، أنّها إدراكي الأخير قبل الوصول لفضيلة كاملة، عدا شمّاء. إنّها لن تتحسّس بي الاستواء لجنّة البيت. بعد قضاء أسبوع كمترجمة لي وحارس حدود بيننا. لن أتحدّث أكثر من أنفاس فاضحة. تظهر عليّ ربكة مخفَّفة بضحكة؛ كلّما تسألني عمّا يُساهم في اقترابها. أستزيد منها لاكتشاف المدينة وألوانها فقط، حسب شعورها. وأُفتّش عن مفاجآت تفرح بوقوف عليها معي. أُحوّل الحديث إلى قصص زرقاء أو حمراء، وأُخرى من لازَوَرْد لحظة لا يفوقها شيء. هكذا أُعبّر في زمن صغير يرتحل. سوف أُردد داخلي: «الفتيات لا يُؤمنّ بشيء أكثر من شكل النهاية». أُمازحها، أُخادعها بما تحبّ سماعه: «النهاية ينقضي أمرها منذ دخولك هنا...»، وأربّت على صدرٍ خاو. هكذا ينصرف نقدها الشخصي إلى تفاصيل ترتكبها هي، وقد تُسجّل عليها محظوراً ما.. هل هي كما يجب معي، هل أشعر بالملل منها؟!.. هذا الوقت الضئيل كفيل بمعرفة مآل علاقتها بي!. وتتساءل أكثر هل يُعقل أن ينتهي طوق يده من راحتي عند مغادرة هذه المدينة؟!.

وأنا أصمت.. البقاء يباس محقق.

إمعاناً في التعرية

حين لا عاشق سواه في تلك المدينة، طلال يرعى استقبال الخريف. يُرمّم الشجر بحكايات عن امتلائها؛ فيما لو تصطحبه فتاة مع بداية الصيف. يكشف لها مجدداً: مُنتُونٌ لا تشعر بالعراء لأنّك فيها...

يتمنّى أن يعيش كلّ السنوات مثخناً بصلاحية المساعدة. لن يتوقف عن سخرية صديق، يُصنّفه من (المحاربين القدامى) عندما يصف له حاله: أنت يا طلال بالنسبة للنساء لا تعدو أكثر من (حائط مبكى). تُخفف عنهنّ الخسارات وتُزيّن لهنّ المواساة، ثمّ يذهبن عنك.

إنّه... (الشجرةُ لا تشكو شيئاً من الخريف سوى عزوفَهم عن الاستناد إلى جذعها). يكتب هذا، وهو يُقرر ألّا يذهب في العمر. على الشيخوخة أن تردع مطامعها فيه، وعليه أن يشدّ من جذعه دائماً، فيكون جاهزاً لكلّ حاجتهم إلى الاستناد. لكنّهم لن يعرفوا يوماً حاجته، شغفه بأن يسقوه أحزانهم عند أيّ عبور، وهو سانح لجميع الفصول.

في أيّ حال يُقرّه عليه القدر، يعرف أنّه لن ينجو بشكل تامّ، ولكن يجد عزاءه، فالخريف وإن ينال من كلّ شيء قبل الشتاء، فإنّ ظل الشجرة لا ينحني بل يقلّ ليتعافى ذات يوم من جديد.

ونقول في مُنتُونْ.. أمّا شتاؤها فأقلّ زحاماً بالرغبات. يعترف بهذا. بالنسبة لعطاء يده فيُسعد به فتاة واحدة هناك. يُفضّل أخذ Echarpe (شَال) له دفء البيت، وغافي اللون؛ بل هو أقرب لرائحة الرغبة في البقاء. هكذا يصف هديّة شتويّة. في المقبل من الإحباط والتسليم بقطع الأمل، على تلك الفتاة أن تتدبّر الهديّة لوحدها. حينها يكون في سبيل عاشقة غيرها. عاشقة تنتظر هي الأخرى شَالاً من طراز روحه، وربما لا تزيد من ربكته الحاضرة أصلاً، وبأسئلة عن شمل ما أو عن مقترحات حاسمة حول نهاية الطريق.

طيلة الحياة الخاصّة به، يكره طلال أيّ ملمح يستدعي التفكير في آخر النفق. العلاقة معه ليست مؤهلة لتُحدد مصيراً مُرْضياً. رفقته غير صالحة للبحث فيها عن مصباح يفي بالموعد. يُؤمن بأنّه مُنتهى الأشياء المحببة لفتاة وحيدة، إنّما قدره أنّهنّ جميعاً يصلنَ إلى جرف سؤال يخنق: هل ننتهي إلى سقف لنا ودائم؟!.

الزمن يُعطب الأشياء، بينما الإيمان يعني لهنّ البقاء، وهذا ما لا يرغب التوفيق إليه؛ لأنّه إيمان من صنيع حاجتهنّ؛ لذا لا يسمح باعتناقه إطلاقاً؛ ولو من قبيل مبادراته إلى زخم التجربة، أو الامتثال لدور (حائط المبكى).

أن نكون على عراء يخصّه، وهو برفقة فتاة عصيّة، أو على نحو أكثر دقة، وهو ضليع في امتداح مدينة ما، لا بدّ أن نجده وحده الشاهد على ضعفه من إكمال الطريق كاملاً في تلك المدينة؛ مع الفتاة الأثيرة. بالتأكيد هذا قبل باريس وماتيلد، وقبل مدن أُخرى قد تسمع ماتيلد أنصاف قصصها منه، بينما الحكاية كاملة في دفاتر الليل والرفاق أولهم عامر صُبيح.

***

سأتصوّر في غيابها تَعذُّر طاولة إيقرِك عن الحياة. إن يتمكّن مع العم كميل في زحام الوقت سيُحاصرانني بضعف خاصّ. سيضحك إيقرِك على ليلة «لابيرُوز». نهاية مدويّة لعاشق يجهل ليل باريس. انكسار باهظ العناء. ضجيج الروح يتصاعد. سيُهوّن إيقرِك: «الله سيُساعد وردة في الغد لتنال شرف التفتح أولاً». هو سيُضيف: «أيضاً الله في الغد سيسمح لسقف أن يسقط على طفل محققاً طموحات طائرات غريبة في النصر». العم كميل: «هذا هو الله في الصباح والحرب... كيف ستصوغ إيمانك به؟!». يُغريني الإيمان بالمطلق. بهذا اللّانهائي وعلامته ماتيلد. إن يسمع جوابي هذا، سيقول إيقرِك: «إذن أنت لا تبقى». هل سيخاف عليها إن يقول لي هذا؟!. هل سيعني أنّني سأرحل حتماً؟!.

إنّه لا يُنقضُ الإيمان برفض ولا يُؤكّده. لن يدخل في أيّ نقاش يتحيّن الإجابة عن أيّما هو خارج قدراته العقليّة، كما يُقرر. يُكرر العم كميل: «أنا لا أُكذّب أو أُصدّق ما وراء إدراكي». عن الحبّ الطليق ستطفر منّي استغاثة ترتق زرقة السماء. هل سيعنيان الحبّ بهكذا تشبيه وتاجه الله. عن إيماني بها. من يرى الحب واضحاً ودقيقاً؟! كيف للحبّ أن

يقتات عليه الألم دون أن يكون موّاراً وفاجراً في تأسيس النكران؟!. في هذا تحديداً سيُعلّق العم كميل: «كلمة أُحِبّك نهاية الأشياء...». بينما سيكشف إيقرِك: «هذه الكلمة لا يستطيعها سوى إله!». سيضحك العم كميل: بالطبع.. وحدها الآلهة تستطيع التنصّل». إذن هو مشروع تخلٍّ كبير.. يا لهذا الحبّ!.

> كأنّما اليقين أدّق مراحل الإنسان هشاشة، فهذا ما يُبرر أيّ هزيمة نتيجة الإيمان الثابت.

***

أول مرّة يأخذنا عامر صُبيح، أنا مع بِن يزن وأبو سُمير، في سيارته إلى فرانكفورت. يُخبرنا أنّنا ننزّل إلى جوار بنايات تفتح للرجال حُجرات الشهيق. يسوق خيالاته مع نبتة «القات»، فقبل خروجنا من باريس له وقفة ينزع وقتها رغم رفضي. لن يهمّه إلّا أن يُقابل فتاة حبشية لينقد لها عشرين يورو في نبتة مُهرّبة من لندن، وتمنع عنه وعن بِن يزن السأم على طريق لا يخون في الوجهة والمسافة. إن تسأل ماتيلد ما إذا أنا أتعاطى «القات» سأُجيبها: «في أحيان كثيرة لا...». عليها أن ترى في ردّي أجوبة العم كميل.. أجوبة تفتح الاحتمالات على أيّ مصرع تنال منه الرغبة.

أثناء الطرقات المصقولة كرخام يكون الليل أكثر رفقاً بأربعة أشخاص متوشحين فحولة لا يسبق مَقْدَمها إنذار. على المدن أن تتعامل مع حادثة وصولنا إليها بغتة كقدر يُخففه الله على نسائها بالتصبّر.

فور ينتصر ببوصلة الطريق الممتدّ، بِن يزن يذهب في همهمات تمهيداً لصمتنا. في أيّ مرّة يبدأ الحديث عن الفتيات، ويُلهبن قلبه بالهوى إذ يكون طالباً في مدينة «ستراسبورغ». ليس هناك تحديداً.. يحكي خريطة أُخرى في موسم قطف العنب في إحدى تلال «بُورْدو». يُعدد فرصاً سهلة

للتمكّن من قلوب فتيات يتسابقن للعمل في مواسم الحصاد. أبو سُمير يطلب منه أن يُقسِمُ على توفّر الحظوظ. يُقسِمُ عامر صُبيح عنه بنهودهنّ فقط.

ستضحك ماتيلد؛ مُؤيّدة صاحب القصّة، وسأُكملها لها إن تسمع بدايتها في يوم سيُقبل.

بِن يزن.. لا بدّ أن ينتهي عند فتاة تونسية أنهكه الخجل من مصارحتها بشقاء قلبه. يشحذ قوّته لمواجهة ذات ليل. داخل كوخ يضمّ جميع العاملين في الحقول لعشاء سريع. عليه أن يحسم قبل نوم عميق، والتبكير إلى عمل في المزارع. ينفلت كجندي أخير لا يُفرّق بين الاستشهاد وحفظ ماء الوجه.

ستقول ماتيلد ما تتوقعه. لم يستشهد ولم ينجو من أسرها إطلاقاً. حال يقول للفتاة التونسية: «قلبي لم يعد معي». تنظر إليه وتُسدد في النعش المسمار الأخير، بفم يفغر: «... بعد أن تتمّ خطبتي لابن عمي، الأسبوع الماضي، تتحدّث الآن.. منذ عامَيْن لم تقل لي كلمة واحدة!».

نحن في الشرق ننتظر حتّى يطرق الوجع الباب. حتماً هو لن ينتظر صوتاً مرحّباً ولا قائمة خيارات نُعدّها له دوماً. الوجع يختار الطعنة الأصيلة والخاطفة.

لن يُكمل الليل في النوم، وبالتأكيد لن يُكمل العمل إلى جوارها. يختار الابتعاد عن عمليّة القطف، ويُفضّل حماية الحقول من سرب الزرزور المتفشّي في الأنحاء. صوت السرب يخترق انكّساره ويدفعه إلى هروب محمود من أمام الفتاة. أغنية محمد حسن، اللّيبي، «يا حبيبة يا تونس.. يا طيّبة يا تونس» تنهب معه طريق الهرب، وحتّى سنوات كثيرة.

والليل على الطرقات أوفى ما يكون مع عرب مهتاجين. تقدح نبتة «القات» في موقد الحنين، وبصوت يملأه شجَنٌ جارح يُدندن بِن يزن

بأغنية «ليت صنعاء قريبة»، ثمّ لا يتوقف أبو سُمير عن تذكّر شَمَالٍ أشمّ يشيب من أفعاله، لو يدري.

أيضاً على الطريق إلى فرانكفورت يكون الليل أكثر تواطئاً مع عامر صُبيح. لا بدّ أن يُقلّص الوقت بينه وبين مبان طويلة تتوسط المدينة المقصودة، ويزيد من طلاء المديح لها. يُخيّل لنا أنّنا على موعد مع مخادع الأباطرة في بابل القديمة. إنّها بنايات تُشبه سيدات خمسينيات يصطففن على امتداد ضاحية «سان دُوني».. يستدبرن قوس جلاء آخر جندي ألماني من باريس، وحتّى قُبيل محطّة «شاتليه ليهال». يقفن لعرض قارس الرجاء أمام زبون وينتهي به العمر إلى أرذل المتاح. وهو الخمسيني في حديثه معهنّ، يقترح عليهنّ عامر صُبيح أن يُبدين التعجّب لأنّه في تحوّل جديد. إنّه الآن يُراهن على ما خلف الحدود كما يُؤكّد لنا بفتيات الزجاج على امتداد «الشارع الأحمر» في بروكسل. يُنبّهنا لسلوك نظيف معهنّ، إن نزورهنّ. يُشير علينا بلحظة البتّ أمامهنّ.

يُلَقّننا معارفه بجديّة الإنسان نحو الحرية وتجربة أُوروبا تكشفها هذه الهبات اللّامعة خلف الزجاج الشهي. بينما هو يُكرر معارفه على مسامعنا، كيفما يُريد. يقوم في شارع آخر مبنى اتحاد الأُوروبيين، في العاصمة البلجيكية. ربما نهاراً يطرح هذا المبنى في جدول أعماله أفكاراً حول الديموقراطية وحرية المرأة في جزيرة العرب؛ أمّا في شارع خلفي من المدينة ذاتها فصبايا الزجاج يُزيّن الحياة بحقيقة الليل، كما يقول ويُطيل.

مديح ناقص..

عن باريس يقتصر وصف عامر صُبيح لها على تخلّصها قبل سنوات كثيرة من مباهج الجسد. يأتي رئيس بلدية ويُخرِج بائعات الليل وعارضي الرغبات إلى الضواحي. مثل حيّ (سان

دُوني) وشارع (بيقال) الشائك في هبات عابرة يُفضّلها في سنوات تنطفئ. يختار اجتياز الحدود نحو مدن أشهى. يُعلن هذا التناقض. فرنسا تمنحك كلّ الأشياء وتمنعك من أيّ شيء.

كيف يحدث هذا في ظلّ حقوق متوازنة؟!.

يتساءل طلال.

عامر صُبيح يُجيب بأمثلة تَقَدُّمِ فرنسا، وسعيها إلى ريادة في المساواة حتّى في مطالبات المختلفين. يُقرّب للقادمين من جزيرة العرب المعنى. يقصد المثليين وبائعات جسد الليل. بعضهم تمنحهم الدولة رخصة ممارسة هبات الرغبة في Bois de Boulogne (غابة بُولُونيا)، لكنّ الشرطة تقبض على طالب الرغبة. الدولة تمنح وتمنع!. يُضيف عامر صُبيح أنّ فرنسا في محاكاة دائمة لتجارب دول تُجاورها وتتجاهل أنّ العطب داخلي!. كميل لا يتوقف أن يرى هذا السلوك في الدولة من قبيل (الانفصام).

***

الجميل في عامر صُبيح إجادته لحبكة التماهي بين الخذلان والانطلاق. كلّما تتكشف عليه رائحة الخسارة يعود من حيث وعود جديدة لا تُبدي له في أول أمرها تذمّراً من تجريبه وحرصه على فرصة مغايرة. فور نصل فرانكفورت. نلتقي بنايات ما يُفسده الدهر منذ زمن. يذهب إليها كعطّار متمرّس. يفتح ذراعيه لمعمل الشهيق وصرير الأَسِرَة فيها.

هذه المرّة يكون على موعد مع انكسار عاصف ويخدش عميقه. يُعالج ليله بلعبة التماهي وإن يكن بشكل واسع. يُفضّل تغيير المدينة فلعلّ حظّه أكثر كرماً في مواقع أُخرى. نجده من ليلتها يُقرر ألّا يعود البتّة، فالخروج بكدمة صغيرة خيرٍ من الخروج دون أطراف. الكثير يُقال عن هذه المدينة وعن كدمات القلب قبل غيره.

في القادم من خطط الهوى، وسيرة مدينة أُخرى. يحلم ولد السالم بوعود النصر في برلين، متحللاً من عهدة الضمير الطيّع. عامر صُبيح يتخلّص من مطحنة الجسد وجوعه داخل مكعبات تُزيّنها شاشات للتأوه الحميم بمناديل رخيصة. يصرّ على أنّ المرّة القادمة تتكفّل بحظوظ أيسر. هذا بعد تلقّيه قبضات من حديد وهو يطلب من فتاة أن تُعيد ما يدفعه لها؛ لأنّه لم يجد وفاء جسدها كما توقّع!. برلين تأخذه بعيداً في الخيارات، أمّا البقيّة فيُشاركونني التقهقر من أمام مهوى الليل؛ ليُطلق علينا عامر صُبيح سخريته: «جبناء في يوم النزال».

الشرق الكبير..

يقترح عامر صُبيح وجهةً لا محاذير منها وتُغلق النوافذ وعيون الطرقات. يُسجّل من موقع إلكتروني معلومات المكان. يحتفظ بسر اسمه وصور تُؤكّد مرونة عشقه في عيونهم. مكان ينتصف مدينة الشرق الأُوروبي وبابه إلى روسيا. إنّها برلين وهذه المرّة لا يدكّون جداراً واحداً؛ بل جميع أسوارها تُعلن للفاتحين الجدد العهد الخاصّ بهم ولا تتذكّر سنوات الانفصال. هذا من إفراط عامر صُبيح في المديح.

طلال جَسور في الاكتشاف على آخره من التعب والأمنيات المجففة. يعنيه حقاً اقتحام هذه المدينة وتهذيب تاريخه العاجل كفاصل لعائلة لا تبني لذاتها اسماً يُمَجّد. يختار العريض من مفردات المديح لبرلين كما لو أنّ تاريخاً خاصّاً بها ولا يُقال إلّا من خلاله فقط!. يُدهشون بلغة العرض ويُنصتون إليه في حضرة نزق ولد السالم للتذمر أو ذمّ الرفقة. في جميع الأحوال يلعن الثقافة وطلال وأسئلة أبو سُمير عن كمّية الحظوظ هناك.

(...). يستحيل أن يُذكر اسم المكان أمام ماتيلد لو تعلم. وجهة لا يُمكن أن يتوقعوا الخذلان فيها. هذه عبارة إشهار لا تعني أحد سوى الواثب للرغبة والمزيد. هذا يقوله عامر صُبيح

ويُطيل في وصف ليلٍ أحمر طاهر من الممنوعات، وفي جوهره عارٍ من أيّ طهر. لن يتوانى ولد السالم عن ردعه: لا كرامة لأيّ شيء فيك!.

طلال يتتبع ما يسمع على نحو يُجيزه بلغة مضاءة وعلى نحو يُوضّح عراقة برلين المعززة برضا بِن يزن. يحرص على قراءة أثر الكلام عنده لو ينصت له متفادياً مناوشة عابرة بين ولد السالم وعامر صُبيح الأحرص على تأخير أيّ شيء التزاماً منه بعادة إهمال الوقت.

يصلون باب المكان الساخن، في ليل شتاء غاضب. أربعة يعودون أدراجهم عدا عامر صُبيح. يذهب إلى عُريٍ شامل. اليوم التالي يحكي على قرب من انتباه ولد السالم أنّ جميع الأشياء تحدث، كما الوتر في آلة العود يستجيب للريشة قبل أن تمسّه. يردّ عليه ولد السالم بيقين العارف مسبقاً: إذن منح الجسد لدَيْهم عبارة عن خدمة اجتماعية.

يُؤيّده عامر صُبيح ويُضيف: لن أُحِبّ سواهنّ.. أُقدّمُ لهنّ المقابل ويسألن عن رغبتي وعمّا يُرضيني.. بينما أمّي وزوجتي تأخذان وتأخذان دون أن تقولا لي ولو لمرّة ماذا تُريد!.

يطول الحدث، بالتخيّل دون أن تحصل نتيجة مبهرة.. يكثر هذا في برلين وغيرها. لا يتوقفون عن الكلام الحميم حول العاشقات المحتملات وأشكال النّدى في بلاد أُوروبا.

***

عن «النّدى» تحديداً يُؤكّد بِن يزن، ويسمع أبو سُمير النهم، أنّه بحكم عمره القصير جدّاً؛ إذ يموت بالشمس سريعاً، لا بدّ أن نُنجز حقّه قبل الضوء. يعني هذا طبقاً لليل وظلّه الفسيح أن نختم نوازع الشوك والحاجة بخلاصنا من الماءِ الساخن في دِلائنا قبل أن تنهبنا الشمس والذئاب. يذكر أنّ مجيد الصنعاني ـ مواطنه اليمني ـ ترشح للدراسة في فرنسا.

يُقسِمُ بلسانه، قبل أن نلتقيه في مهوىً ليليّ، بأنّه عندما يستلم جوازه من السفارة الفرنسية، في صنعاء، ويُشاهد تأشيرة الدخول: «تتمدد جميع الأشياء بي..».. كيف سأنقل حكاية هذا الجائع إلى ماتيلد؟!.

ليس بعيداً عن ناصية شارع «كُومّيرس».. نجلس في «شارلي بيردي»، ومعنا مجيد الصنعاني، وأسأله: «هل ما تزال على تمددك؟». لاحقاً قد يطلب كأسه من «قِلِن فِيدش»، فيذكر له بِن يزن أنّ منتجي هذا الشراب، وعبر إعلانه؛ يُفاخرون بقنانيه قائلين فيها: «نحن لا نُخرج فتياتنا للشارع قبل الخامسة عشر سنة». يتّقد أكثر هذا الـ«مجيد» ويتعجّب: «لكن أن يُعَتّقوه طيلة هذه السنوات يعني زيادة في السعر!». يعود لسؤالي صامتاً وينظر إلى فتيات، أغلبهنّ فرنسيات، يزحمن مكاناً صغيراً في الوسط لمراقصة رفقة من الشباب. لا يتقدّم بأيّ كلمة. بِن يزن يُلفتُ انتباهي كلّما يترك طاولتنا بعذر التواليت. يُحاذي دائرة وفيرة الفتيات. لا بدّ أن يُمرّر راحة كفّه على كتف إحداهنّ، أن يُلاصق خصرها أو ذراعها. من أقاصي الجوع وبقسوة الضرورة يلمس فتاة لن تستغرب حركته بداعي الزحام. نراه يشبع براحة كفّ تلمس شيئاً من جسد محموم في الرقص. هذا منال كبير له ويُحقّقه بعبور إلى حاجة كاذبة أو يعود منها. سلوكه يكون طعام عيوننا النهمة من طاولتنا. عندما يستقرّ ذهب النشوة في الرأس يبدأ مجيد تسويق ممالك بلاده في الكون. يرأس جمعية حماية ممتلكات اليمن في الفضاء السرمد. الملكة بلقيس تُلبّي دعوة الملك، النبيّ سليمان، وتأتيه على عرشها عبر السديم العظيم قبل رُوّاد الفضاء الروس والأميركان. الملكة في هذه الرحلة الكونيّة تضع يدها على جميع الكواكب فتكون تحت تاجها. مجيد ورفقته في صنعاء يُطالبون «وكالة ناسا» الأميركية وغيرها بالتوقف عن التعدّي على سيادة اليمن العابرة للفضاء. علينا أن نُؤيّده بنخب هذا الحق الأزليّ أثناء تناول العشاء. الكؤوس في موسيقى

اصطكاكها على العيون أن تتلاقى بغبطة أداء الواجب. في جميع الأحوال لا فتيات في جعبة الليل ورفقتنا؛ وحتّى لا نُضيّع عليهنّ متعة الليل لمدّة عام إذا لم نحدّق في عيونهنّ على صوت الكأس. النبيذ من «مِيدُوْك» وفي ثلاث قناني تكفي لخمسة عاطلين عن عطر الصبايا عدا واحداً يشبع باللّمس. في ختام جولة النبيذ، وقبل مياه الذهب، بِن يزن يسأل على الطاولة، كعادة الفرنسيين: «كيف هو النبيذ؟». يبتر مجيد تَطَلّعه بجملة جافّة: «جميل لكنّه قليل!». أيّ «فرانكفوني» يسمع هذا السؤال يلزمه أن يتحدّث عن سنة الإنتاج وحالة الموسم أو قلّة الماء ومصادره. عن لون العنب ومذاقه فيما يشربه. عن ميلان الشمس وسطوعها على التلال. عليه أن يصف التربة وكمية السماد ونوعه. لا مناص من الحديث عن اسم المزرعة وتاريخها وأهمّ محصول أنتجته. مجيد لم يفعل هذا. الجوع إلى المياه خير معيار لقياس الحاجة من لوعة عميقة. عينه لا تُفارق ساحة الرقص، ويده تمسح على الطاولة.

ولد السالم يذهب في شراب لافت الحضور في الكأس إنّه «أبير فيلدي»، وأبو سُمير يُسمّيه «عابر في بلادي». ثمنه يتجاوز المئة والثلاثين يورو لقنينة عمرها عشرون عاماً. استغلالاً لخدر عَذْبٍ من هذا الشراب، يعتقد بِن يزن أنّ ولد السالم لا يكاد يُبهرنا بخطيئة حلوة حتّى يأتي بأجسَرَ منها. في هذا تطول القائمة مع أسماء جارحة لورد القلب بداية بكرستينا. لا شك أنّه يتوقف بعد قليل عن الحديث في حنطة من جزيرة العرب. إنّها فتاة بصدر يتخفف من «سوتيان». أنا أضحك من خجلنا ليلة تجمعنا صالة جلوس معها. لن يستغرق ولد السالم مرافعة عن هذه الفتاة ولا من الأعذار حتّى يُبعدها عن طاولة تُعيد التهكّم علينا. عامر صُبيح يلتزم الصمت كي لا يُحاصَر بلعنات أنّه لم ينزع عن تلك الفتاة شيئاً من الحاجة. في الوقت ذاته لم يترك لأحد أملاً في تجمّل كلمات معها.

بِن يزن خير من ينازل بالأعذار كي لا تُمسّ حقوله بسوء عاصف الرغبة. وإن يكن العاصف لا يهدأ قيد لحظة خاصّة من تحفّز أبو سُمير المترقب. ولد السالم يُقاوم فداحة الخذلان بقليل من النزق. كلّما يُخفق في اقتناص بهجة ينقلب على الجميع متذمراً ومندداً بفكرة مسايرتهم. يُخفف من وطأة حمقه أن يستيقظ مبكراً ويقتحم أماكن صغيرة من محلات وبائعي أرصفة في برلين تحديداً. هذا يحدث باستمرار أثناء السفر لدول تقترح عليه هكذا عروض صباحية من مأكولات وملابس يرضى بها في تباهٍ مبهج وكأنّه مكتشف نادر. صباحاً يستحلي لنفسه سمكاً مجففاً ثمّ يطيب له اختيار ملابس داخليّة.. مرّة بوردة على المؤخرة، ومرّة صاخبة بـ«بوكسر» عليه أكثر من صورة حول محيطه لدجاجة يتدرج عريها من أردافه إلى أن تُبحلق هلعاً عند أشيائه العاطلة. هذا «البوكسر» بصفاته يخصّني به كهديّة. في صباحات كثيرة يُعدد الغجر ووشوم الحياة عليهم ويصف حقائبهم المختلطة بنيات التنقل.

***

يُؤلمني أن يقطعوا دعم دخانه «الرُوثمان» المُعْفَى من الضريبة. هل ألمي علامة تضامني الوحيدة مع العم كميل. وبالأحرى هل هذا كاف ليعرف أنّني أُحِبّه؟!. أتمكّن من هذا الاعتراف وأقبض عليه تماماً ما أحيا. أنا الآن في استديو ذي عتمة محببة. وأعرف أنّني لست أُفقاً للطموح.. كلّ النجاحات المنتَظرة تنتهي ناقصة. لا شيء يصل وافياً. تبدأ إرهاصات في العمل لا تُبشّر بغد. أنا محاصر بـ«عبوديّة العصر». إنّها الوظيفة الحكومية ولها مزاج الجرف. عليّ أن أُعدّ العدّة للسقوط متى يرغب أرباب الوظيفة. بينما العم كميل سيُدرك هذا منذ الستينيات، ولن يُزعجه عدم حصوله على خطاب شكر نظير هذه الخبرة العميقة. لن يشكو من مصادرة خلوته ومنعه من التدخين في المكتب. يوماً ما يتحدّث لمرّة واحدة فقط عن إيقاف إدارة

التمثيل لامتياز الإعفاء الضريبي الممنوح لموظفيها ومتعاقديها من سلع كثيرة. يوماً ما يكشف لي أنّه بلا تأمينات طيلة أربعين عاماً.. تتابع الإدارات دون التفات إلى دوره. يقوم بكلّ شيء للطلبة ومعظم رؤساء المكتب.

أعود إلى المكاسب المؤقتة. ننشط في أعمال ثقافية تعلو متى تتكرّم وزارة مرجعنا بالدعم. لأعمال التمثيل لن يُوجد نشاط واحد مؤسَّسي وله أجنّدته وخططه الواضحة وميزانيّته المحددة. يموت كلّ مشروع متى يُغادر مَنْ يُؤمن بالحراك الفعلي. يلتقي السيد خطّاب بالملحق الثقافي الصيني ويعرف أنّ على أرض فرنسا وحدها ما يفوق خمسين ألف مبتعث من الصين ولا علاقة له بهم. يرتبطون بنظام صارم في بكّين. الملحق الصيني همّه الوحيد تحريك قوافل الثقافة الصينية في باريس.

أكاد أنسى.. المكتب في شجاعة جيّدة يُصدر «كُتيّباً» يشرح شيئاً من حضارات على أرضنا، بعنوان «إرث العابر» في تظاهرة صغيرة مع آثاريي السوربون. الكُتيب يُصاحبه مُلصق يحمل صورة تمثال لامرأة عاملة وله عمر ثلاثة آلاف عام تنقضي. مُلصق لافت يُزيّن أركان المكتب وتنشره بتحفّظ صحيفة واحدة في بلادنا.

محاولات السقف محدودة وليست مؤهلة لدخول ذاكرة باريس الطويلة، مثل ما تفعل أميركا اللّاتينية أو حضارة من شرق آسيا. السيد خطّاب لن يُوافقني الذهاب في هذه المقارنة. يسألني التأمل فيما نُحققه من طموح ويُمكن اشتغاله. حتماً عليّ أن أتخلّق بإنصاف ولو ببادرة قلب أنّنا قادرون على فعل شيء. جدير بي أن أستعرض عناءً أقضَّ جبينه وصحته مع جامعة السوربون وهو يُقنع مسؤوليها بإضافة صفة «الإسلامي» إلى برنامج حضاري يتعلّق بالاقتصاد. برنامج يُقارب بين الثقافات وتدعمه بلادنا في هذه الجامعة المديدة. السيد خطّاب لن يسرّ لي بهذا، ولكنّ أوراق العمل تُفشي الكثير. إنّ قَدْرَ هذا الفتح في أعرق جامعات العالم،

يلزمني أن أُطيب خاطري بهكذا مكسب. كادر باريس يفي لكافّة الأعناق، لكنّ باريس نهمة المنافسة، ولن تهب مساحة في صورتها لغير الواضح. نحن تمثيل يأمل بوصلة الجَمال لكنّ دوره يتوقف عند شأن التعليم والطلبة السعوديين. «هذه علّة تطول غصّتها في الحلق.. إنّ عنقي أقصر من كادر باريس بكثير». أستقي هذا من حديث العم كميل عن الثقافة العربية.

هناك في بلادي ما يَلُوح في الأُفق عن تبديلات وزارية محتملة. إذن المكاسب المؤقتة مَزْلَق شنيع. إنّها انتكاسة أوجع من الفشل.

على ماتيلد أن تتعجّب: «ستُواجه نفسك يومياً بهذا الحصار!». العم كميل يُواجه نهاية أيّ يوم عمل بالتفكير في الخامسة من فجر يوم الغد، وبـ«باقيت» من المخبز المجاور. يحرص قبل سرير النوم على رمي المخلفات في خرطوم الحاوية، وينظر إلى بذلته المُعَدّة لدوام اليوم التالي. إنّها البذلة ذاتها ورفيقة شهر كحدٍّ مُرض. لن يتّخذ الحرج منها معياراً، فهو لن يذهب، لن يتحرك كثيراً. كما أنّ الملابس الرسمية، بتعبير السيد خطّاب، «لِبْسَ حِشمَة». أيْ أنّها لن تتطلّب كثير عناية طالما تُستخدم لغرضها فقط. إنّ الرتابة لن تجد لها مثالاً غير يوميّات العم كميل.

ومن قبيل مواجهة نهاية أيّ نهار.. مارتين تحكي مراراً أنّ زيارات «بِتْشُون» إلى العيادة الخاصّة مجدولة؛ وتكون في الخامسة بعد الظهر. لن تتصوّر هي أنّ العم كميل يستأذن من رئيس المكتب، السيد خطّاب؛ ليخرج. يحدث هذا مرّة على الأقلّ كلّ ثلاثة أسابيع؛ لارتباطه بموعد طبي للكلب، ونعرف. تتذكّر أنّه يفعلها كثيراً. في آخر الأمر تصمت عن تخوفها من تحفظّنا حيال مواعيد منضبطة تخصّ حيواناً يهرم هو أَولى بالوقت من أداء العمل. ماذا لو تعرف مارتين أنّ العم كميل حال أطلبه فاكهة يُوصيني بقطعة «كيت كات»، ويحتفظ بكثيرها في مكتبه. يوصيني بالشوكولا لأنّ «بِتْشُون» يُفضّلها!. بالتأكيد بِن يزن يمتدح اختياري إذ يتطابق مع ذائقة الكلب.

لمزيد من الإيضاح.. إنّني أتلمس طموحات ناقصة. لا يُمكن البداية من جديد؛ لأنّ الفرَص بين سادة بلدي تظهر لمرّة واحدة فقط. صراع يحتدم بي والعم كميل يُكرر: «أقصى درجات الحياة.. النقصان»، بينما إيقرِك سيُؤجّج داخلي، فالمحاولات حق قائم، وعلى صوته أن يضجّ في الاستديو ليليّاً، لو يقول: «إنّني مرعوب على مستوى أنانيتي أن يدنو فأخسر طموحي أو يعلو فأخسر الحياة».

من جانب الحنين، أُعزّز الرفض بتساؤل صديقة تغيب ! هل يترك لنا مَنْ يُصادر حقائق أحلامنا، أن ننعم بأحلام أوهامنا؟! !. أنا موظف صغير وعليّ الاختيار، لكنّ الهبات محدودة وموزّعة مسبقاً!. لماذا أمتثل للانكسار؟!. عليّ أن أُحارب بأسلحة نظيفة.

الانكسار مدعاة لفكرة تسوية، التسوية ترميم خاسر.

في حضرة العطايا..

حال يأخذ طلال إجازته السنوية، يكون بن يزن في شغل ابتكار القصص الودودة عنه. يبدأ بسؤال كميل: لو تُقَدّر لك المنح الإلهية...

يُقاطعه كميل: لا تُوجد منح إلهية. تُوجد فقط منح السيد خطّاب.

على السائل أن يُصحّح من تقديمه غير المناسب معه. في المكتب يخصّونه بحديث يختلف عن التعاطي مع أيّ زميل آخر. بن يزن يُعيد صياغة كلامه الموجّه له هكذا: أنت على حق أستاذ كميل. إذن لو يمنحك رئيس العمل عشرة آلاف يورو وحجز بأحد الفنادق على الريفيرا الفرنسية، في إجازة طويلة، فمَنْ تصطحب معك، بِتْشُون أم الأستاذ طلال؟!.

. يذهب الجميع عندها في احتمالات غير صائبة، مترقّبين إجابة القلب فقط، فلا نرد ولا ضربة حظّ ليتوقعوا الإجابة المناسبة.

يردّ كميل: أصطحب الاثنَيْن معاً. أنا لا أستطيع الاستغناء عن أحدهما أبداً.

كميل لا يسعه سوى الانتظار لمدّة أيام حتّى يعود طلال ليُخبره أنّ بِن يزن يضعه أمام امتحان عسير، لكنّه يستطع اجتيازه بشهادة جميع الزملاء. يرى طلال أنّه على مُنتهى العطاء، فيُعيد له الجميل سريعاً بما يحمله معه من (خراطيش) دخان رُوثمان له. لا بل لمارتين، وربما تمنحه هي بطريقتها، ويعترض كميل، ليُوضّح له: هي، قبل سنوات، تطلب منك الزواج.. إنّها صاحبة الولاية عليك.

يبقى الجميع على ضحكهم فلا فرق في المنزلة بين طلال وبِتْشُون في ميزان كميل، فحبّه العادل بينهما لا يميل لأحدهما حتّى عند أقصى متعه.

***

وفي غيابها.. يقبض من جرحي القليل صاحب ألتقيه في فندق. لن يهمّ اسم الفندق. يكفي أنّه يقع على شارع «مُونْتيْـنّ» لتعرف ماتيلد أنّه صديق من النخبة إن تعود وأتحدّث لها عنه. لا شك أنّ المكان سيُعيدني لظلّ كتفَيْها ينام على صدري تحت إضاءة وبريق شارع تسرق عراقته الماركات الشهيرة جدّاً. فيما لو تعود ستزيد معرفة به أنّه من نخبة القلب لا أكثر ولا أبعد.

دخيل التركي أُقابله ذات ليل فيه مورد الحزن كريم منّي. لن يُدير حديثي برأفة متمرّس في احتواء مواطن له. يفتح غيمة راضية لها كلمات ترصد الموازنات. يأمل ألّا أتصادم مع أحد أعضاء التمثيل تحديداً. ينال من صمت بنادقي. بتعبير مباشر يتمكّن من ضبط غضبي. يُجيد فتح أبواب أُخرى أمام الأصدقاء. أبواب لها طبيعة هادئة في صوغ إعادة النظر. أكاد أنسى، بالأمس القريب جدّاً تُهدد «جهة التمثيل» بإرسال ملاحظة عنّي إلى المراجع العُليا في البلاد. يضحك آخذاً امتعاضي على محمل أسفه.

لكنّه يترك لأبواب طيّبة أن تسمح لي باختيار فضيلة التريّث. يدعوني إلى منصة الحديث في برنامجه.

أكاد أنسى، فور ألتقيه ـ على قيد خفر ووقار ـ يمدّ يُمناه الواثقة باتجاهي ليُعرّف بي إلى زوجته المتعجّلة لصغارها قائلاً: «فقط لتعرفي أنّ زوجك ليس عنصرياً.. هذا صديقي طلال من جازان». وبابتسامة تلزم الموقف أتشرّف بتعريف لا يُجانب حقيقة جغرافيا تكشف أنّني من جنوب غرب البلاد بينما هو من «نجد المُلْك»، ونضحك. لن يكون في هذا اللقاء سيد برنامج عبر سنوات قليلة يقرأ ظلمات يُربّيها آخرون في بلادنا، ويُعيد مع أشخاص ذاكرة ما. يتتبع الضوء تيمّناً باسم برنامجه، وأتذكّره في المقبل من الشتاء.

ولأنّ مساء المُتعبين طويل يكون دخيل التركي جبيرة رحيمة إلى أن ينصرف أغلب الليل. نتحدّث عن غازي القصيبي إذ أجلس معه في فندق «البِريسْتُول». أذهب مُطوّلاً في تفاصيل اللقاء بهذا الوزير متى أتخفف من حدّتي بسطوة نخبويّة صاحبي في القلب.

أُخبره أنّ أغلب أعضاء التمثيل في باريس يتغيّبون عن أُمسية لغازي القصيبي في «سيدة الأعلام»، ويتعجّب: «نعم!». «أعتذر أقصد اليونسكو.. أحبّ أن أُسمّيها هكذا». يبتسم. أقرأ في طيب خاطره أنّ حضوراً بحجم القصيبي لن يترك أمام الصغار فرصة الظهور إلّا بغيابهم. هم يُفكّرون هكذا، بينما الكبار لن يلحظوا أيّ غياب فسفح الجبل حتّى الغيوم تُدين له بمصافحة دائمة. يسأل عن لقائي بوزير له قامة رفيعة. يطول التمنّي للبلاد.. يسمع عن التعليم، خاصّة أنّ القصيبي يتحدّث معي عن أرق الملك من أمرَيْن: «تمكين الذوات من الوزارات.. وعقليّة ما يُقارب نصف مليون معلّم». أُخبره بأول قرار تتّخذه اللجنة العليا لإعمار ألمانيا بعد انتهاء هتلر، نقلاً من العم كميل. يقطع مثالي قائلاً بمرارة: «أعرف..

اللجنة تُقرر إعادة هيكلة التعليم كأول خطوة لبعث بلادهم إلى الحياة».
الحرب تمحو الحياة، بينما هناك حروب تُشوّه الحياة وتجعلها مسخاً.

نتحدّث.. نسعى في صفّ جنود لا رصاص يحملونه، ويُرمّمون ما تشوَّه في بلادي. أهمس له:

«من الأنقاض
صنعوا بلاداً
لا غبارَ عليها
لكن الأنقاض
بقيتْ فيهم».

ويسألني عن قدر ترجمات قائلها، «عبداللطيف اللعبي»، إلى العربية، كما هو حال «هاشم صالح» الأمين على خِزانة الفكر العربي. سيقول أنّنا برحيل «عفيف دمشقيّة» نفقد منذ سنوات إخلاص نقله لأعمال «أمين معلوف». لن يلحّ على تفاصيل كثيرة في هذا؛ طالما أن تجربة كلّ واحد من هؤلاء تختلف من حيث الاشتغال وأجناس الأعمال المنقولة.

أكون خجلاً من الحديث في الكثير عن بعض شخصيات التمثيل الدبلوماسي. أتذكّر العم كميل يقول: «يا طلال هناك شيئان لا يتحدّث الناس عنهما إطلاقاً.. فسوق الغني وموت الفقير». صاحبي لن يسمع منّي هذا.. أتجاوز الكثير على مضض، وهو بدماثة ثريّة التجربة يتفهم. لو أتحدّث عن مبنى «جهة التمثيل» المتهالك، فلن يصله التساؤل عمّا يمنع بلادي من امتلاك أعرق المباني في طفرة السبعينيات. دولة قطر تتباهى سفارتها بعَلَم مرفوع أمام قوس النصر. وتذهب في أطياف باريس إلى درجة استضافة أهمّ فرق روسيا الموسيقية. هذه الدولة الناهضة تملك صفّاً من المباني الخالدة وتعود للخارجية الفرنسية على ناصية «كليبر».

وأتحفّز للحديث عن ممثليات بلادي. إنّها لا تُفوّت مجاراة تجربة العرب في باريس، ومجلس سفرائهم ينحاز لعوامل التعطيل. تلك ميزة لإيضاح محافظة أيّ بلد عربي. السفراء لا يُنجزون صوتاً واحداً؛ بل يمتازون باتساق احترامهم لأيّ امتناع من أحد أطراف وطنهم الكبير. مع أنّه وطن بلا أطراف عدا في التسميات؛ إلّا أنّ الدم الواهن عليه أن يُعزّز وحدته ولو بالصمت.

صاحبي يُصرّ على مثال ما أقول، وأتردّد..

في اليُونسكو يُرسل مندوب بلادي سجّادة ـ هديّة ـ إلى مندوب أيّ دولة صديقة، لصوتها قوّة ضغط في المنظمة. سفير السويد يردّ إليه مستفسراً عن صفة الهديّة أهي شخصيّة باسمه أم رسمية باسم السويد. سفير عربي سيُرسل أنّ زوجته ترغب في لون أحمر قانٍ إن يُوجد ويُحاكي أثاث غرفة الجلوس لدَيْها!. في احتفالنا بعيد البلاد يعرضون لقاء «الملك المؤسس» مع « رُوزفلت». يبتسم: «يصلني الخبر لأضحك حتّى هذه الساعة».

بمزيد من أبواب تقترح الهدوء يسألني، متى أستطيع الشجاعة، أن أكون ضيفه في برنامجه الواضح. نبتسم لنُقلل من خوفي لو أُذكّره: «إنّها الوظيفة الحكومية.. الرقّ الحديث يقول كلمته...».

يعرف أنّ لي يدَيْن في أغلال الحاجة. يسمع حكايات صغيرة ورأياً عن رواية «العطر»، ويقرأ من كتابات تخصّ صديقة تغيب، ثمّ ينصت أكثر إلى حديث عن فتاة فرنسية ومشاريع قلب جبان. هنا يضحك بدرجة لا يحدّها تحفّظ لأنّ ليس في هذا مساس بالبلاد. مما لا ظَنّ يشوب بعد هذا، يكتب في قلبه شيئاً، ويأخذ من اسمه نصيباً وافياً حين «يترك» خشبة الليل النافذ بتحيّة. يُصافحني ويتشدد في أخذ وعد أن أكون في برنامجه متى أصير في طابور الشجعان الغفير.. يُودّعني وأنا على نزع المحاولة.

***

لو أنّ الزمن أقصر ركضاً، لو أنّ الحياة أقلّ عمراً، قد ألتقيها في مدينة «رُوان». تُنظّم بلدية هذه المدينة مهرجاناً تُسمّيه «لارمادا» ويسوق إليها من البحر السفن الشراعية القديمة. على نهر السّينّ تعجّ ضفتاه ببحّارين من كلّ مياه الأرض. سفينة واحدة عربية تحمل عَلَمَ سلطنة عُمان. هناك لوحة تخصّ مشاركتنا ـ يكتبون بالفرنسية (العربية السعودية) ـ وتحتها خيمة بشعار «النخيل فنار الحضارات» وأغاني البحر من سواحل بلادي. في الأرجاء سفن بذاكرة المحيطات النائية. وشوم المرساة علامة فارقة في مديح فنارات تُرحّب بها على مدى أزمنة. لغة واحدة للأشرعة لا يُلغيها رُسوّ.

تضجّ مدينة «رُوان» لمدّة عشرة أيام بليل البحّارين. تهطل حكايات عن جزر يتيمة في مقابر المياه. عن أولاد يعيشون حول الفنارات كالنوارس في انتظار العائدين. عن وعود العودة لنساء يتّشحن بالأزرق كي لا يأكلهنّ يأس البحر. يبيت نهر السّينّ، طيلة ليالي المهرجان، كأنّه آلة موسيقية ضخمة لا تهدأ تحت مدينة تنام على تلّها. بعد تسعة أشهر من هذا المهرجان تشهد هذه المدينة ارتفاعاً في معدّلات الولادة. الفحولة أيضاً تجد نصيبها من الرسوّ لأيام.

سأُفكّر.. يا لحسرة البحار البعيدة، كأنّني أصيخ لشفار السفن تجزّ فيها الموج إلى مرساها هنا. إنّما لإبحار ماتيلد داخلي مجازر سخيّة.

سيَهَبُ القلب الواثب أنّني سألتقيها هناك، وسيُذكّرني العم كميل بشاعر الحبّ والمعركة «لويس أراقون». في خراب الحرب يحيا ليكتب إلى عشيقته قصائد النزع الأخير. من فرط وجده بها تكاد القصائد أن تهتك أجنحة العصافير في سماء تُظلّ ساعي البريد بينهما. يكتب في «إلزا»: «أدور في نور النّهار ووجدان الليل.. أحمل تلك المرأة في دمي، كما تحمل غابة صوتها..». «إلزا» لا تحتمل جحيماً في كلمات تصلها على ورق من

النورمندي. تُقرر أنّ تطمئن عليه. لها إيمان يحمي عربتها وشوقها، رغم بنادق الاقتتال. تُغامر بقلب نحيل في الخوف والترقّب. تتعمّق بين مدن مدمرة، وقرى تضيع في اللهب. عندما تصل إلى شاعرها تفجع بقوله لها: «ماذا تفعلين هنا؟!(1).. عودي لأُكمل القصيدة». قصيدة تُعلّمني كيف يكون المديح لعينيّن وكيف يكون الكاتب رجل مقاومة بامتياز.

فور أراها، إن نلتقي في مهرجان «لارمادا»، هل سأقول لماتيلد: «ماذا تفعلين هنا؟!». إن يحدث عليها الكتابة إلى إيقرِك. ستُخبره أنّها تلتقيني. سيبعث إليها عشبة فرح بخطّ يده: «فتى يلتقي فتاة عصيّة وتحبّه على طريقتها، يُقرر التحوّل. يركض خلف التلال، ولا يسع الربيع إلّا أن يحلّ قبل موعده بموسمَيْن». سيُعلن أمله في عودة العاشق بفتاته. فتى لا يفي حتّى اللحظة بموعده معها لاستلام مبلغ الخمسين يورو!. سيعنونني بالفتى. لا يُوجد فتى غير الأمل، ولا يشيخ سريعاً ويفقد نبضه في لحظةٍ سواه.

هذا في مدينة «رُوان» سأتصوّره، بينما في صيف قد يعقب جميع هذا، تفتح تونس حمّامتها للقادمين من شَمَال البحر. يتراكم جهلي بمكان الأستاذ توفيق سلّومي. لم يعد له أثر في الهاتف؛ لذا رجائي أن ألتقيه في تونس ليس فاعلاً. أين أبحث عنه؟!. ما يتركه من آمال للغد يجعلني في انتظار. ما تتركه أصابع يده على طاولة المطعم التقليدي من حسرة تكاد تُطلق من حلقي النشيج.

الصيف سيأخذ ماتيلد في رفقة مجموعة من طلبة «معهد العلوم

---

(1) ـ **يلزم كميل أن يتدخل ليُصحح**: بل الشاعر لويس أراقون يدخل على إلزا بعد زواجهما ليُخبرها أنّ لديه حبّ أكبر. إثر قيام الحرب يُقرر أن يقود الشعب بالشعر نحو الدفاع عن الوطن. يُفضّل أن يكون طليقاً وليس حبيساً مع إلزا في البيت. من هنا يصل إلى مقام الشاعر المقاوم. لن يُقتل مثل الإسباني لوركَا. يُزجّ به في السجن لمرّات عقاباً أولاً لقصيدته (الخطوط الأمامية الملتهبة) ثم لتكميم صوته.

السياسية». عملاً بواجب إكمال قصّتي الخاصةّ، غير القابلة للتشابه، وما يفرضه تتابع التفاصيل؛.. سألحق بجنّتها في تونس.

عليّ أن أجد قصّتي معها تتقدّم في القلب أكثر منه في ذاكرة أكتبها يوماً ما.

بالفعل.. أكتب لأنّني أُقرر مصير الرؤيا، لأنّني أُحدد فرص العالم لدَيّ. بحاجة لمغادرة نوايا التاريخ وكل رهانات الجغرافيا. حيث تُوجد فرصة بداية يُوجد زمن أو مكان إمّا لتأكيد تماثل عرض الحياة مع سابقين أو لتقزيم تجربتي!. لا بدّ أن تكون لي قصّتي المنفردة.

> ... الوحيد ربُّ الليل.. الوحيد عائلة الألم.
>
> يدّعي التخليق. يُشكّل الظلال شجراً والمطر غيمة والغياب مسافات والمدن قصيّة، حتّى عندما يأتي على ذاته يتكشّف كنزه: كائن الالتباس.

***

ساحل ببريق أجساد أُوروبية. وجوه تصطاد الصيف من مياه تونس العاصمة. تنشط رحلاتها إلى فنادق تنهب قارعة الساحل النظيف، ويترامى الشاطئ لها محفوفاً برمال نقية. لتلك الوجوه أجداد بعيون زرقاء يأتون من شَمَال المياه المتوسطية. في المساء مجموعة من شبيبة تونس سيستعرضون تراث بلادهم. سيأتي حادي الكمان «رضا القلعي» عَرَضَاً على معزوفة تُؤرّخ عاراً كبيراً. لن أُكمل القصيدة، فباقيها يفضح الأجداد البِيض. ينزلون من الشمال ويهتكون حرمة أول مدينة تستقبلهم. «واااا كبدي على جرجيس».. سيكون هذا صوتي. أغراب برؤوس صُفر يهبطون من أعالي البحر. يُحطّمون حيطان المدينة وزوايا أولياء للنَّيْل من فتيات يلذن بها. «ناري على جرجيس وبناويته». هذا نحيب كمنجة

«القلعي». مكان العرض سيكون ساحة صغيرة وسيتابع عدد السيّاح الفرنسيين أمامها في مدرج يتّسع لمئتَيّ مصطاف أنا أحدهم. ستكون ماتيلد في صفّهم والصمت. سأتكبّد مشاهدة فنون محلية وسيأتي عازف الجرح عَرَضاً. ستُطفأ الساحة فجأة ليُعرض افتتاح «أُولمبياد بكّين». رسالة حضارية فائقة الوضوح. الأرض وحصاد الزمن من حضارات ولا مستقبل غير أطفال العالم.

كلّ هذا في عرضٍ كونيّ. أمّة لدَيْها ما تقوله وتُراهن عليه. أُفكّر بحالنا من البحر إلى البحر، ونملك حنيناً ثميناً. ستطفر من عيني دمعة غبيّة. صباحاً سيأتي رحيل محمود درويش من الدنيا. الشروخ تتضاعف من جميع الجهات. باريس لن تنساه. تُخَلّده في الدائرة (6) بساحة تحمل اسمه[1]. يذهب إلى جراحة القلب وهو يعلم أنّه سيموت. لعلّ المحاولة تستحق هذه الشجاعة وعناء المسافة وآخر الخيارات الموت. والد صديقة تغيب يفعلها أيضاً بشرف العشق، ويكون أخذاً كبيراً في السماء، كما يأتي. نيلٌ فاخرٌ لا يقل عن مجد اليتم لقصيدة. بعض الشجعان يعرفون أنّ أنواط البطولة في جانب آخر من الله. ماذا من «عَسَى» أمام البنادق

---

(1) ـ كميل يأخذ طلال بيده ليُريه ساحة الشاعر:

"Nous aussi aimons la vie quand nous en avons les moyens.. Mahmoud Darwich"

ـ يترجم له ما يتمنّى أن تكون عليه كلّ السنوات: «نحب الحياة إذا ما استطعنا إليها سبيلاً.. محمود درويش».

ـ تكون هذه العبارة تحت اسمه في تلك الساحة على رصيف ملاكيي (Quai Malaquais).

ـ يُضيف كميل: هذا التكريم لن يرتبط بإعمال توازنات، إذا ما نعرف أنّ هناك ساحة باسم شخصيّة إسرائيلية، وعدم إطلاق اسم القائد ياسر عرفات على إحدى الساحات. الشاعر درويش يُمجّد في باريس وحيداً وبمنأى عن كلّ شيء.

والشعر الأخير؟. يختصر الشاعر البقاء ويذهب كما يفعل الرصاص بـ«أحمد العربي» ويكتبه، فَمَنْ يكتب الشاعر؟!. فيما لو نكسب وقتاً واحداً للأقدار.. هل سأبكيه والعاشق على كتف ماتيلد؟!.

على هذا النحو لا بدّ أن تكون إلى جواري في المدرج. سأنهمك في المتابعة لمحفل الأُولمبياد. سأشعر أنّها تتفحّص من وجهي الجانب الأقرب لها. لن أدفعها للتوقف إن أنظر إلى عينيّها. ستُدقق في سالف مُوشّى بشعراتٍ بِيض. أتعمّق عمداً في النظر إلى حائط العرض. هي ستنجرف أكثر إلى الدقيق من رغبة الامتلاء في وجهي. أنفي يلمع برطوبة وبشرة دهنية. كأنّها تُفتّش عن صفات محددة لشكل مَنْ تنتظره في ربيع يتراجع لدَيْها. ماذا يعني أن أقترب من الأربعين؟!. ستنفر شعرة من أذني وستراها. سأشعر بأنّها لأول مرّة تتفحّصني جيّداً على حال التهدّم هذا. ستكون إلى كتفي الأيمن. ستُسوّي من جلسة تُجانب العرض قليلاً إلى جهتي. سيُوفر لها انشغالي قدرة في النظر ومعرفة من أين ستبدأ تجاعيد صدغي بعد قليل سنوات. سترسم خطوط الزمن في جبيني وعلى أيّ ملامح سأكون. إن أُلاحظها وألتفت إليها كلانا سيشعر بخجل. سأتوقف عن المتابعة وأنشغل بزرّ في قميصي كأنّه سينقطع. سأُفكّر بعد سنوات يبقى هذا القميص مُقَلّماً بحُمرة ولن يبلى. فعندما سيُوشك بزرّ أن يسقط هي ستخيطه بقبلة. عندها سيحتفظ القميص بكل أزراره وسيعود حُلواً مثل زهر الصحو. هذا التحوّل سيُوقفها عن ملاحظة ملامحي غير المُجدية لفتاة أُوروبية. لن يُغريها وجه ببشرة دهنية وسالف أبيض وأذن مشعرة بعد زمن قصير. عليها أن تُلاحظ تورّم أنفي بفعل الرطوبة. ستشمئز ما يُلزمها بإعادة النظر في الخيارات. هذا سيدعوني للتوقف عن أيّ شيء. أكاد أنسى أَنفي.. ستُدقّق فيه بنفور. أنا سأتأكّد من دمامة الوقت عليّ وستكون وفيّة في خفض معدّل الإيمان بحكمتنا العربية (الرجل لا يُعيبه شيء).

عليّ من الآن أن أقطع وريد الحياة في هذا المجرى.. بداية بهذا الاندفاع «يصحّ لي ألّا أُحِبّ أحداً، ويحق لي ألّا أُحِبّ حتّى نفسي؛ لكن ليس من صالح العالم ألّا أُحِبّ هذه الفتاة». سأُوقف طلباً بترجمته لدى بِن يزن منذ فترة. سيتوقف هو أصلاً دون سؤاله، وحتّى دون أن تموت جدّته.

> ... وأنت تجزم بأنّك جزء من مجموع أحدهم، على نظرك أن يتدرب على المسافات القصيّة؛ وإلّا تأهب لهاوية وحسب.
>
> الحياة هي الترك، الحياة إدراكٌ متأخر...

أخيراً يتوقف عن التدخين بعد أربعين عاماً. يُحذّره الطبيب أنّ جرح العين بعد العمليّة لن يلتئم إلّا بتوقفه عن التبغ. من فوره العم كميل يمتثل. طوال الوقت يحمل في مخبأ بذلته الداخلي علبة دخان «رُوثمان» مغلقة مع قدّاحة. يُؤكّد أنّه لا يُريد أن يشعر بالحرمان لذا يتحسّس جيبه في اليوم عدّة مرّات ويذهب لإكمال النهار. إن يسأله إيقِرِك إكمال كأسه من نبيذ «سان جوليان» سيقول: «لم أعد أليق بالكأس». ويطول شرحه. في البعيد من السنوات الشراب يُساعده على تجاوز الخيبات، بينما تَقَدُّمُه في العمر يتكفّل بهذا الدور. الألم لا يجد إليه طريقاً في السنوات الأخيرة. يتوقف عن الشراب؛ إذ لم يعد بحاجة له، فليس هناك خيبات.

الشجر وحده يُحدد وطنه دون شروط، وحده الشجر مُجَرّدٌ من فضيلة الفزع. العم كميل يقول هذا عن شجرة أَرْز تمتشق إلى عنان بعيد منذ مئة عام في الجزء الغربي من غابة «بوُلُونيا». تُنقَل من أرض لبنان إلى باريس. تعيش مثله دون حنين إلى وطن. كأنّها في مقامها تراه يُشبهها. أن تراهما ـ الأَرْزَة، العم كميل ـ أن تتفقد هُوّة الداخل فيك، أن تغور يدك في اللّاشيء، أن تتمنّى قناعاته، وتَكُوُنه في لحظة لتفهم؛ بل لتنام دون حسابات الغد.

في هذا المنتصف من الليل نقر حذاء ينقش على الرصيف شبع الحياة. يفيض بالطّرْقِ لإحياء شارع ينهبه الصمت. عند هذا الجانب من الويل، من حكاية أيّ انتظار، عبر التاريخ، ويُنجز ألماً في قلب أحدهم، أُعلن

بشجاعة على الغصّات أن تتوقف، فالغد سيكون لها وستجد وقتها كاملاً، كما يقول عزيزي أبو سُمير.

الآن، ربما مارتين تقترح على العم كميل أن ينقلا علبة رفات «بِتْشُوُن» إلى البلكون حيث أُصص الزهر تكون أرحم بـ«الفقيد» من أكياس نايلون تتحوّطه في الصالة. لن يُخبرني بموت «بِتْشُوُن» عَرَضاً؛ فهرم الكلب حدث يشبع منه الوقت بالحديث والشكوى له في مقرّ العمل. أُتابع مع العم كميل أوجاعه الأخيرة وحتّى حافةّ الساعة عندما يُقرر مع مارتين موافقة الطبيب المختص بحالة «بِتْشُوُن» على حقنه بإبرة الموت الرحيم. العم كميل يقول: «لا يُوجد موت شهم...».

فيما يبقى من رمق يومهما، يضع رأسه على وسادة. تعرف موعد صحوه عند الخامسة فجراً. لا بدّ أن يُدقق النظر في بذلة رسمية لا تحتاج كثير عناء. حذاؤه الوفي على تماسك خطوات رجل سبعيني. ينظر إلى علبة «البايب». على إيقرِك أن يُهديه هذا الغليون من خشب الكرز. مارتين ترى أنّ منحوتات السلاحف والفيلة من حجر «مالاكيت» تُضفي إلى طاولتهما الجانبية لمعة حرير أجمل من تلك الهديّة. تتحدّث أنّها تُفكّر جادّةً في نقل رُفات «بِتْشُوُن» وهو يصمت عن أفكارها ليلاً، وطيلة زواجهما.

عجز صرف في هذا الليل.. الوحشة تنتظر نقر حذاء جادّ في إكمال الطريق. النهاية بالغة الاشتراطات. كيف يتم الوصول بيُسر إلى مشنقة المواجهة؟!. وتنشب عتمة فيما يأتي من باريس وأيامها. في الغد شمس، وشجاعة من صديقة تغيب تنزعني من الاطمئنان العابر | **يُصفّق الليل لوهم الفرح.. ولا ينتظر حقيقة الصباح؛ لأنّ الصباح فخّ محتمل |.**

> في الانتظار لا سلام البتّة، إذ لا تُوجد غير احتمالات يبدأ أولها بضرورة المحاولة، ثمّ اعتياد المرارة، أمّا الاستسلام ففضيلة قاسية!.
>
> من هنا تماماً، وشخص يقيس ضعفه من نافذة استديو

يسرق جانبها شيئاً من حركة شارع كومّيرس. من هنا تماماً يقترح واقع الحال، ومن المعارك الواهية، أنّ جميع ما يسبق محض احتمال.

(الاحتمال مأزق تاريخي).. إنّه استمرار حكايات ومحاولات، طلال والبقيّة، الواثبة بالأخطاء وبحسنات القلق. ولأنّ حكاية الحياة لا تتوقف نجد في عميق رجائهم صدى يشي بتجربة عرب يعبرون في باريس أو تعبر فيهم باريس. لا يُفكّر في تلك اللحظة بغير توفيق سلّومي بعد انقطاع أخباره تماماً.

(التجربة ذاتها محرّضة، فيما الخذلان وسام ممارستها).. عبارة تقولها جريرة السنوات مع كميل، وربما مع توفيق سلّومي، كما يشعر طلال ويكتب العبارة باسمه الصريح.

أبو سُمير طوال الوقت يتلفّت إلى (شَمَال من البلاد وقبيلة) ويُنهكه التأنيب المؤقت. من الغد تنهبهم كلّ الرغبات بامتنان فائق. من الغد يُعيدون قائمة الأولويات (... الصدق، الكره، التعقل، التنازل، الاستقامة، العار، النبل، الخيانة، الشرف...). جميع القيم قابلة لإعادة صياغة. يُؤمنون بهذا المشروع متى ينتهون على عجز ما.

ولد السالم لا علاقة له بالوجوديّة، ولا باسارتر، عندما يتواطئ بسلوكه ليُحقق وجوداً ضدّ قناعاته، أو لنقل يسمح بالتساهل عند بعض المعتقد. يقمع محاولة طلال للحديث عن الثقافة المرتبطة بالأمكنة، وخاصة المتعلّقة بالفكر الأُوروبي. يلعنه عندما يعرف أنّهم يجلسون في Les Philosophes (مقهى الفلاسفة)، بعد أن يسير معه طيلة Rue Vieille du Temple، فماذا لو يعرف أنّ اسم الشارع (عجوز المعْبَد)؟! لنأخذ منه صفة (المستقيم) على ما يرغبه، فهو ثابت على نفي كلّ ما يقرأ ويُفكك السلوك البشري. يرفض التفكير. ربما هذا يعود لجذر (ثقافة الإجابة الواحدة، ما تُؤمن به لن يتغيّر). يتدخل كميل (يُؤمنون بأنّ الموت وحده ثابت الزمن والمهمّة؛ لذا لن تتمّ معهم الاستقامة بصورة كاملة، فعمر المتع صغير جداً).

(الدنيا تشاء، والآخرة تشاء)، فهذه العبارة هي واجهة البتدّل في مكونهم الثقافي، ربما. كميل يختصر لعبة التساهل مع المعتقد الجامد، ويضحك؛ لأنّ معظم العرب لم يعيشوا تمزّق الإنسان الأُوروبي إثر الحرب، ولم يشعروا بِهُوّة في الوجود (عدا هوّة الأمجاد المفقودة)، كما يُضيف هو.

فيما يتعلّق بقيمة الاستقامة تحديداً. يحضر مثالهم في السيد خطّاب وهو يحكي لطلال أنّ مبتعثة سعودية، والدها مفكّر مرموق، تدرس تاريخ الحضارة في السوربون. تزور المكتب لإنهاء بعض متطلبات دراستها. لا تسبقها أيّ شفاعة بحكم مكانة والدها. يعني التزامها بقيَم منضبطة وتثق بالحق. يُعلّق السيد خطّاب قائلاً: لو أنت في مكانها يا طلال قد تُجنّد كلّ معارفك لتلبية مطلبك.

يضحكان معاً، ويردّ طلال بما يقدح مماحكة قلب لقلب: لِأَكن وجيهاً وصاحب مال ومكانة كوالدها المفكّر وترى يا سيدي كلّ القيَم الرفيعة أنا أهلها.

(إذن القيمة، أيّ قيمة، هي عبارة عن مرحلة). يُطوّحَ طلال بهكذا فكرة في الاستديو؛ ظانّاً أنّه يُخمد داخله لهيب أسئلة أعمقها: تُرى أين أنت يا أستاذ سلّومي؟!. اليسار لم يعد سوى مرحلة. هذا التساؤل لن يأخذ حقّه كاملاً من التوجّع، فقد ينكشف (إيمان طلال الراسخ بالقيَم) عند كميل وهو ينقل عن صديقة تغيب | تخون ذاتك حين تنقلب ضدّ كلّ ما تكون وما تُؤمن، وحين تنحتك حتّى تُوافق قالباً ليس لك |.

رغم هذا.. طلال قد يُبدي لماتيلد شيئاً مما يُثار في مسألة (تحوّل القناعات)، فيما يأتي من وقت الحكايات، ولو تقديراً لجلوسه ذات مرّة، مع الرفاق وولد السالم، في (مقهى الفلاسفة).

***

> ليس بالضرورة أن يكون النِصاب صحيحاً دوماً عند إعادة الأمور إليه؛ فأحياناً استمرار الحياة يتطلّب لَبْساً عاصفاً ليتّضح الوضع المناسب لإكمال الأمر، أي لا بدّ من الامتثال لشرط المرحلة؛ لخوض التجربة.. إذن كلّ القيَم مرحلة!.

***

عندما تغبش عيناك بدمع يلمع في بداية احتقانه وقبل أن ينهمر، هناك ستكتشف الله وكمية الحزن الخصبة لمحراث الخوف كي لا تكون وحيداً. الألم سيكون في أوجّه. هناك احتضن صغيرتك. بعد سقوط الدمع ستبدأ فكرة التقليل من وطأة أيّ شيء سيزحمكما. بعد الدموع تحلّ نهاية تفاصيل بالتضميد وسواه. قد يحدث هذا في مدينة «رُوان» وهي ستُزَوّرني مقام المناضلة «جان دارك» أو «عذراء أُورليان».

سأعود إلى صديقة تغيب، وأتمنّى أن ينهار الجسر حين نجتاز معاً فقد والدَيْن، وأخطاء أرتكبها بنزاهة. أرجو الله، إلى آخر نجمة في السماء، أن تعود. وهناك، منعاً لوخز العتاب، ليتنا غجر، ونلتقي على غناء ورقص نفترق عليهما قبل سنوات، نلتقي كغجر لا نقلب سؤالاً عن حال أو فقد، لا نرُاجع جرحاً أو مَسرّة. «ليت» هنا محض أُرجوحة لما يكمن في الداخل. إن يذهب بي التخيّل، وألتقي ماتيلد مجدداً، فالحياة الحقيقية هي الأجدر بفرض أقدارها. هذا يعني شرك المواجهة مع الصديقة ذات يوم. إنّ رسالتها ا يا صديقي.. كلّ كلمة تستلّها من غمد صمتك، تطعن وحدتي ا، لا تشدّني إلى الأمام وحسب، بل وإلى مصافحة غفران. ولكن إلى أيّ حدّ ستصرخ حنجرتي بالرجاء أن يُثيب الله الصبر بعود الغُيّاب، ومتى؟!..

> الأصدقاء تمرينٌ على مرارة الغفران.

التفادي المتأخر جدّاً رخيص لا يُقدّم أيّ برهنة على تفوّقك. لا شك أنّ التصدي في بداية الموقف هو مؤشر الحذق والوعي، مثلاً في عمل

حسّاس، إنّما الحياة اللّازمة تكمن في الطبع البسيط والماضية في ترسيخ تقدُّمِك وتكوين ما يخصّك وبثّ الروح في وقتك. الحياة الخاصّة بك ولها أظافر تتشبّث بالآخرين، هي الجديرة بالنباهة والحرص على أدائها على نحو حَسَنٍ وظافرٍ بالدوام، ربما. الحكمة نسبية، فعلى الشفير لن نسأل كيف ننتهي؛ بل كيف ننجو، ونحن، من قبل هذا المحكّ، متى تسنح أمامنا خيارات النجاة نميل لأشدّها تجربة.

إنّه العم كميل يُوضّح لي طرق الخلاص من هذا الويل الملازم. يطلبني التخلّي عن أفكار الكتابة عند طاهر هشام، اسمي المستعار. بينما يُقرّ لي أنّ الأخطاء، هي الحياة الأكثر ذخراً من التنصّل أو محاولات التصحيح. يُواجهني بأنّ الكتابة ليست بديلاً عن الحياة. «ماتيلد أو الصديقة، كلاهما من صميم إيمانك؛ تخيّلاً أو حقيقة». هذا تأكيد العم كميل. دوماً يتحدّث كما لو أنّه يكشف سر الخلق، وأنا أُفكّر بأنّه كلّما تتّسع رقعة الجهل بي أكون في حاجة إلى الإصرار على التخفّي.

يصرخ في وجهي أن أصمت متى أتحدّث عن دور باريس في انتشار العالم المتحضر، ولا بدّ أن نأخذ ريادة ما. العم كميل يُعيدني إلى واقعها اليوم واستجابتها لكثير من قيم التحديث بين الشباب. لن أرجع لأمثلة «الحلم الأميركي» في «بلاد الغال». لن أستعيد مجدداً «تطرّفات الحداثة»، بحسب اشتغالات محمد أركون. لأضحك يُخبرني العم كميل باسم أغنية تليق بها أزقة الضواحي «Cam.. Cam». تحتمل الأمر «هات.. هات»، وتعني انتقال سيجارة الحشيش من يد إلى يد. شوارع باريس لا تخلو من رائحة مميزة لهذه النبتة الشبقة بين الشبيبة. لكن تبقى باريس مشيمة الوقت الأَجَلّ، وباستمرار تسمح للخيانة أن تتسلل إلى ذاكرة الحزن. تخلع عنها أسباب الحطام.

اليوم صباحاً في المترو، في اتجاه شارع «لا فاييت»، أتذكّر صديقي

عالي البيشي. أكاد أبتسم ولكنّ حسرة ما تترصَّد لي في الطريق. ملصقات تشي بِعِظَم حضارة «الإنكا» تتراصّ على طول محطّة المترو. إعلان ضخم لآثار من البيرو في مواقع مختلفة. ويلوح أمامي عَلَمُ بلادي يعلو واجهة مبنى يضمّ «جهة التمثيل» منذ سنوات تعبر عليه. يصير إلى لون فضّ. يستحيل إلى لون زيتي يُوشك على محو الشهادة والسيف منه!. ماذا تملك «البيرو» اقتصادياً مقارنة بما تلمكه بلادي؟!.

***

يأتي أنّ صديقي المثابر في معرفة أُحجيات القلب عالي البيشي يظهر عند الوجع الفاصل ليُرمّم خسارتي. منذ سنتَيْن أُحدّثه بالهاتف عن غيثة وتمنّي الشتاء قبل مَقْدمها بشهر على الأقرب. هو يحكي عن حقائق دون مديح التسميات. يرأس منبراً إعلامياً بحجمِ حلمٍ لبلادنا وإنارتها. يقول الحقيقة في أيّ شيء حتّى الجسد. يُجانب ولهي بغيثة في أول زيارة له إلى باريس. له حفاوة خاصّة مع المجيدين مالاً وجاهاً. يحق له أن يكون اسماً لامعاً في الصحافة. يحكي لي عن ليالٍ ذهبية في بلدان لا أسمع عنها إلّا من جودِ زمن ليس لي. يعرف ملذّات بذائقة أُناس كبار لا يُمكن فضح فسوقهم الآن. لا أتحدّث عن مفاسد العِلْية عملاً بنصيحة العم كميل.

لم يعد الشتاء يأتي بمحفل الشغف. أزيد لصاحبي البيشي من حكاية «الرجل الكلاسيكي». يسألني: «ماذا تعني؟!». أُوضّح له أنّ غيثة، قبل سنتين، تنعت أدائي، في العشق والأشياء، بالكلاسيكي؛ لأسقط في ضحك طويل تحت طاولة عشائنا. أتعجّب، حتّى العلاقة بفتاة تنبثق منها مدارس كالفنون!. أتساءل، هل باريس، «مدينة الشكل»، حسب كونديرا، تعرف هذا؟! هذه المدينة لا تنتج ألوان الحياة وأشكال البهجة وتكتفي، بل وصخب الاشتهاء في كلّ شيء. يَعْدِلُ في صورتها هذه أن تُنشر، في

فرنسا تحديداً، سيرة إرنست هِمنغواي بعنوان «باريس حفلة» ـ Paris est une fête ـ. لاحقاً يُوضّح لي أحد المتمرّسين بأنّ غيثة تطلبني بهذا المديح أن أكون تَقَدُّمِياً في الليل ومشتقاته!. يصخب البيشي في التهكّم بي. يُسفّه اشتغال اللغة في عقلي: «عليك أن تنزل قليلاً من غيمتك. ماذا تعني بليل ومشتقات. قل رغبة، فراش، أيّ لعنة واضحة، قلها. سَمّ الأشياء باسمها. الحياة لا تتحرك بوعيك الخائف من مواجهة اليومي والسطحي. الحياة تحتاج الكلام العادي»[1]. سأجمع في القلب بين عُسرَيْن، الأول لغة حسيرة، أمّا العُسر الآخر فذكرى صديقة تغيب ولا تتقمص مطلب المرحلة. لن أتحدّث عنها الآن، فالله لا يرضى بجمع عُسرَيْن، وهي تقول | طرقات الوجع لا تُطوى باعتساف الحزن |. صاحبي بدلاً من سخطه على تسويف الشتاء وأن يرجو لي دفئاً عاجلاً وغير متقلّب في مدارس العاشقات، يُهاجمني، ويسألني: «لا بدّ من صورة هذه الغيث». على عادته يطلب حديثاً مباشراً دون التواءات. أُريه الصور متمنياً أن يعتنق قناعتي بها. يتحقق من ملامحها.. كعادته أيضاً تكون له قناعة ضاربة وواقفة على حقيقة تصفع. يضحك كثيراً وينظر إليّ كمَنْ يتكبّد أن يهب لهالكٍ رصاصة خلاص. الموقف لم يسمح له أبداً أن يكون رحيماً بي. هنا الموت واحد سواء أنت على تمام عافيتك أو دونها. هكذا يفهم البيشي وهو يقول لي: «يا طلال، غيثة ليست ارتواء البتّة وهي تقضي معي ليلة رأس السنة في بيروت». قبل شهور يلتقيها. تكون مدعوّة إلى سهرة يُقيمها شخص في

---

(1) ـ يلتزم بِن يزن بأمانة النقل دفاعاً عن لغة طلال الصارمة مع اليومي: يستشهد لأجله بكتابة (صديقة تغيب)، حين تُدوّن ذات مرّة مقولتها ويحفظها طلال على لوحة في مكتبه | هذه لغتي.. لغة لا أملك من ناصيتها سوى قبض ريح، فكيف لي بلغة أُخرى! |.

ـ طلال لا يكتفي بهذا الحدّ، ويُحاول أن يردّ على صاحبه عالي البيشي: لغة لا تفرّ منها اللّوعة أو لا تكتسي من قاموس النشيج ليست جديرة بالاحتفاء.

لبنان، ولا يهب حظّ السهر معه إلّا لجميلات وخاصّين منهم البيشي. هذا الموقف إضافة بالغة الدقة في المقتل وسجلّ الهزائم الطويل.

من المساء، على وقت بخيل بالحياة، يصحو الشارع في أذني. نقر حذاء لسيدة ثلاثينية تعود في انتصاف الليل. يلمع جاكيتها الجلدي من الكتفَيْن بهميم متأخر. شارع «كُومّيرس» وحيد تحت سماء معتمة تماماً. امتداد خالٍ عدا عن مطر حنون يذرع الشارع مع امرأة تهرب منه. إضاءة الاستديو لن تذهب أكثر من قدر كفّ. الوحشة تدفعني إلى مؤانسة السيدة بشرفة خجولة. عَجِلَة في شأن ليس أبعد من حاجتها إلى سقف. شعرها لا ينجو من بلل فلن تمنعه حقيبة اليد فوق رأسها. في اللحظة الشهية، وعند منعطفها الأخير، ينقطع المكان من حركتها. تكون المواجهة مع خسارة كلّ شيء. رجل يجلس إلى ركن أحد المحلّات. يتأكّد لي أنّ في حضنه علبة فارغة ويُعلّقها طيلة النّهار بسنّارة تصطاد عطايا الناس. ينكفئ تماماً في ملابس تتكاثر عليه ولها رائحة تقصّ الأنف. رأسه ينحني في لفافة قماش تترك لعينَيْه حصةً التلصص اللازم. دواعي الليل تجعله في مأمن لا تفرضه مدينة أُخرى غير باريس. قنينة نبيذ رخيص لا تنفد ولا يتوقف عن الشراب منها. ماذا ستُدفئ منه غير المزاج؟. ماذا سيخسر في الغد وهو سيد الهامش من الحياة؟!. يكون هدفاً للحاجة لأنّه يختار. يستطيع أن يُجنّب شخصه متطلبات العمر الأخير. ضمانات الدولة تكفلها مساهمات الرعايا والمقيمين لرعاية تشرده. لا بدّ من حمايةٍ لضياعه الصائب. ولد السالم ينصحني باختيار العيش في محطّات المترو. قد تمتثل أمام عيني، من خلال النافذة، هيئة «مُنا»، الفيلسوف المتشرد ـ Clochard ـ، لأُصيب قلب العم كميل بالرضا. يُعادي جميع متطلبات الحياة في المدينة، ويتّخذ من السماء السقف ومن الأرض الفراش. يخطب في العابرين أن يفيقوا للحب: «إنّنا نعيش القليل من الزمن، لكنّنا نموت وقتاً طويلاً». من أجل

إقرار الحب بين البشر يُردف على دراجته هاتفاً أحمر لمخابرة قصرَيْ الرئاسة في الجمهوريتَيْن الفرنسية والأميركية.

أتلمس قلباً متحمساً، وعليّ الاختيار، لكنّ الواجب يترصّد بي. أُميّ، وأُخوة، ورغيف صعب. هل يطول تلصص الشحّاذ على شرفتي؟. خدر حميد يُبرر التواطئ على مسافة عالقة وفي نظر سارق بيننا. سأُغمض مصدر إطلالتي. عندما يجد النافذة مطفأة يلتفت إلى جهة ما؛ وأعرف أنّه يستبدل هدف متابعته بعيداً عنّي. هتك في الليل جدير به أن يحكّ السجلّ الشخصي. أنا في لمعة الدفء ويُحاصرني كلّ هذا الشوك من الحياة!. شريد الحاجَة يختار الطرقات، وتمتدّ له الحياة البطيئة في الشوارع الناصعة بالمشاة والأشياء والكلام. الحياة تُوفّر له ما لا ينقص أحد. هذا السقف صالح ليُكمل تحته أبواب الطريق السخيّة بالزوايا وتهويات المترو ومواقف الباصات ومداخل البنايات. ماذا ينتظر أكثر من هذا وقنينة بائسة لا ينتهي نبيذها القذر ولا يُقلع عنه!. في الليل يكثر فزع الوحيد، وصديقة تغيب، بعد أن تُسوّل للوهم غنيمة في الليل، تُؤكّد | **المعجزة الهائلة تكمن في ترويض الليل كصديق، وليس كعدو محتمل** |. مَنْ يُخبر هذه الصديقة أنّ المعجزات تدَّخر وقتها للأبطال فقط؟!.

> إنّه يشيخ في الظلام..
> في جانب من هذه الدنيا هو لا شيء، وهو لا أحد غيرها.
> هكذا في مُنتهى العزلة وعلى أرحب اتّساع.

***

كلّ هذا، أو بعضه، سوف ينبت في باريس، كما أُحاول أن يحدث لي. يحدث أيضاً أنّني ألتصق بركن حجرة في فندق «الرجال الكبار» جوار مقبرة العظماء. هناك بعد أن أُقدّر ـ في مساء مفقود ـ أن تتخيّل ماتيلد فتاةً لبنانية تنتظرني رغم كذبة ولد السالم في تعريفي إليها؛ لأنّني أصل متأخراً. أزيد:

«حتى الحائط في باريس له قلب وعشب، أمّا هناك في بلادي...». أقول هذا، وأفضح تفاصيلي عن شمّاء. دوماً الحقيقة أجدها قابلة للحياة لكنّها لا تحضر إلّا بعد الوقت، أو عليّ تأليفها. لن يعترف قلبي بعديد صبايا عدا في أُمنيات لم يحن وقتها بعد، ربما. الحقيقة تستنزفني لتكون على صورة يرضى بها الكثير. إنّني عاجز عن إقناع أيّ شخص بشيء من حقيقتي.

أيّها العالم، أحتاجُ ما يُشبه الوضوح ولا يُؤكّده، ما يُوشك على طمأنينة ولا يُتمّها. أحتاجه فأُبرّر للأصدقاء أنّني نصف، أن أستحيل احتمالاً؛ بل أُصَنَّفُ محرّضاً لاكتشاف لا يتحقق.. أنتظرُ زلّات تتنامى، ولا تغفو لأجل الصواب الموصد، أو أخطاء تركض مثل ألق النحل؛ تُشكّلُ مجاميع الزنّ على الرأس، لا تهويدة المسالمين. أيّها العالم، سأعيش رغم الموت الحالي. في سقف مطلوب سألتزم بوصية صديقة تغيب | **تزمّل الإيمان يا صديقي.. وحده الإيمان يمنحك أجنحة** |. وأقبض على لا شيء في محاولات الخلاص، التحليق، في تشييد عزلتي القاسية. أجدّ في النداء وأتعجّب: «يا لكثرة الوسائد.. لمرّة لِمَ يا الله لا تحشو واحدةً منها بالنهاية؟!».

> يُريد أن يخسر بفارق نقطتَيْن، لا بفارق نقطة، أن يكون متخلفاً بمسافة أكثر، ولا يقترب، فهو مُهيّأ للظلام ودون سابق أمجاد يستردّها.

حازّ مثل سكّين في ذات اليوم ويأتي، ألّا تجد من تُهاتفه ليسمع بكاءك...

ألا تكفي رسالة صغيرة إلى ما تيلد، وأُخبرها أنّ بيتي لا باب له، وقلبي يُشبهه. لتعرف أنّ العالم بأسره لم يعد بالخارج، فحتى المتشرد في الجهة المقابلة يعرف جحيماً هنا، ولم أعد وحيداً لأجلها!.

أتلفّت بالسؤال عن لازمة الشغف.. أن تنتظرك امرأة لتكون وقود الدنيا. «رُومان قاري» ـ Romain Gary ـ تقود أُمّه شعلة قلبه. تنسج حلمه وهو طفل يخجل، أمام الجيران، من تباهيها بأنّه سفير فرنسا وهما

روسيَّيْن!. تنتقل به إلى جنوب بعيد، إلى مدينة «نِيس» الفرنسية. يصحو الحلم من استحالته. بداية بالتعليم، ثمّ اللحاق بالوطنيين في المقاومة، فتمثيل فرنسا في السماء كطيّار مقاتل، وعلى الأرض كدبلوماسي. تتعدد الوجهات، ورسائل أمّه لا تتوقف عن باب يكون خلفه. عندما يجد وقتاً يزورها، وقد تلقّى رسالة منها قبل أسابيع؛ يُخبره الجيران أنّها لم تعد بقيد العيش. ترحل عن الدنيا منذ مدّة؛ لكنّها تُبقي له على وريد الحياة خمس عشرة رسالة[1]. تُوصيهم ألاّ يتوقفوا في بداية كلّ شهر عن إرسال واحدة منها إلى عنوانه. تقول: «ابعثوا رسائلي تِباعاً إلى رُومان؛ كي لا يشعر بغيابي. يجب ألّا تُزعجوه بموتي فهو مشغول بحرية فرنسا».

أعيش فربما ستقول ماتيلد أنّها هناك دوماً وستنتظر. هذا أيضاً ما يقوله الأصدقاء قبل أن يُخفوا مصابيح أيّامهم عنّي. يذهبون على رغم وعدي، والله.. الصداقة أن يعيش أحدنا لنحيا جميعاً بعد النهاية. الآن مَنْ يسمعني ويد واحدة ووحيدة لن تعثر عليّ في طريق ونلتقي لإكماله معاً!. مَنْ يقرأ لي: «بحق إسهاماتي الكُبرى في حضارة الحزن، بحق هامش صغير لتصرف الجنود في الجولة الأخيرة، وبوضوح موقف الماء من السراب ينتحل شخصه، بحق حاجة الغيم لردّ الجميل، بحق هذا الجهل المتدافع

---

(1) ـ السيد خطّاب لن يقول كلمة، وكميل يشرح: نلتقي في مطعم الشرفة (La Terrasse)، أمام ميدان المدرسة العسكرية (Place De l'École Militaire) في الدائرة (7). لم يظهر منه، طيلة سنوات عملنا معاً، بكاء كما أجده منه وعلى ويل كبير. ينتحب وبين يدَيْه كتاب يُكمل قراءته حينها. يتمسّك به كرضيع لم تتمّ له الحياة، ولم يلحق أن ينعم بابتسامة منه. يتشبّث به كما لو أنّه النجاة الأخيرة. الكتاب هو سيرة البطل القومي، الكاتب والدبلوماسي رُومان قاري، بعنوان (معنى حياتي) ـ Le Sens De Ma Vie ـ يشرحُ السيدَ خطّاب الرجلُ المعقود حلمه وأمله بأمّه وترحل عنه دون أن يصله خبر وفاتها. بحسب رسائلها غير المنقطعة هي تنتظره دوماً، لكنّ هذه المرّة لا تعيش له غير بضع رسائل يستلمها دفعة واحدة. ويقول: (أمّي هي أول شارل ديغول في حياتي).

إلى تسمية الحلم وطناً، بحق خجل الفأس عند تماسك الشجرة... هذا أنا يا صديقتي، أنا الـمَقَاتِلُ الرخيصة وقد تجنّبها التصويب».

قد يُفسّر كلّ هذا خوفي من البقاء، ولكن لماذا يا الله حين لا بدّ من الذهاب، الذهاب لا يجب أبداً!. السماء ستُؤجّل الإجابة عند صديقة تغيب وعليها أن تُسلمني بلاغها | تُعلّمني الحياة أنّها بالنقيض تتعافى |. هذا يقضّ إيماني بماتيلد، فهل أتوقف عن هذا اليقين بها: «ممتنٌّ حدّ الصدمة لأنّكِ تُمكنين الحياةَ من أن تكونك».

وأتذكّر عَلَمَ بلادي، يرفُّ بخضرة قاتمة جدّاً من على مبنى «جهة التمثيل». لن أستطيع إرسال ملاحظة عن هذا. أكتفي بتعليق خاصّ يفي بشجاعة كاتب هزيل: «الوطن ليس كلّ هذه الاستباحة للرجال بالقلق.. ليس كلّ هذا الاستنزاف حتّى آخر أمل». المرّة الوحيدة سيهتمّ العم كميل بما يكتبه طاهر هشام ويردّ بما يُوحي إلى تذمّره. يقصد حديثاً مريراً عن بلاد العرب واختصاره: «بلاد تُسمّي أعداءها كلّ يوم لن يسنح أمامها الوقت لتسمية أبنائها الطيبين». سأخاف من هكذا ردّ على تعليقي ولن يتحرك إلى أبعد من بِن يزن. من بعيد أسمعني: «تسلّح بالليل كلّه، بكلّ الليل تسلّح واذهب في دفتر الوحيد».

... وحيد مثل حريق الغابة لا يعرف خراباً أخفّ!. |

***

العاشق لا يلتفت.. أعرف هذا، فأنتِ يا ماتيلد الشمال المُعَدّ للأُفق والأمام الحادّ، أنتِ مآل الجهات جميعها، أمّا الصديقة في غيابها فالالتفات لا يتوقف داخلي، فأيّ الحياة تأخذها، وأيّ الوعود تأسّن قبل الوفاء بها؟!.

كأنّما الليل لم يعد يمر في هذا الشارع. الحذاء القادر على بعث الحياة عند هذه الساعة يصمت. المتشرّد ليس مؤهلاً لإضفاء شيء في

«كُومّيرس». مطلّ الاستديو يبخل بالإضاءة المحفّزة للعبة المراقبة. هل يصله «جاك بيرل» يتذرع في أُغنيته ـ Ne me quitte pas ـ:

«لا تتركيني

...

.. أنا سأُهديك

لآلئ المطر

الآتية من بلاد

لا تُمطر سماؤها

..

.. لا تتركيني

سأخترع لك

كلمات لا معنى لها

وتفهمينها».

هذا ما يصلني من نحيبه المبلل بلثغة الكلمات الفرنسية طيلة غنائه. أتحاشى أن أتذكّر تخيّل وقت ومحلّ شراء هذه الأسطوانة الذابحة. سيكون إلى جوار المحلّ ملصق ضخم لقطعة آثارية من حضارة «الإنكا». فيما لو أدخل خلف ماتيلد للمتجر سأرى صورة فاخرة لأجمل ما رأيت في السينما الفرنسية. إنّها الأيقونة «كاترين دينوف». على ماتيلد أن تتلمس محاسن الأنثى المثال في عينَيّ إن أُدقق في ملامح الممثلة وهي تُعطي للصورة عمراً فتياً. في هذه اللحظة، والليل يستمر في عقوبته المتشددة تجاه هذا الشارع، أقول حقيقة واحدة أنّني لم أتبادل مع ماتيلد أغاني تُنهي الحزن أو تُكرّس الرجاء. وأتمسّك بحقّي أن أكون في قلب الأصدقاء «تعويذة صبر في الزمن، ومُلون الحياة»، كما في يومٍ يغرب تقولها صديقة وتصمت.

***

قد يجب، من مخيالي المحض، أن تتساءل ماتيلد عمّا يمنعني عن

مكاتبتها، ولو برسالة على هاتفها، لأتصوّر أنّها تنتظر كلمة شاقّة جدّاً. عندها يلزمني إنصاف موقفي بتساؤل عن تلك الكلمة. لن أذهب بعيداً إن أصل إلى هذا مع ماتيلد: «أُحِبّك.. كيف تحتمل الآلة كلّ هذا الجحيم عند كتابة هذه الكلمة؟!». قد يُعذّبها تذرّعي إلى الله أنّني حصاد صغير ولا أُطعم حتّى رفاقاً من العصافير، فما شأن كلّ هذه المناجل للحنين بي؟!. أختار الهروب فهو المنجاة الوحيدة. أنحاز إلى ضعفي عند أدق مواجهة. أنتظر كثيراً، وأتذكّر «مقهى أُوديون» يجرفهم الليل إلى مسّوغات الفرح. إنّهم يمتهنون جيّداً العبورَ فقط، وأنا طيلة الأمل، طيلة التلصص من خلف زجاج أو نافذة باقٍ في مكان لا يأتيه أحد!. العم كميل يخسر رهاناته على أن أرى الحياة في الخارج، أن أجدها في مضمار الواقع لا غير. يقول لي: «الخيبة تعرف مشيمتها.. أنت». عليه أن يقسو لينتهي كلّ شيء في تصوّري، وليبدأ كلّ شيء في تصوّره. من قبيل الشجاعة أن أخضع لحكمة رجل أُحِبّه، وفي هذا رضا. الرضا خدعة دارجة لعدم الاستمرار.

دوماً المعركة الأخيرة تشهد استنزافاً، لكنّه لن يكون من قبيل بيان صديقة على حافّة أن تنسى !... علينا أن نجتاز الخطر فينا. انتهر وصايا السلف وهب للوقت سيوفاً ورماحاً، كي ندنو من النهايات بشغف !. هذه الخطوة تفوق أدواتي ويدي وتُؤجّل الحياة قليلاً. الزمن يُفعّل أدواره. هذا يحدث مع الأستاذ توفيق سلّومي، والعم كميل بمحض رضاه، بينما أنا أرفض القيد وأبقى فيه. ليس الوقت صالحاً لأُعيد أشكال الهزيمة، يكفي أن يعود عَلَم بلادي أمامي ضمن حصيلة الأيام؛ لأتأكّد من حجم الرصاصة.

على هذا المحمل من النزف والغريب عن هرولة باريس وشرط الحياة فيها، سأخسر فرصة التصالح. السيد خطّاب قريباً يرحل. بِن يزن زوجته تُثمر بالأولاد ويكبر. أبو سمير يجد السلوان الأكبر في الدائرة (3) من باريس ويضيع في أوقات الليل، أمّا ولد السالم فلا يتوقف عن خطط العزلة إن تزوّج. خطط لا تخلو من ساعة للشتم. عامر صبيح بعد سنوات

قد يموت على الكنبة لكنّه يُقدّم وفاءه كاملاً للنساء المتهدّمات. أنا لا أُنهي الحياة ولكنّ باريس تفرض سلطتها.

يا مدينة العالم:
عائدٌ إلى الجنوب
حملتُ كل أسفاري وكتبي وجراحي،
عائدٌ إلى جنوبي
إلى قبري الوحيد
الآن راجعٌ إليك يا حتفي، النبيل..
ولن أغيبَ مجدداً.

العم كميل في هذا الوقت الأخير من المساء ينظر إلى بذلته الصبورة وتعده بيوم هادئ في الغد. لن يُعلّق على حديث مارتين وهي تُعيد لنفسها أسفاً منذ أيام. تجرأت على الاستغناء عن أصص الزهر لأجل رفات «بتشون».. «لكن لم أجد لها مكاناً». تجد أعذارها وتأسف من جديد، وهو يصمت.

***

إن لم يتمّ جميع هذا العيش، وأُخلّص ماتيلد من الحرَج في الباص فقط، فسيكون هذا كافياً لمجد التجربة. سيكون اليوم المتّفق عليه لتردّ المبلغ هو الأحد. أقصد أيّ يوم، شريطة أن يكون «الأحد». على أيّ حال ستكون على وعدها. ستقف ماتيلد أمام محلّ اللحوم، وأنا سأُشرف على قوامها العذب عندما يلوب في حيرة، كأنّها تندم.

ليس لشعرها قصّته المعتادة. «كاريه» طويل ينداح بخصلاتٍ أقلّ ثقة. هل تذهب إلى تغييرٍ ما يخصّ جانباً شخصياً؟!. ستنظر إلى شاشة هاتفها المحمول وتقرأ الساعة. سوف تتفحّص الشارع الخالي من الحركة عدا جوار «مترو كُومّيرس» حيث المطاعم والمقهى، تحديداً أمام ميدان له

اسم الشارع. هناك شحّاذ يربط كأساً ورقياً إلى سنّارة يُدليها أمام مارة سيعبرون فرادى. ماتيلد ستشرح لنفسها أسباباً كثيرة عن عدم مجيئي. لا شك أنّها ستتساءل هل موعدنا عند العاشرة صباحاً أم لا. بائعو اللحوم والحلّاقون لن يُغلقوا محلاتهم في هذ اليوم. ستتردد في سؤال رجل «سِسِليا» ومُجبَرَة ستفعل. ستقع في فخ ثرثراته لو تُخبره أنّني عربي. سيسرد لها حكايات أجداده وأنّ أحدهم بدلاً من الهجرة إلى أميركا يذهب إلى الشرق. بنهاية الحال لم يعد قريبه ولم يفقر.

لن تغفر خطأها عندما تنسى حقيبتها، وعندما تُوافق على أخذ المال منّي وتغفل عن رقم هاتفي الأساس، ثمّ سأُستغني عنه في لاحق الأيام المتوقعة معها. إن أُوصلها في آخر لقاء حتّى بناية تسكنها ستُسَلّم بممازحتي لها حين ترى أن تجلب لي الخمسين يورو من شقتها. سأقول لها وهي ستُذعن: «إنّني أحتاج سبباً وجيهاً لأراك يوم أحد أمام متجر اللحوم».

ستدخل بسؤال مع صاحب المحل. سيُقاطعها بالحديث عن الشهامة لدى العرب. عليها أن تقول لنفسها: «هو لا يحتاج موقفاً شهماً ليُعبّر لي عن شخصه».

لن أنزل لهذا الشارع، ولن أُفوّت مراقبة زيارتها له ولن تنقطع طيلة أسبوعَيْن. عند الصباح قبل موعد الجامعة، وأثناء الحياة الصغيرة لليوم الواحد، وقبل الغروب. في بداية الأمر ستأخذ وقتاً أطول في الانتظار للتلفّت أو إبداء الأسف لصاحب متجر اللحوم. هذا لن يجد غضاضة في إعادة قصصه، وهي ستُبرر صبرها عليه بما قد تأمل من جديد عنّي.

لن أنزل لهذا الشارع، ولن أتخلّص من مراقبة بحثها ولا تتوقف عنه، ولن تبتسره بكلمة (إذن). لا تُوجد كلمة نهائية. هذه هي الحياة تتطلّب تدرّجاً لنُدركها قبل أن تُوافينا بالتَرك. هنا القداسة للمحاولات فيما يُشبه إصرار عَالِم على فكرة بقدح. في أول الأمر ستأتي مرّتَيْن يومياً ولمدّة أسبوعَيْن، وستأتي لمرّة واحدة عند المساء، ثمّ لن تُواصل مرورها بشكل منتظم.

ستتقطع مواعيدها حتّى تتفاوت وتنطفئ تماماً بعد شهر تقريباً. هناك تحديداً سأعتاد ألّا أحزن من التراجع، ولا على الندم الصغير، ولن تتألم هي كثيراً.

سأتحسّس حجم الانتظار داخلي. أعتقد أنّني سأُقاوم وخزاً مريعاً، لأهمس باسم الأستاذ توفيق سلّومي؛ لأُعيد من عينَيْه النقيتَيْن «الأمل لم يعد كافياً». سأتذكّر حجرة جليلة وألماً يُضيء من قلب صديقة تذهب، بعد أن تُخادع الوجع | دائماً ثمّة في الأرض متسع لميلادٍ جديد |. سأتذكّر تغيير القناعات وسأتأكّد أنّ قلباً، ينجو بالحياة، يُشبه استديو أسكنه. استديو يتوسّد طابقاً بارداً من البناية. يصمت منزوياً ويُخفي إشراقته عن المارين. وتلك الفتاة لن أراها نقطة. هي سطر طويل يستمر لأبعد من العمر، وأكثر وفاء من القطارات.

أنا كالوقت مُطَاردٌ بلا مخبأ **يحيى امقاسم**

باريس، بيروت، مُنتُونْ، الجزائر، برلين، فاس، لندن، تونس، فرانكفورت، المنامة

***و...**

خولة سامر، امتنان لتونس في قلبكِ، وأنتِ تُثابرين لتخرج هذه الأيّام بأعطاب التجربة، وأنتِ تُصرّين أن يذرعَ الحزن والبهجة الطريقَ نفسه، إلى ألقٍ ما..

إلى أباطرة العشب تحديداً.

26 شباط (فبراير)، وسنوات.

يحيى امقاسم

مواليد عُصَيْرَة، الحسيني، جازان، جنوب غرب السعودية، في بداية السبعينيات الميلادية.

له رواية (ساق الغراب ـ اَلْهَرْبَةْ) جزء من سيرة (ساق الغراب). صدرت الطبعة الرابعة منها، ضمن سلسلة «عيون المعاصرة» في دار الجنوب ـ تونس 2010م.

amqassim@gmail.com

يحيى امقاسم

رجل الشتاء

أيام كثيرة وصغيرة

هنا باريس، وسيرورة الحياة فيها؛ حيث الثقافة وجود، والمرأة حرية شرسة بقدمَيْن، والعلاقات صفقة مؤجّلة، والذات تتشظّى، والصداقة تجربة مستمرة على تحمّل عبء الغفران، والعربي ذاكرة هشّة في مواجهة واقع مُدوٍّ، والوطن مجاز لا أقرب ولا أبعد، والسياسة نرد بيد تجّار أسلحة، والمقاهي زمن إضافي بنكهة ملح العالم، والزمن دائماً عند نقطة الصفر، بينما الشوارع كلّها هرولة.

هنا يحيى امقاسم..

ونتذكر أنّ «بورخيس» في الخمسين من عمره سيُقلّد كاتباً شاباً يُدعى «كيبلنغ»، وقبله سيُقلّد «بودلير» ديوان «جاسبار الليل» لـ«ألوزيوس بيرتيران». في هذا العمل يحيى امقاسم؛ كأنّه يسأل لِمَ لا أُقلّد «ابن عطاء»؛ العَالِم العربي، في تجنّبه لكلّ كلمة تحتوي حرف الراء، لأنّه ألثغ. ولأنّ لسانه لا يحوّل حرف الراء إلى حرف الغين سيبحث عن اللثغ فيما وراء الفردي، في الجماعي، وسيجد أنّ لثغنا هو السلف من الزمن وهو جُمَل الوصل في كلامنا. عندئذ سيُفكّر في محو الماضي لكثرة تحكّمه في حاضرنا، وطمس الصلات لوطأتها في تعبيرنا. في هذا العمل يُريد لنا أن نعيش (الآن) والمستقبل معاً، عبر (مدينة العالم) كما يُسمّيها. يأخذنا إلى ميلاد اللحظة ونتوقف معه هناك. يشتغل على المشاهدات غير الصائبة، فلربما يصمت التاريخ عن جنايته ولو لمرة. لا نتحرك، فهو يبحث لنا عن مكان مُغاير بلغة تستجدي الوقت القائم وما يأتي.

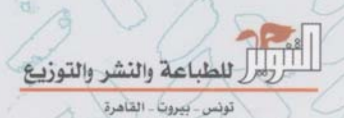
الناشر

تصميم: منال العريبيل Manalines Art

ISBN 978-9938-886-99-3



طوى للثقافة والنشر والإعلام



التنوير للطباعة والنشر والتوزيع

تونس - بيروت - القاهرة